فِي قِبَبِ بَنِي مِزْغِنَّا

نجمة سيّد أحمد

النَّاسِكُ

قَامَ الشَّيْخُ الَّذِي عَبْدَ اللهَ مِنْ نَوْمِهِ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وخَيْطُ الشَّفَقِ لَمْ يَتَبَيَّنْ بَعْدُ مِنَ الأُفُقِ الَّذِي يَشُدُّ السَّمَاءَ إِلَى الْجَبَلِ. ذَانِكَ اللَّذَانِ يَحُدَّانِ الْقَرْيَةَ الرَّاسِيَةَ فَوْقَ الْهَضَبَةِ الْعَاتِيَةِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى الْوَادِي الَّذِي يَضِيعُ فِيهِ الْبَصَرُ.

تَخَلَّى الشَّيْخُ عَنْ فِرَاشِ الْقَشِّ ونَفَضَ النُّعَاسَ عَنْ جَفْنَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ كُوخِهِ الْوَضِيعِ وسَارَ عَلَى بِسَاطِ الثَّلْجِ إِلَى حَيْثُ يَجِدُ مَا يَتَوَضَّأُ بِهِ.

اِجْتَهَدَ الشَّيْخُ قَبْلَ صِيَاحِ الدِّيكِ الَّذِي يُوقِظُ الْفَلاَّحِينَ مَطْلَعَ كُلِّ يَوْمٍ قَائلاً:

ـ أَلاَ فَانْهَضُوا أَيُّهَا الْكُسَالَى لِتَحْرُثُوا حُقُولَكُمْ فَقَدْ أَحْرَقَتْهَا أَنَامِلُ الشَّمْسِ، أَلاَ فَانْتَبِهُوا أَيُّهَا الأَحْرَارُ الْكُرَمَاءُ لِتُوَفِّرُوا لأَهْلِكُمُ الْخُبْزَ ولِدِيكِكُمُ الْقَمْحَ.

تَطَهَّرَ الشَّيْخُ بِالثَّلْجِ ثُمَّ، دُونَ أَنْ يَتَنَاوَلَ فُطُوراً، تَوَجَّهَ الصَّائِمُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْعَتِيقِ بَعْدَ أَنِ الْتَفَّ فِي بُرْنُسِهِ الْبَالِي الَّذِي لاَ يَكَادُ يَظْهَرُ نَسِيجُهُ مِنْ تَحْتِ الرُّقَعِ.

ظَهَرَ الْمُسْجِدُ كَالْقُبَّةِ فَهُوَ غُرْفَةٌ مُظْلِمَةٌ ضَيِّقَةٌ يُضِيئُهَا مِصْبَاحٌ أَعْمَشُ لَكِنَّ رَائِحَةً زَكِيَّةً تَنْبَعِثُ مِنْ أَرْكَانِهِ تُخْبِرُ بِأَنَّ هَاهُنَا الْمَلاَئِكَةَ، هَاهُنا الْقَدَاسَةَ.

بَرَكَ النَّاسِكُ قُرْبَ الْمِصْبَاحِ وتَنَاوَلَ مُصْحَفاً رَثّاً أَصْفَرَ أَغْبَرَ خَطَّتْهُ مُنْذُ زَمَنٍ أَيَادٍ سَاحِرَةٌ حَذَقَتْ فَنَّ الْمَغْرِبِ فَبَدَتْ عُقُوفُهُ ومُنْعَرَجَاتُهُ كَعَذَارَى يَرْقُصْنَ لِلنَّارِ.

فَتَحَهُ النَّاسِكُ وثَبَّتَ عَيْنَيْهِ اللَّتَيْنِ ابْيَضَّتَا فِي حُبِّ الرَّحْمَنِ، اِبْيَضَّتَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَتَمَثَّلَ وَجْهُهُ وشُعْلَةُ الْمِصْبَاحِ تَتَرَاقَصُ عَلَى تَقَاسِيمِهِ كَشَبَحٍ تَسَرْبَلَ وَقَاراً، مَهِيبٍ ولَكِنَّهُ أَنِيسٌ.

لَبَثَ الشَّيْخُ مَكَانَهُ أَمَامَ التَّنُّورِ الْمَنْطَفِئِ أَوْ كَالْمُنْطَفِئِ يُرَتِّلُ آيَاتِ رَبِّهِ فَهُوَ لاَ يَتَحَرَّكُ كَصَنَمٍ ثَبَتَ لِهَزَّاتِ الدَّهْرِ أَوْ كَجِنِّيٍّ خَرَقَ حُجُبَ الظَّلاَمِ وإِذَا بِنِدَاءِ الْمُؤَذِّنِ إِلى الصَّلاَةِ، إِلَى الْفَلاَحِ يُمَزِّقُ صَمْتَ الْكَوْنِ، وإِذَا مَنْ فِي الْقَرْيَةِ يَهُبُّ عَائِداً إِلى الْحَيَاةِ وتَعُودُ الْحَيَاةُ إِلَى كُلِّ مَنْ فِيهَا فَيَسْتَقْبِلُ حِينَئِذٍ الشَّيْخُ طُلاَّبَهُ مِنْ شَبَابِ الدُّوَّارِ لِيُلَقِّنَهُمْ مُتُونَهُ الَّتِي يَخْشَى عَلَيْهَا الأَرَضَةَ فَهُوَ يَحْمِيهَا كَالْكَنْزِ بَلْ هِيَ الْكَنْزُ كُلُّهُ.

إِنَّهُ يَتَرَبَّصُ بِالشَّبَابِ الَّذِي يَفِدُ، يَلْتَمِسُ فِيهِمْ أَيُّهُمْ سَيَحْمِلُ الأَمَانَةَ، أَيُّهُمْ يُوَاصِلُ الرِّسَالَةَ.

بَارِيس فِي 1996

عامٌ في زَاوِيَةِ سَيِّدِي اسْعيد إبَسِّيسَنَ[1]

اتَّخَذَتِ السَّيَّارَةُ سَبِيلَها بَيْنَ مُنعَرجاتِ جِبالِ الْقَبائِلِ. ونَحْنُ نَدْنُو مِنْ قَرْيَةِ بَنِي شَبانَةَ، إذا الْخالُ عَبْدُ الْحَمِيدِ يُشِيرُ بِبَنانِهِ إلى مِئْذَنَةٍ تَعْطُو بِأُمِّ رَأْسِها إلى شِعافِ الْجِبالِ الْشَّامِخة ويَتَفَوَّهُ بِحَنِينٍ:

ـ هاذِيكَ زاوِيَةُ سَيِّدِي اسْعِيد إبَسِّيسَن. أَوَ ظَهَرَتْ لَكِ مِئْذَنَتُها؟ تِلْكَ فِي سَيِّدِي عِيشٍ وقَدْ دَرَسْتُ بِها عاماً.

اِنْتَصَبَتْ أُذُنايَ على غِرارِ الْقِطِّ كَما الْعادَةِ. وتَطاوَلْتُ على دُبُرِي أُطِلُّ على المِئْذَنَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ في انْحِجابٍ. فَما إنْ بَلَغْنا الدَّارَ وارْتَحْنا بَعْضَ ارْتِياحٍ، حَتَّى تَناوَلْتُ قَلَمِي، وإذا الْخالُ عَبْدُ الْحَمِيدِ يَرْوِي بِبساطَةٍ، وكَأَنَّهُ شَعَرَ ما في نَفْسِي مِنْ حاجَةٍ، مُسْتَهِلاًّ:

ـ ثِمْعَمْرْتُ[2] سَيِّدِي اسْعِيدِ إبَسِّيسَنَ زاوِيَةٌ تَبْعُدُ بِكِيلُومِتْرَيْنِ عَنْ سَيِّدِي عِيش. دَرَسْتُ بِها عاماً ثُمَّ فَرَرْتُ لا أُطِيقُ. كُنْتُ بِها "قَدَّاشاً".

---

[1] شهاداتُ الْخال كَتَّاب عبد الْحميد (62 عاما). سُجِّلَ عامَ 2000م.

[2] الزَّاوِيَةُ بالْقَبائلِيَّةُ. ومَعْناها الْمُعَمَّرَةُ. أَيْ الْمَلِيئَةُ بِطَلَبَتِها وشُيُوخِها وعِلْمِها وخَيْرِها.

أَيْ غُلاماً أَخْدُمُ الطَّلَبَةَ. وكانَ عَدَدُهُمْ مِئَةً وخَمْسِينَ مَعَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَتَجاوَزُ آنَذاكَ اثْنَيْ عَشَرَ عاماً.

تَصَوَّرِي أَنَّهُ قَدْ كانَ في الزَّاوِيَةِ أَرْبَعُونَ زِيراً ضَخْماً غامِراً بِالزَّيْتِ، يُلاحِسُ سَقْفَ الْبِناءِ، نَدْعُوهُمْ نَحْنُ: "إشْبُولاَ". وكانَ عَلَيَّ أَنْ أَسْقِيَ الطَّلَبَةَ مِنْها.

ذاتَ يَوْمٍ، اِرْتَقَيْتُ سُلَّماً أَغْتَرِفُ زَيْتاً. بَيْدَ أَنِّي نَسِيتُ أَنْ أَرُدَّ الْغَرِيفَةَ على الشِّبالِيِّ. فَإذا كانَ دَوْرُ الْقَدَّاشِ الثَّانِي، تَنَبَّأَ عَلَيَّ عِنْدَ وَكِيلِ الزَّاوِيَةِ. فَتَشاوَرَ كِبارُ تِمْعَمَّرْتْ في شَأْنِ جَزَاءِ مُجْرِمٍ مِثْلِي وحَكَمُوا عَلَيَّ بِمِئَةِ فَلَقَةٍ.

وكانُوا قَدْ تَناوَلُوا "غُرَّافاً" رَبَطُوا إِلَيْهِ عُوداً أَدْلَوْهُ في جَوْفِ الزِّيرِ، فَإذا بِهِمْ يَنْتَشِلُونَ فَأْرَيْنِ. فَحَكَمُوا عَلَيَّ بِالْجَرِيمَةِ مَعَ أَنَّ الْحُجَّةَ لَمْ تَنْبَلِجْ في وَضَحِ النَّهارِ ورُبَّ غَيْرِي نَسِيَ الْغَرِيفَةَ مِنْ قَبْلُ فَتَسَلَّلَ الْفَأْرانْ إلى الشِّبالِيِّ.

الْحَقُّ أَنَّ طَلَبَةَ الزَّاوِيَةِ جَزِعُوا لأَمْرِي أَيَّمَا جَزَعٍ وأَشْفَقُوا مِنَ الْمِئَةِ فَلَقَةٍ. باتَ يَقِيناً لَدَيْهِمْ أَنَّ يَفاعَةَ سِنِّي لَنْ تَسْمَحَ لِي بِتَحَمُّلِ جَزاءٍ في مِثْلِ تِلْكَ الْغِلْظَةِ. ورُبَّما هَلَكْتُ أَيْضاً فَاقْتَسَمُوها بَيْنَهُمْ. لا سِيَّمَا وأَنَّ صاحِبَيْ الْفَلَقَةِ كانَا اِثْنَيْنِ مُخْتَصَّيْنِ. يَضْرِبانِ بِطَرِيقَةٍ مُتُمَيِّزَةٍ. ولَهُما أَعَوادُ زَبُّوجَةٍ دَقِيقَةٌ جِدّاً، تُشْحَطُ الْعَظْمَ قَبْلَ اللَّحْمِ، وتَشْوِي الْعَصَبَ شَيّاً.

عِنْدَما اقْتَسَمَ الطَّلَبَةُ الْجَزاءَ، نَدَرَتْ لِي عَشْرُ فَلَقاتٍ أَقْبَرَتْنِي الْفِراشَ أُسْبُوعاً لا أُطِيقُ الْمَشْيَ. وتَطَوَّعَ شَقِيقِي مُحَمَّدٌ السَّعِيدُ رَحِمَهُ اللهُ لِعِشْرِينَ. أَمَّا الْعَلَوِيُّ ـ وكانَ طالِباً ذَكِيّاً فَذّاً، أَصْلُهُ مِنْ بَنِي وَغْلِيسَ[3]، لَهُ تَجْوِيدٌ جَمِيلٌ غايَةً بَزَّ بِهِ الشُّيُوخَ أَنْفُسَهُمْ ـ أَخَذَ خَمْسِينَ فَلَقَةً وَحْدَهُ. الْعَجِيبُ فِي الْعَلَوِيِّ هَذَا أَنَّهُ كانتْ لَهُ قَدَمٌ غَرِيبَةٌ لا تَشْعُرُ بِالضَّرْبِ. فكانَ الْمُخَصَّصانِ يَكْرَهانِهِ لِذَلِكَ. كَيْفَ لا وَكانَ يَرْفَعُ رِجْلاً واحِدَةً يَأْخُذُ عَلَيْها الضَّرْباتِ كُلَّها وهُوَ يَضْحَكُ؟

وتَشاطَرَ غَيْرُنا مِنَ الطَّلَبَةِ باقِيَ الْفَلَقاتِ. مِنْهُمْ مَنْ اشْتَرَى خَمْساً ومِنْهُمْ مَنْ تَحَمَّلَ دُونَ ذَلِكَ.

اِعْلَمِي أَنَّا كُنَّا نَدْرُسُ غايَةَ السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ. ثُمَّ نَنامُ ساعَتَيْنِ ونَفِزُّ على الثَّالِثَةِ فَجْراً لِلصَّلاةِ مِنْها لا يَحِقُّ لَنَا النُّعاسُ.

وكُنَّا مِنْ شِدَّةِ تَعَبِنا وغَضاضَتِنا لا نَجْهَدُ. فَكُنَّا نَتَوَجَّهُ إلى الْعَيْنِ لِلْوُضُوءِ بَعِيداً فِي جَوْفِ الْغابَةِ. وما إنْ نَبْلُغَها حَتَّى يَتَوَسَّدَ كُلٌّ ذِراعَهُ تَحْتَ بَعْضِ الأَشْجارِ فَيَرْقُدَ.

فكانَ يَأْتِينا السِّي السَّعِيدُ هَذَا مِنْ بَنِي شَبانَةَ (وهُوَ غَيْرُ السَّعِيدِ وَلِيِّ الزَّاوِيَةِ)، قاطِعاً النَّفَسَ فِي ذَلِكَ الْخَلاءِ كَأَنَّهُ شَبَحٌ ـ وكانَ رَجُلاً مَعْذُوراً[4]

[3] إلى بني وغليس يَنْتَسِب الشّيخ الطّاهر الجزائريّ الوغليسيّ أبو النّهضة العربيّة الإسلاميّة في سوريا.

[4] معذور: معوّق.

لَهُ قَدَمٌ ناقِصَةٌ ـ فَيَتَناوَلُ كَوْمَةً مِنَ الأَوْراقِ يُقَطِّعُها إِرَباً إِرَباً، يَلُفُّها بِوَاسِعِ الْخاطِرِ حَتَّى تَصِيرَ كَالسَّجائِرِ، ثُمَّ يُولِجُها بَيْنَ أَصابِعِ أَرْجُلِنا. فَإِذا أَدْخَلَها، أَشْعَلَ فِيها النَّارَ واخْتَفَى كَالْجانِّ. حَتَّى إذا ما بَلَغَتِ النَّارُ أَقْدامَنا، فَزِعْنا نَصْرُخُ مِنَ الأَلَمِ وانْتَفَضْنا غِضاباً. الْغَرِيبُ في ذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ يَنامُ أَبَداً. وكانَ يَعْرُجُ ومَعَ ذَلِكَ لَهُ قُدْرَةُ الانْسِحابِ في طَرْفَةِ عَيْنٍ.

وكانَ الطَّلَبَةُ يَتَوَعَّدُونَ بِهِ ويَحْلِفُونَ بِأَنَّهُمْ لَيَنْتَقِمُنَّ مِنْهُ يَوْمَ يَتَخَرَّجُونَ مِنَ الزَّاوِيَةِ. أَمَّا الْيَوْمَ، فَما أَنْفَكُّ أَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ وهُوَ بَعْدُ على قَيْدِ الْحَياةِ. وكَذَلِكَ سَوْفَ أَفْعَلُ يَوْمَ مَماتِهِ لأَنَّ الرَّجُلَ كانَ يَضْرِبُ[5] لأَجْلِ مُسْتَقْبَلِنا ولَقَدْ أَخْرَجَ مِنَّا عُلَماءَ. بَلَغَنِي الْيَوْمَ[6] أَنَّ الشَّيْخَ ما يَزَالُ يَعِيشُ بِبِلادِ الْقَبائِلِ. ولَقَدْ أَحْبَبْتُ لِقاءَهُ ولَكِنَّهُ تَعَذَّرَ عَلَيَّ.

---

[5] يناضل، يجاهد.

[6] في أَغُسْطُسَ 2000م.

الْـخَطَّاط[7]

كَانَتْ عَيْنَاهُ تَشْتَعِلانِ وهُو يُحَدِّثُني عَنْ كَنْزِهِ ذَاكَ، قَدْ لَمَعَ وَجْهُهُ وتَفَتَّحَ كَزَهْرَةِ الْمَرْجَان، وارْتَسَمَتْ عَلَى شَفَتَيْهِ بَسْمَةُ الْفَخْرِ والْغِبْطَة، ورَكَضَ يَسْعَى إلَى خِزَانَةٍ صَغِيرَةٍ تَنْزَوِي في الْبَهْوِ الْبَسِيطِ، فَتَنَاوَلَتْ أَنَامِلُهُ فِي دُرْجٍ صَغِيرٍ مِفْتاحاً جَعَلَتْ أَصَابِعُهُ الْمُرْتَجِفَةُ تُعَالِجُ بِهِ الْبُوَيْبَ الْخَشَبِيَّ، ثُمَّ أَمْسَكَ فِيها الرَّجُلُ شَيْئاً أَخَذَ يَشُدُّهُ إِلَيْهِ كَالْبَخِيلِ يَكْبِسُ عَلَى هِمْيَانِ النُّقُودِ أَوْ كَالْمُخَدَّرِ يَلُظُّ عَلَى مَلْفُوفَةِ الْحَشِيشِ ولَكِنْ هَيْهَاتَ بَيْنَ ذَا وذَيْنِكَ!

جَلَسَ الرَّجُلُ بِجَانِبِي ثُمَّ أَرَانِي مَكْنُونَهُ فَإذا هُوَ مُصْحَفٌ صَغِيرٌ مَلِيحٌ أَنِيقٌ قَدْ خُطَّتْ آيَاتُهُ بِرُسُوم بَدِيعَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ مُنْتَظِمَةٍ وأُلْصِقَتْ أَوْرَاقُهُ بِفَنٍّ فَأَضْحَى لُطْفاً وحَلاَوَةً كُلُّهُ، وأَمْسَى تُحْفَةً ولَوْ بَسِيطا.

---

[7] برواية السيّد المرحوم محمّد الطّيّب بن بلقاسم. ويَقُول إنّه رأى صندوقا مَمْلُوءا كتبا خطّها جدّه محمّد الطّاهر بن الحاج الطّيّب بيده. ثمّ إنّ فرنسا أحرقتها جميعها أثناء الثّورة التّحريريّة وإذا به يعثُر على هذا المصحف وسط ركام الرّماد سالما بمعجزة وقد أكلت النّارُ أطرافه لم تَعْدُها فالْتَقَطَهُ ورمّمه واحتفَظَ بِهِ. ويَبْدو أنّه الأَثَر الْوَحِيد لجدّه رحمهما الله كليهما.

نَظَرْتُ إِلَى الرَّجُلِ الْمُتَطَايِرَةِ شَرَارَاتُ الشَّمَمِ والْكِبْرِيَاءِ مِنْ مُؤْقَيْهِ مُسْتَفْهِمَةً فَقَالَ والْفَرَحُ يَتَرَاقَصُ بَعْدُ فِي حَاجِبَيْهِ:

ـ أَتَدْرِينَ مَا هَذَا الْمُصْحَفُ؟ إِنَّهُ مُصْحَفُ[8] الرَّاحِلِ جَدِّي... كَانَ جَدِّي ـ عَفَا اللهُ عَنْهُ ـ يَعِيشُ فِي قَرْيَةِ "مَزْرَارِيق"[9] الْمَحْشُورَةِ بَيْنَ قَبَائِلِ "إِلْمَايِنَ"[10]؛ وهي ـ مِنْ ضِيقِهَا وانْكِمَاشِ حُدُودِها ـ تَقْبَعُ عَلَى قَرْنِ جَبَلٍ فَارِعٍ يَعْلُو مُتَوَحِّشاً فِي السَّمَاءِ، سابِحاً فِي الْفَضَاءِ، نافِراً مِنَ الْعِبادِ. ويَشْهَدُ اللهُ أَنَّ النَّاسَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ مُنْزَوِينَ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْجِبَالِ إِنَّمَا تَنْطَلِي عَلَيْهِمْ وَحْشَةُ الْمَكَانِ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ فَلاَ يَلْبَثُونَ يُشْبِهُونَ الْبَهِيمَ الَّذِي يُؤْنِسُونَ أَوْ هُوَ أَلِفَهُمْ.

أَمَّا فِي عَرْشِي[11]، فَقَدْ كَانَ جَدِّي الشَّيْخُ الْهَرِمُ، يَتَسَلَّقُ شَعَفَةَ الْجَبَلِ الَّذِي حَطَّتْ عَلَيْهِ بُيُوتُ الْفَلاَّحِينَ، وهُنَاكَ بَيْنَ الرُّبَا والْبُطُونِ وعَلَى الدُّرُوبِ الْمُخْتَنِقَةِ وأَحْيَاناً بَيْنَ الْوِدْيَانِ، يَلْتَمِسُ مُخْتَلَفَ الأَعْشَابِ والنَّبَاتَاتِ الَّتِي وَحْدَهُ يَعْرِفُ سِرَّهَا، يَحْنِي قَوْسَ ظَهْرِهِ الَّذِي بَانَتْ فِقْرَاتُهُ تَحْتَ "الْغَنْدُورَةِ"[12] الْبَالِيَةِ، يَجْمَعُ الْحَشائِشَ النَّادِرَةَ بِحُنُوٍّ ورِفْقٍ،

---

[8] خُطّ المصحفُ في 1206 هجريّة، الموافقة سنة 1791م.

[9] قرية في عَرْشِ "إِلْمَاين" من القبائل الصّغرى، بولاية برج بو عريريج.

[10] مجموعة قرى بربريّة في ولاية برج بو عريريج.

[11] مجموعة قرى.

[12] الجُبّة.

كَالْعَاشِقِ يَلْمَسُ أَنَامِلَ حَبِيبِهِ، كَبِقْمَالْيُونَ[13] يَتَحَسَّسُ مَرْمَرَ تِمْثالِهِ فَتَنْشَرِحَ فِيهِ الرُّوحُ وتَدِبَّ فِيهِ قُشَعْرِيرَةُ الْحَيَاةِ، كالضِّئْرِ تَتَحَنَّنُ عَلَى صَغِيرِها، تَرْتَعِشُ عَلَى رَضِيعِها... ثُمَّ يَضَعُ الرُّزْمَةَ الْحَبِيبَةَ عَلَى صَدْرِهِ فَيَغْدُو كَالأُمِّ تَضَعُ وَلِيدَهَا عَلَى ثَدْيِهَا تَتَرَدَّبُهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا بِرِفْقٍ ولَكِنْ بِإِحِكَامٍ. ثُمَّ هاهُوَ ذَا يَعُودُ طَرِيقَهُ بَيْنَ الْقِيعَانِ والْمُنْحَدَرَاتِ الْوَعْرَةِ، يَكَادُ فِي كُلِّ حِينٍ تَزْلَقُ رِجْلُهُ مِنَ الْكِيفانِ الْمُنْتَصِبَةِ غَدَّارَةً، ولَكِنَّ اللهَ يَسْتُرُهُ حَتَّى يُوفِيَ الْمَهَمَّةَ، ثُمَّ فِي كُوخِهِ الْوَضِيعِ يَصْنَعُ بِمَا جَنَاهُ حِبْراً أَحْمَرَ وأَسْوَدَ وبِلَوْنِ الأَدِيمِ، وبِالزَّعْفَرَانِ ومُحِّ الْبَيْضِ يَصْنَعُهُ أَصْفَرَ فاقِعاً أَيْضاً، إِمَّا يَجْمَعُهُ فِي قَارُورَةِ دَوَاءٍ أَوْ فِي بَعْضِ الْحُقَقِ الْعَتِيقَةِ نَجَرَهَا فِي جَوْزَةٍ ما، أَوْ لَعَلَّهُ وَرِثَهَا عَنْ بَعْضِ شُيُوخِ سُلاَلَتِهِ لِذَلِكَ تَبْعَثُ عَبَقاً لَذِيذاً يَشُدُّ الرُّوحَ مِنْ بَيْنِ الضُّلُوعِ ويَحْمِلُها إلى ماضٍ سَحِيقٍ فَتَّانٍ جَبَّاذٍ فَتَدُوخُ فِيهِ صَرِيعَةً وكَأَنَّ بِها مَسّاً! ثُمَّ فِي قَصَبَةٍ مَبْتُورَةٍ تَنْبُتُ عَلَى حَرْفِ بَعْضِ الأَوْدِيَةِ الْهَزْلانَةِ الضَّئِيلَةِ، يُشَكِّلُ قَلَماً رَشِيقاً صَقَلَهُ بِبَراعَةٍ فَيَتَمَايَلُ حَذِقاً فِي خَطِّ الْحُرُوفِ.

ثُمَّ إِنَّ جَدِّي يُخْرِجُ بَعْضَ النُّقَيْدَاتِ يَكُونُ قَدْ جَمَعَهَا فِي صُرَّةٍ لَهُ يُخَبِّئُهَا تَحْتَ وِسادَتِهِ أَوْ فِي فَنِيقِهِ[14]، أَوْ يَحْرُزُها في مِنْدِيلٍ قَدْ رَبَطَهُ بِخَيْطٍ إلى صَدْرِهِ حَتَّى تَكُونَ أَقْرَبَ إِلَى قَلْبِهِ فَيَدُومَ فُؤَادُهُ عَلَيْهَا عَسَّاساً؛ إِنَّ جَدِّي

---

[13] Pyglmalion

[14] صندوق خشبيّ تقليديّ.

كَانَ يَصُومُ أَيَّاماً قَبْلَ أَنْ تَجْتَمِعَ لَدَيْهِ تِلْكَ الْكُمْشَةُ مِنَ النُّقَيْدَاتِ وقَدْ يَجُوعُ طَوِيلاً حَتَّى تَلْتَئِمَ لَدَيْهِ تِلْكَ الدُّوَيْنِقَاتُ ولَكِنَّهُ عِنْدَمَا تَشْتَدُّ لَدَيْهِ الرَّغْبَةُ حَتَّى لا يَسْتَطِيعَ النَّفْسَ تَرْوِيضاً ولا هُوَ يَقْدِرُ عَلَيْها صَبْراً، نَزَلَ إِلَى بَعْضِ الْمُدُنِ أَوْ هُوَ يَسْتَأْمِنُ عَلَى رَأْسِمَالِهِ بَعْضَ الأَخْيَارِ مِمَّنْ يَثِقُ فِيهِمْ فَيَشْتَرُونَ لَهُ وَرَقاً رَفِيعاً بَهِيضاً حَسَناً، طَابَ مَلْمَسُهُ كَالْحَرِيرِ، وزَانَ ظَاهِرُهُ كَالدُّرَرِ. وما تَلْبَثُ تَجِيئُهُ الأَمَانَةُ حَتَّى يَتَنَاوَلَ الْوَرَقَ بِحَذَرٍ وتُؤَدَةٍ ويَشْرَعَ فِي تَفْصِيلِهِ صَفَحاتٍ مُسْتَطِيلاَتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ. وإِذَا فَرَغَ، جَلَسَ يَنْصِبُ رُكْبَةً ويَمُدُّ الأُخْرَى، ثُمَّ بِاجْتِهادٍ مُعْجِزٍ مُحَيِّرٍ وَاظَبَ مُتَعَبِّداً خَاشِعاً عَلَى نَسْخِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ، مُعْتَدِلَ الْخَطِّ مَطْبُوعَهُ، مُتَوَاتِرَ الرِّوَايَةِ، مُنْطَلِقاً لا يَقِفُ ولا يَتَوَانَى إلاَّ لِحَاجَة... كَأَنَّ الْقَلَمَ يَأْبَى لَهُ انْصِيَاعاً، أَوْ كَأَنَّهُ لا يَلِينُ لَهُ عُقُوقاً، وقَدْ كَبَا عَنْ صَاحِبِهِ بَعْدَ أَنْ تَغَطْرَسَ بِشَرَفِ كِتَابَةِ كَلِمَاتِ رَبِّهِ، أَوْ هُوَ غَدَا كَالْمَرْكُوبِ قَدْ غَلَبَهُ سِحْرُ بَيَانِ رَبِّهِ، أَوْ هُوَ مَضَى كَالْوَلْهَانِ قَدِ انْغَمَسَ فِي عِشْقِ مَعَانِي رَبِّهِ، أَوْ هُوَ كَالْوَسْنَانِ رَأَى فِي الْغَبَشِ طَيْفَ الْمَلَكِ يَحْمِلُ لَهُ نِبْرَاسَ رَبِّهِ، أَوْ هُوَ كَالْمَقْهُورِ لا يَمْلِكُ زِمَامَ أَمْرِهِ أَمَامَ جَبَرُوتِ رَبِّهِ... ومَهْمَا تَكُنِ الأَسْبَابُ، فَإِنَّ الْقَلَمَ يَغْدُو خَاطّاً الْحُرُوفَ وَرِشاً حَثِيثاً فِي السُّطُورِ، يَنْسَابُ عَلَى الْكَاغِظِ كَمَا تَنْسَابُ الْحُوتَةُ فِي الْمَاءِ، يَتْفُلُ مِدَادَهُ عَلَى الْبَيَاضِ كَمَا تَنْفُثُ الْحَيَّةُ سُمَّهَا فَيَكُونَ تِرْيَاقاً يَحْمِلُ إِكْسِيرَ الْحَيَاةِ. ومَهْمَا يَكُنْ، فَإِنَّ قَنَاةَ الْقَلَمِ لا تَلِينُ لِلشَّيْخِ إلاَّ عِنْدَ تَعْدَادِ الأَحْزَابِ ومَا يَنْقَطِعُ نَفَسُهُ إلاَّ وقَدِ اسْتَنْفَدَ السُّوَرَ كُلَّهَا.

سَاعَتَئِذٍ، صَارَ يَجْمُلُ الأَوْرَاقَ ويُجَلِّدُهَا بِإِمْعانٍ فَتَنْجَلِيَ مُصْحَفاً لَطِيفاً تَسْهُو فِي جَمَالِهِ الأَحْدَاقُ، وتُعْجَبُ فِي جَوَانِبِهِ الأَطْرَافُ، ولا تَسْتَغْنِي عَنْهُ الأَلْحَاظُ، بَلْ وتَعْجَزُ الأَجْفَانُ عَنْ أَنْ تَنْطَبِقَ دُونَهُ. وقَدْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ الْعَقْلِ فَصَارَتِ الرُّوحُ لَهُ عَابِدَةً وعَلَى رُكْبَتَيْهَا جَاثِيَةً...

الْحَقَّ أَقُولُ لَكِ: إِنِّي أَغَارُ مِنْ جَدِّي وأَنَا أَتَمَلُهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ. يَا لَسَعادَتِهِ مَا إِنْ مِثْلُهَا سَعادَة!... لَعَلَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِجَنَاحَيْنِ يَنْبُتَانِ لَهُ فَجْأَةً ويَحْمِلاَنِهِ فَوْقَ قُبَّةِ "مَزْرَارِيقَ"... هُناكَ فِي جَوْزَاءِ الْجَبَلِ، فَوْقَ الشِّعَافِ ومِنْ أَعْلَى الْقِمَمِ لَمْ يَبْقَ لأُفُقِهِ حُدُودٌ، وصَارَ يُبْصِرُ مَا وَرَاءَ الْقِلاَعِ، أَحَسَّ بِخِفَّتِهِ كَرِيشَةِ الْعُصْفُورِ يَتَلاَعَبُ بِهَا الأَثِيرُ فَهِيَ مُتَرَاقِصَةٌ... فَضَحِكَ جَدِّي... ضَحِكَ مِنْ تَفَاهَةِ الْحَيَاةِ فِي "مَزْرَارِيقَ"، وتَلَذَّذَ التَّحْلِيقَ هُنَاكَ فِي عُلُوٍّ فَوْقَ الأَطْوَادِ، فِي الْفَضَاءِ مَعَ الأَجْرَامِ، وفِي هَذَيَانِهِ رَنَا إِلَى جَبَّانَةِ "مَزْرَارِيقَ" فَبَانَ لَهُ اللَّحْدُ يُرِيدُ أَنْ يَضُمَّهُ ثَرَاهُ فَتَبَسَّمَ جَدِّي فِي هُزْءٍ، بِحِكْمَةٍ، لأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يَخْشَى الْمَوْتَ... كَيْفَ إِذاً يَخْشَاهُ ولَمْ يَعُدْ لِلْمَوْتِ إِلَيْهِ سَبِيلٌ وقَدْ كُتِبَ لَهُ الْخُلُودُ مَعَ مُصْحَفِهِ عَبْرَ السِّنِينَ والأَحْقَابِ؟!...

باريس في 7مايو 1999م

السَّاحِرة[15]

غَدَوْتُ ذاتَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْجُمُعَةِ إلى الْحَمَّامِ الّذِي في إحْدَى زَنَقاتِ الْقَصبَةِ كَمَا عادَتِي. فأَلْفَيْتُهُ فارِغاً لا حِسَّ فِيهِ ولا حَرَكَة. ومَعَ أَنَّ التَّقاليدَ تَنْهَى عَنْ مُعاشَرَةِ الْحَمَّامِ في خَلْوَةٍ، فَقَدْ اتَّخَذْتُ لِي مَجْلِساً على بَلاطِهِ الْمُزَرْكَشِ وجَعَلْتُ أَغْتَسِلُ. وإذا بِامْرَأَةٍ سَوْداءَ، مِنْ أَهْلِ الصَّحْراءِ، تَلِجُ عَلَيَّ الْبَيْتَ السَّاخِنَ، تَقُودُ عَجُوزاً وَجْهُها أَشْبَهُ بِوَجْهِ الْحِمارِ - أَعَزَّكِ اللّهُ - مِنْهُ بِالآدَمِيِّ.

اِنْتَابَنِي لِمَنْظَرِها مَزِيجٌ مِنَ الْحَيْرَةِ والرُّعْبِ وتَمَلَّكَنِي الْقَلَقُ وإنْ غَمُضَ عَلَيَّ أَمْرُها وانْسَدَّ. نَظَرْتُ إلَيْها مُتَفَحِّصَةً فإذا بِها قَرْعاءُ مَلْساءُ لَيْسَ على جُمْجُمَتِها سِوَى شُعَيْراتٍ ثَلاثٍ، وعَيْناها وَاسِعَتانِ جاحِظَتَانِ لا هُدْبَ يَخْفِرُهُما، قَدْ بَدَتَا غارَيْنِ أَرْبَدَيْنِ يَتَجَنَّبُهُما النُّورُ، فَهُمَا أَبَداً حالِكَتانِ مُطْفَأَتانِ تَنْظُرانِ في فَراغٍ. وأَمَّا شَفَتاها فَضَخْمَتانِ مُنْتَفِخَتانِ تَنْقَلِبانِ إلى عُلُوٍّ فِي بَذاءَةٍ كَمِشْفَرَيْ الدَّوَابِّ. وَجْهُهَا أَكْحَلُ أَغْبَشُ عَلَيْهِ غُبْرَةٌ فَلا هِيَ

---

[15] برواية المرحومة حسينة بن زرّوق. تُوّفيت إلى رحمة ربّها في زهرة الشّباب.

فِي الأَحْياءِ ولا هِيَ مَعَ الأَمْواتِ، غائبَةٌ عَنِ الْعالَمِ جُمْلَة. جِسْمُها هَزِيلٌ ضَعِيفٌ قَدْ بَدَتْ عِظامُهُ تَحْتَ الْجِلْدِ الْمُتَفَلِّجِ كَبَعْضِ الزَّواحِفِ، وظَهَرَتْ تحْتَ ثَدْيَيْها وعَلَى رُكْبَتَيْها جُرُوحٌ وسَلْخٌ نَبا عَنْها الْجِلْدُ فَبانَ مَضْرِبَها اللَّحْمُ وَرْدِيّاً مُحْتَرِقاً.

مَغْلُوبَةٌ مَقْهُورَةٌ، قَدْ أَحْبَطَها الإعْياءُ وأَحاطَتْ بِها الْهُمُومُ فَباتَتْ لا تَجِدُ سَبِيلَها فِي الدَّهْلِيزِ الْمُدْلَهِمِّ.

بِحَياتِي لَمْ أَكُنْ قَدْ لَقِيتُ امْرَأَةً بِذَلِكَ الْقُبْحِ وتِلْكَ الشَّناعَةِ. وأَبَداً لَمْ يَلْبَسْنِي ذُعْرٌ مِنْ ابْنِ آدَمَ كَذَلِكَ الّذي تَغَلَّفَنِي مِنْ تِلْكَ الْمَخْلُوقَة.

سَأَلْتُ الرَّفِيقَة:

ـ أَهَتِهِ أُمَّكِ؟

ـ كَلاَّ! نَحْنُ أَصْحابُ دُوَيْرَة[16] وهذه "الْوَلِيّة" جارتنا. يتبرَّعُ أحدنا كلّ أسبوع ويأتي بها إلى الحَمّام تتطهّر!...

ـ ولكن... ما لها كَأُضْحِيَةِ الْعِيدِ مَسْلوخةٌ تحت ثَدْيَيْها وعلى رُكْبَتَيْها؟

ـ ذَلِكَ لأَنَّها من أَصْحابِ الدِّيوَان.

ـ وما أَصْحابُ الدِّيوَان؟

ـ أَصْحابُ الدِّيوَانِ، يا لالاَّ، سَحَرَةٌ ـ أَعاذَنا اللهُ وإِيَّاكِ مِنْهُمْ ـ باعُوا أَنْفُسَهُمْ لإبْلِيسَ مُقابِلَ أَنْ يَكْشِفَ لَهُمْ الْغَيْبَ، ويَنْزِعَ عَنْهُ، أَمامَ نَظَراتِهِم الْخَبِيثَةِ، الْبُرْقُعَ الْمُقَدَّسَ فَيُحَمْلِقُوا في عُذْرِيَّتِهِ حَتَّى يَبْطِرُوا وإلى أَنْ

[16] دار عاصميّة عثمانيّة، بها غرف عديدة تحفُّ بصحن الدّار وتقطنها عائلة كثيرة.

يَسْكَرُوا ثُمَّ يَنْقَلِبُوا إلى حُثاثاتِهِمْ الدَّنِيئَةِ وذُيُولِهِمْ الدَّنِسَةِ يُلْقُون إلَيْها بِبَعْضِ الْخُشار. لَقَدْ كانَتْ شُهْرَةُ الْعَجُوزِ هَذِهِ إزَاءَكِ تَمْلأُ الآفاقَ. وكانَ الْمُرِيدُونَ يَقْصِدُونَها مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وحَدْبٍ: مِنَ الْجَزائِرِ ومِنَ الْمَغْرِبِ وتُونِسَ كِلَيْهِا. وكانَتِ الْخَلائقُ تَذْبَحُ عِنْدَها الْجَزُورَ تَقَرُّباً لِلنَّجِسِ الْمُتَوَّجِ باللَّعْنَةِ إبْلِيسَ. وتُضَحِّي لِمَلِكِ الظَّلامِ الْفِرَادَ وتَنْحَرُ عِنْدَهُ الْفَضِيلَةَ بِتَقْرِيبِ الْبَقَرِ والْكِباشِ والْخِرْفانِ.إنَّ هَتِهِ السَّاقِطَةَ الّتي تَرَيْنَ الآنَ صَوْبَكِ كانَتْ تَتَرَنَّحُ على الذّهَبِ والْمَاسِ، مُتَرَفِّهَةً، مُتَمايِلَةً في الحَرِيرِ والدِّمَقْسِ وكانَتْ تَتَجَرَّعُ التُّونِسِيَّ!

ـ التُّونسِّي! وما هُوَ ؟

ـ إنَّها خَمْرَةٌ مُخْتارَةٌ كانَتْ تَعْصَرُ في تُونِسَ. وكانَ يَتَعاطَاها الْمُشَعْوِذُونَ فَيَهِيجُوا وتَلُفُّهُمُ الأَهْوَالُ.

ثُمَّ الْتَفَتَتِ الْمَرْأَةُ السَّمْراءُ إلى السَّاحِرَةِ وهَمَسَتْ في أُذُنِها:

ـ التُّونِسِيّ... التُّونِسِيّ...

فَسَرَتْ قُشَعْرِيَرةٌ في بَدَنِ "سَتُّوتَ"[17] ورَمَشَتْ لَماماً فَتَحَرَّكَتْ مُقْلَتاها الْجامِدَتانِ بِبَرِيقٍ غَرِيبٍ ثُمَّ تَمْتَمَتْ:

ـ إيهِ... إيهِ...

فاسْتَأْنَفَتِ الْجارَةُ:

---

[17] عَلَمٌ تُلَقَّبُ به العجوزُ السَّاحِرة في الْجزائر وهو كثير الوُرُود في القصص الشّعبيّة.

ـ كانَتْ تُقِيمُ حَضْرَةً في كُلِّ شَهْرٍ، يَوْمَ تَجْتَمِعُ لَدَيْها الْوُفُودُ الْمَتَعَطِّشَةُ إلى أَخْبارِ الْغَيْبِ. وبَعْدَ أَنْ تَنْحَرَ دِيكاً أَسْوَدَ لِسَيِّدِها اللَّعِينِ، تَشْرَبُ مِنْ دَمِهِ مُتَمَتِّعَةً مُسْتَمْرِيَةً، وتَسْكَرُ بِزُجاجَتَيْنِ أَوْ ثَلاثٍ مِنَ التُّونِسِيِّ، ثُمَّ يَلِجُها الْغَشَيانُ وكَأَنَّ بِها الْمَخاضَ أَوْ هِيَ على أُهْبَةِ الْوَضْعِ، وما إِنْ يَنْتَفِخ صَدْرُها كَالدِّيكِ الْغاضِبِ على إناثِهِ حَتَّى تَشْرَعَ في صِراعِ الشَّيْطانِ على الْحَلَبَةِ الّتي اتَّخَذاها وَسَطَ الْبَطْحاءِ الْعَظِيمَةِ حَيْثُ تَحَلَّقَتِ الأَنامُ السَّكْرَى، أَوْ هِيَ كَالسَّكْرَى أَمامَ عَظَمَةِ الظَّلامِ. كُلُّهُ حُفالٌ وَاجِمٌ مُطْرِقٌ قُدَّامَ الْقُوَّةِ الْفانِيَه... تَهْمِهِمُ السَّاحِرَةُ غَضَباً وتُهاوِشُ الْمارِدَ ويُهاوِشُها ويَهُزَّانِ النَّقْعَ فيَنْحَجِبانِ في لَيْلَةٍ غاشِيَةٍ صَمَّاءَ ما يُسْمَعُ فِيها سِوَى عَوِيلِ بَعْضِ الْكِلابِ الْمَسْعُورَةِ أَوْ بَعْضِ الذِئابِ الرَّعُونِ والْحُشُودِ الْمُنْحَشِرَةِ بَيْنَ فَجَوَاتِ الأَسْوَارِ الْمُحِيطَةِ، تَتَفَرَّجُ مَبْهُوتَةً، قَدْ تَسارَعَتْ دَقَّاتُ الْقُلُوبِ فَزَعاً وهَوْلاً، تَقْرِضُ هَزَّاتِ الدُّفُوفِ والْبَنادِرِ الْمَجْنُونَةِ بَيْنَ أَيْدِي الْغِلْمانِ والْعَبِيدِ الطَّرِبَةِ بِمُوسِيقا الأَشْباحِ والْجِنِّ، تُراقِصُ الشَّياطِينَ والأَرْوَاحَ في شَطْحَةٍ هَبْلاءَ غَلِثَةٍ اِسْتَدارَتْ لَها الرُّؤُوسُ واحْمَرَّتْ لَها الأَحْدَاقُ وتَطَايَرَتْ لَها الْعَقائِصُ الْمَنْفُوشَة.

وداخَ الْقَوْمُ مُخْتَنِقِينَ بِرائِحَةِ الْعَفَنِ الْمُتَكاثِفَةِ في الْهَوَاءِ... ثُمَّ إِنَّ الدَّبْكَةَ تُمْسِكُ أَخِيراً وما تَكادُ ويَسْقُطُ أَحَدُ الْكافِرَيْنِ تَحْتَ قَدَمَيْ الآخَرِ. فإِنْ كانَتِ الْمَرْأَةُ هي الْهاوِيَةَ فَسَيَبْطُلُ الْكَشْفُ ويَرْتَدُّ الْوافِدُونَ خائِبِينَ واجِمِينَ. وأَمَّا وإِنْ كانَ إِبْلِيسُ ـ لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ هُوَ الْمُنْطَرِحَ، فإِنَّهُ يَبْسُطُ أَمامَ قاهِرَتِهِ الْهَاذِيَةِ بِنَصْرِها الْقَصِيرِ، جَمِيعَ ما سَرَقَهُ مِنْ أَخْبارِ

السَّماءِ عِنْدَ الْعَرْشِ الأَبَدِيِّ، فَتَنْشُرُ الكاهِنَةُ بِدَوْرِها الأَلْغازَ وتُزْرَعُ الطَّلاسِمَ في الآذانِ الْمُنْتَصِبَةِ، وَلْهَى إلى أَخْبارٍ اِسْتَعْجَلَتْها فَقايَضَتْها بِصَفْقَةٍ خاسِرَة، وتَراجَعَتْ عَنِ الْفَوْزِ الْفِعْلِيِّ عِنْدَ صانِعِ الْقَرارِ، صائغِ الْقَدَرِ الّذي وَراءَهُ تَتَسابَقُ، ومُسَجِّلِ الْمَكْتُوبِ الّذِي مَحْوَهُ تَرْجُو.

وهَكَذا دَوالَيْكِ تَتَطارَدُ الأَيَّامُ تَجُرُّها السِّنُونُ والْخَبِيثَةُ في تَرَفٍ وبَذْخٍ وكُفْرٍ صَريحٍ...

ـ ولَكِنْ، ما هذا السَّلْخُ الّذي على بُقَعٍ مِنْ هَيْكَلِها أَرَى؟

ـ إنَّ الْمَلْعُونَةَ، مُنْذُ عامَيْنِ، يَدْهاها شَيءٌ عَظِيمٌ... أَنْصِتِي أُفْضِ إلَيْكِ... كُلَّ مَغْرِبٍ، يَدْخُلُ أَحَدُ جِيرانِ دُوَيْرَتِنا على الْعَجُوزِ يَنْبَذُ إلَيْها صَحْنَ الْعَشاءِ قَبْلَ أَنْ يَجْبِذَ الْبابَ.

وماذا بَعْدَ الصِّراطِ؟

رَوَتِ الْعَجُوزُ قالَتْ:

ـ جَلَسَتِ الْخالَةُ مُبارَكَةُ بَلْعَيْفَةُ إزائِيَ في هُدُوءٍ. كانَتْ بَلْعَيْفَةُ خادِماً عِنْدَ جَدِّكِ سِنِينَ طَوِيلَةً ثُمَّ كَبُرَتْ وشابَتْ ومَهْماً كَفَّتْ خَدَماتُها وحَبَسَتْ فإنَّها ظَلَّتْ تَزُورُنا مِنْ فِينَةٍ إلى أُخْرَى.

أَقْبَلَتْ ذَلِكَ الْيَوْمَ وقَدْ تَسَرْبَلَتْ وَقاراً أَشَدَّ مِنَ الّذي تَلُفُّ فِيهِ الْفَلاَّحاتُ أَنْفُسَهُنَّ عادَةً.

نَظَرْتُ إلَيْها مَلِيحاً فَإذا إحْساسٌ غَرِيبٌ، غامِضٌ يُشْعِرُنِي بِأَنَّ شَيْئاً ذا بالٍ يُثْقِلُ فُؤادَها وأَنَّها لَنْ تُطِيلَ فَتَبُثَّهُ إلَيَّ.

وانْفَرَجَتْ شَفَتاها أَخِيراً فَهَمَسَتْ:

"ـ حَلَمْتُ يا أُخْتِي الْبارِحَةَ حُلْماً غَرِيباً أَبْغِي أَنْ أَحْكِيَهُ لَكِ. إنَّما جِئْتُ لأَحْكِيَهُ لَكِ.

وكانَتْ جَدَّتُكِ مَعَنا وهِيَ قَدْ تَشْهَدُ، رُغْمَ تَقَدُّمِ السِّنِّ بِها، على كَلامِيَ الآنَ... قالَتْ الْخالَةُ مُبارَكَةُ:

ـ رَأَيْتُنِي أَمْسِ وكَأَنَّنِي عِنْدَ قَنْطَرَةٍ طَوِيلَةٍ كُلَّ الْطُّولِ حَتَّى أَنَّ الْعَيْنَ لا تَخْطِفُ نِهايَتَها. يَبْدُو لِي أَنَّ تِلْكَ الْقَنْطَرَةَ كانَتْ هُنا بِمَضْرِبِ جِسْرِنا في حَمَّامِ قَرْقُورٍ[18] أَوْ رُبَّما أَيْضاً بِمَكانٍ آخَرَ... على كُلِّ حالٍ لا يُهِمُّ هَذا كَثِيراً. بَلِ الأَهَمُّ أَنَّ ذَلِكَ الصَّرْحَ كانَ ضَيِّقاً شَدِيدَ الضِّيقِ. ولِفَرْطِ ضِيقِهِ، كانَ لِزامٌ على الْمَرْءِ أَنْ يَمْرُقَ عَنْهُ وهُوَ على الْجَنْبِ، يَخْطُو بِقَدَمٍ واحِدَةٍ، مُقْبِلاً على هَدَفِهِ بِكَتِفِهِ.

ومَعَ ذَلِكَ فإِنَّ خَلْقاً جَمّاً، غَفِيراً كانَ يَجُوزُ عَنْ تِلْكَ السَّبِيلِ الْعَجِيبَةِ. ومَثَلَتْ قُدَّامِيَ امْرَأَةٌ غَرِيبَةٌ أَمَرَتْنِي بِالنَّفاذِ فَعارَضْتُ مُتَشَجِّعَةً:

ـ أَبَداً لَنْ أَمُرَّ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ الرَّهِيبَةِ وَأَنا أَخْشَى الْوُقُوعَ!

أَلَحَّتْ بِحَزْمٍ:

ـ بَلْ سَتَمُرِّينَ لا مَحالَةَ!

فَحَمَلْتُ طِفْلِي ولَفَفْتُ نَفْسِيَ في جَلُّولٍ[19] كانَ، بَيْنَ أُولئِكَ الْقَوْمِ، كُلَّ سُتْرَتِي ثُمَّ مَضَيْتُ على الْقَنْطَرَةِ، أَسِيرُ كَما يَسِيرُ الْخَلْقُ بِرِجْلٍ واحِدَةٍ.

وبَعْدَ مِشْوارٍ بَدَا لِي مُمْتَدّاً غايَةً، بَلَغْتُ مُخْرَجَ الْقَنْطَرَةِ الْعَجِيبَةِ وخَلَصْتُ إلى عالَمٍ لَمْ أَكُنْ أَشُكُّ في وُجُودِهِ قَبْلُ.

ويا أُخَيَّةُ شَيْءٌ عَجِيبٌ!... أَوَّلُ ما قابَلَنِي عِنْدَ مَنْفَذِ ذَلِكَ الْجِسْرِ، كائِنٌ ما أَدْرِي أَ امْرَأَةٌ هُوَ أَمْ رَجُلٌ. على أَنَّهُ كانَ يَرْفَعُ يَدَهُ عالِياً، عالِياً

---

[18] Hammam Guergour: قَرْيَةٌ في ولاية سطيف.

[19] مِرْطٌ، رِداءٌ خَشِنٌ تَرْتَدِيهِ الْفَلاَّحاتُ.

لِيَتَناوَلَ شَيْئاً ما فَوْقَ رَأْسِهِ ولَكِنَّهُ لا يُمْسِكُهُ فَتَعُودُ يَدُهُ شاغِرَةً فَيَطْرَحُها بعُنْفٍ فَتَغُورُ في فَراغٍ. وكَذَلِكَ دَوالَيْكِ كَفُّهُ كَدُولابِ بَعْضِ الآلاتِ الْحَدِيثَةِ لا تَرِيمُ فَسَأَلْتُهُ دَهِشَةً:

ـ أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِرَبِّي والنَّبِيِّ إلاَّ شَرَحْتَ لَي شَأْنَكَ أَيُّها الْحَيُّ!

تَفَوَّهَ:

ـ أَنا امْرُؤٌ كانَ في دُنْياهُ يَتَصَدَّقُ بيَدِهِ ويَأْخُذُ بِلِسانِهِ. فَصِرْتُ في آخِرَتِي لا تَبْلُغُ راحَتِي شَيْئاً مِمَّ هُوَ فَوْقَ رَأْسِي! إنَّما تَكُونُ الصَّدَقَةُ في الدُّنْيا بِالْحُسْنَى. وأَنا كُنْتُ أَمُنُّ على ابْنِ آدَمَ وأُؤْذِيهِ بِالذِّكْرَى فَانْقَلَبْتُ إلى الدَّارِ الدَّائِمَةِ صِفْرَ اليَدَيْنِ."

صَمَتَتِ الْخالَةُ مُبارَكَةُ بَلْعَيْفَةُ سانِحَةً كَأَنَّها تَلْتَقِطُ أَنْفاسَها ثُمَ أَرْدَفَتْ بِصَوْتٍ أَجَشَّ:

"ـ تَخَلَّيْتُ عَنْ ذَلِكَ الْمَخْلُوقِ الأَرِيبِ وعَدَّيْتُ إلى ما وَراءَهُ فَصادَفَتْنِي امْرَأَةٌ عارِيَةٌ كُلِّيّاً تَجْلِسُ على قَبْرٍ فَاسْتَدْرَجْتُها مَفْجُوعَةً:

ـ أَقْسَمْتُ عَلَيْكِ بِرَبِّي والنَّبِيِّ إلاَّ وَضَّحْتِ لِي شَأْنَكِ يا وَلِيَّةُ تَقْعُدِينَ على هَذا الْقَبْرِ عارِيَةً بِلا حَياءٍ؟

أَجابَتْ بِصَوْتٍ رَتِيبٍ:

ـ اِعْلَمِي أَنِّي كُنْتُ في دُنْيايَ زَوْجَ قائِدٍ. وهَذِهِ رُزْمَةُ ثِيابِي عِنْدَ قَدَمَيْكِ تَرَيْنَها. ولَكِنَّ أَحَداً لا يُمِدُّنِي بِها وأَحَداً لَنْ يُقَرِّبَها مِنِّي مَعَ أَنَّ يَدِي لا تَبْلُغُها أَبَداً!"

تنَهَّدَتِ الْخالَةُ مُبارَكَةُ فَجَرَضَتْ رِيقَها في غُصَّةٍ مَسْمُوعَةٍ مَعَ أَنَّ شَفَتَيْها أَبَداً جافَّتانِ بَيْضاوانِ، على وَجْهٍ أَسْمَرَ أَحْرَقَتْهُ شَمْسُ الْحُقُولِ ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ:

"ـ وبَيْنَما أنا كَذَلِكَ أُحاوِلُ جَمْعَ شَتاتَ عَقْلِي الْمُتَبَدِّدَ بَيْنَ تِلْكَ الْمَناظِرِ الْمُرْعِبَةِ ؛ أَحارُ في مَشاهِدَ أُدْرِكُ يَقِيناً أَنَّ خَيالِي عاجِزٌ عَنْ تَصْوِيرِ مِثْلِها رُغْمَ نَشْأَتِي بَيْنَ النَّجْذامِ وسَلاَّلِ الْقُلُوبِ[20]؛ إذا صَوْتُ حُرْمَةٍ يَدْعُونِي مِنْ خَلْفٍ أَنْ أَقْبِلِي على بَيْتِكِ فَانْظُرِي ما فِيهِ!

فَوَلَجْتُهُ أُقَلِّبُ نَظَرِي في أَرجائِهِ فإذا مُجْمَلُ ما بِهِ كُمْشَةُ قَهْوَةٍ وأَرْبَعُ رُمَّاناتٍ. وَسُرْعانَ ما أَقْبَلَتْ عَلَيَّ تِلْكَ الْمَرْأَةُ فَبادَرَتْ:

ـ أَما عِنْدَكِ شَيْءٌ تَرْتَدِينَهُ؟

قُلْتُ:

ـ كَلاَّ يا لالاَّ الأُخَيَّةُ! ما أَنا سِوَى أَرْمَلَةٍ وذاتِ أَيْتامٍ وما أَذْكُرُ أَنَّنِي مَلَكْتُ يَوْماً جُبَّتَيْنِ على بَعْضٍ!

زَفَرَتِ الْمَخْلُوقَةُ:

ـ إِذَنْ فَامْكُثِي كَذا عُرْيانَةً!..."

قالَتِ الْعَجُوزُ:

---

[20] أَصْلُ النَّجْذامِ لُغَةً: الأَجْذَمُ. ومِنْهُمْ مَنْ يَدْعُوهُ: "سَلاَّلَ الْقُلُوبِ" لأَنَّ التَّصَوُّرَ الشَّعْبِيَّ يَدَّعِي أَنَّ الْمَجْذُومَ لا يَبْرَأُ إلاَّ إذا أَكَلَ سَبْعَةَ قُلُوبٍ صَبِيَّةٍ فكانَ الْفَلاَّحُونَ يُرْعِبُونَ أَطْفالَهُمْ بِهِ حَتَّى لا يَخْرُجُوا وَقْتَ الْقَيْلُولَةِ.

ـ واسْتَمَرَّتِ الْخالَةُ مُبارَكَةُ بَلْعَيْفَةُ تَصِفُ حُلْمَها بِصَوْتِها الرَّتِيبِ. لا يَتَحَرَّكُ هُدْبٌ مِنْ أَهْدابِ عَيْنَيْها الْواسِعَتَيْنِ ولا يَرْتَعِشُ أُخْدُودٌ مِنْ أَخادِيدِ وَجْهِها الْمُغْلَقِ... كَأَنَّ الأَحاسِيسَ جُلَّها مُسِحَتْ عَنْهُ بِكَفٍّ مَخْفِيَّةٍ كَما تُمْسَحُ السَّبُّورَةُ بِالإسْفَنْجَةِ فَتَلَفَّظَتْ:

ـ "وأَفَقْتُ مِنْ حُلْمِي. وأَدْرَكْتُ أَنَّ اللهَ قَدْ فَسَخَ ما بَيْنِي وبَيْنَ عالَمِ الْغَيْبِ مِنْ حِجابِ الآخِرَةِ فَزُرْتُ ما بَعْدَ الصِّراطِ حَتَّى أَتَّعِظَ في دُنْيايَ ما دامَتِ الْمَوْعِظَةُ ما تَزالُ تَبْلُغُني فائدَتُها. ولِكَيْ أَصْنَعَ لِي زاداً أَحْمِلُهُ مَعِيَ عَوِيناً في تِلْكَ السَّفْرَةِ الْوَعْرَةِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوانِ.

وذَكَرْتُ أَنَّ ذَلِكَ الْجَلُّولَ الّذي وَارَيْتُ بِهِ عَوْرَتِي عَلى الْجِسْرِ هُوَ ذَلِكَ عَيْنُهُ الّذي وَهَبْتُهُ، ذاتَ يَوْمٍ، في حَمَّامِ سَيِّدِي الْجُودِيِّ بَلْحاجٍ، عَجُوزاً جاءَتْ تَغْتَسِلُ فِيهِ ثُمَّ نَدَرَتْ مِنْ بَيْنِ مِياهِهِ السَّاخِناتِ فَبَلَغَ مِنْها الْبَرْدُ كُلَّ مَبْلَغٍ فَما كانَ مِنِّي إلاَّ أَنْ خَلَعْتُ مِرْطِي عَنْ رَأْسِي وأَلْقَيْتُهُ على كَتِفَيْ الْمِسْكِينَةِ فَدَفِئَتْ بِهِ.

وأَمَّا تِلْكَ الْقَهْوَةُ فَمِنْ عامِ الْقَحْطِ[21]. وكانَتِ الْحُكُومَةُ تُعْطِينا، مِنْ بَيْنِ ما تُوَزِّعُهُ عَلَيْنا بِالْجِرايَةِ، الْبُنَّ. ولَمَّا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ لَهُ ماهِيَةً ولا اسْتِعْمالاً فإنِّي كُنْتُ أَتَخَلَّى عَنْهُ لِلنَّاسِ.

وأَمَّا الرُّمَّاناتُ الأَرْبَعُ فَإنَّ وادِي السَّبْتِ[22] هَذا كانَ جُلُّهُ ضِياعاً وبِحَراً في أَيْدِي الْيَهُودِ. وإنَّهُمْ كانُوا يَسْتَأْجِرُونَ خِدْماتِي كَما يَفْعَلُونَ مَعَ بَنِي

---

[21] سنة 1940م.

جِنْسِي، فَكُنْتُ أَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ، أَحْرُسُ بَساتِينَهُمْ. وإِنَّ أَحَدَ هَؤُلاءِ الْيَهُودِ أَهْدانِي، ذاتَ يَوْمٍ، أَرْبَعَ رُمَّاناتٍ فَوَهَبْتُها بَعْضَ الْمَساكِينِ لَمَحْتُهُ مارّاً تَحْتَ الزَّرْبِ فَإِذا بِي أَسْتَخْلِفُها في الآخِرَةِ".

ثُمَّ أَقْبَلَتْ الْخالَةُ مُبارَكَةُ بَلْعَيْفَةُ على جَدَّتِكِ وخاطَبَتْها:

ـ "يا اللاَّ[23] زَهْرَةُ. عاهَدْتُ اللهَ عَهْداً صارِماً أَنْ لَوْ مَلَكْتُ جُبَّتَيْنِ لَتَصَدَّقْتُ بِإِحْداهُما واحْتَفَظْتُ بِالأُخْرَى. فَإِذا اتَّصَلْتُ بِقُرْصِ كِسْرَةٍ لأَتَصَدَّقَنَّ بِنِصْفِهِ وآكُلَ النِّصْفَ الْمُتَبَقِّيَ!"

اِسْتَأْنَفَتِ الرَّاوِيَةُ:

ـ وأَمْسَكَتِ الْخالَةُ مُبارَكَةُ عَنِ الْكَلامِ. وَطَوَّلَتْ أَوْ قَصَّرَتْ فَالْتَحَقَتْ بِبارِئِها عَلِيِّ الشَّأْنِ فَرَحِمَها بِإِذْنِهِ وأَسْكَنَها فَسِيحَ الْجِنانِ وعَوَّضَها عَنِ الْحَيْفِ الّذي لَقِيَتْهُ في دُنْياها بِقَدْرِ ما بَلَغَها مِنْ إِيمانٍ صادِقٍ، فِطْرِيٍّ، إِنْشاءَ اللهُ.

وأَمَّا أَنا فَإِنَّ الرُّؤْيا سَرَتْ فِيَّ سِرْيَ الْبَرْدِ. ثُمَّ هَزَّتْنِي قُشَعْرِيرَةٌ ما تَزالُ شُعَيْراتُ بَدَنِي تَنْتَصِبُ لِذِكْراها. وإِنَّ كَثِيراً ما نَفَعَتْنِي تَفاصِيلُها.

أَحْلِفُ لَكِ أَنَّنِي ما عُدْتُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أَهْتَمُّ لِهَيْئَةِ الدُّنْيا وأَشْيائِها الْعابِراتِ. كَما أُوصِيكِ بِكَثْرَةِ التَّصَدُّقِ. فإِذا تَصَدَّقْتِ، راعِي أَنْ يَكُونَ ما

---

[22] دَشْرَةٌ فِلاحِيَّةٌ قُرْبَ حَمَّام الْقَرْقُور.

[23] اخْتِزالُ "اللاَّ". وهِي لَفْظَةٌ مَحَلِّيَّةٌ لِتَعْظِيمِ النِّساءِ.

تَهَبِينَهُ مَخِيطاً نَظِيفاً وأَخْيَرُ لَكِ أَلاَّ يَدْرِيَ أَحَدٌ بِهِ. وهاأنا ذِي بَيْنَ يَدَيْكِ، ما تَعْلَمُ بَناتِي بِما أَتَصَدَّقُ إلاَّ لَماماً.

ثُمَّ يا حَبَّذا لَوْ تَمُدِّينَ ما تَهْوَيْنَ لَبْسَهُ وما تَسْتَطِيبِينَ طَعْمَهُ وما تَبْغِينَ اسْتِبْقاءَهُ. لا تَهَبِي ما تَكْرَهِينَ أَبَداً.

ويا حَبَّذا لَوْ أَنَّكِ تَتَناوَلِينَ ذَلِكَ الْفَسْتانَ وهاذاكَ الْقَمِيصَ فَتُلْبِسِينَهُ بِيَدِكِ الشَّخْصَ الّذي تَتَصَدَّقِينَ بِهِ عَلَيْهِ ولا يُهِمُّكِ أَنْ يُؤُوبَ بَعْدَئِذٍ إلى بَيْتِهِ فَيَخْلَعَهُ عَنْهُ.

الْحاصِلُ ماذا نَقُولُ؟ نَقُولُ: فَلْيَرْزُقْنا اللهُ خَيْراً. ولْيَنْفَعْنا بِه. ولْيُعْطِنا ما أَعْطَيْنا.

(نُورْمانْدِي في: 2000/2/10م)

حَجٌّ بِحَجٍّ[24]

هذانِ صاحِبانِ اهْتَزَّ فُؤاداهُما للحِجِّ وتَحَرَّكَتْ خُيُوطُ رُوحَيْهِما إلى مَوْضِعِ الْحَبِيب. فَأَعَدَّا لِلرِّحْلَةِ الشَّطُونِ عُدَّتَها، يَنْتَقِشُ في كُلِّ حرَكَةٍ مِنْ حَرَكاتِهِما رَسْمٌ مِنَ الشَّوْقِ النَّابِضِ في صَدْرَيْهِما، النَّافِقِ إلى مَنْبَتِ حَنْجَرَتَيْهِما. وإذا كانَ ذا مَوْضِعَ غُصَصٍ لِسَوادِ الْبَرِيَّةِ فإنَّهُ، لِهَذَيْنِ، باتَ مَوْلِدَ بَهْجَةٍ وحُبُورٍ تَنْفَجِرُ حُبَيْباتُهُما كَما كُرَيَّاتِ الْعَنْبَرِ يَطْلَعُ رِيحُها إلى سَقْفِ الْفَمِ فَيَتْرُكُ بِهِ خَلُوفاً عَطِراً.

إي باللهِ هذان عَزَما على غَسْلِ عِظامِهِما في عَيْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ زَمْزَمَ: القَلْبُ هافٍ والضَّمِيرُ تائِمٌ والْكَبِدُ لاسِعٌ، قدْ ضاعَ الْخاطِرُ في تِلْكَ الْبِقاعِ وشَرَدَ الْبالُ شَطْرَ بَكَّةَ الطَّهُورِ، بَيْتِ اللهِ الْحَرام...

لَيْلَةٌ واحِدَةٌ فَرِيدَةٌ مُنْفَرِدَةٌ ويُلَبَّى نِداءُ ذلك الْمَكانِ... لِلَيْلَةٍ خَلَتْ قَبْلَ الرَّحِيلِ، وفي أَوْجِ الانْفِعال، غادَرَ أَحَدُهُما ـ عَسَى أنْ يَكُونَ الَّذِي أَفْرَغَ

[24] سُجِّلت في الجزائر العاصمة في 14 يوليه 1999م.

جَوارِحَهُ مِنَ الدُّنْيَا ومَلأَ خَلَدَهُ بِالْمَوْعِدِ الْهامِّ ـ غادَرَ بَيْتَهُ مُتجَوِّلاً في بَعْضِ شَوَارِعِ الْعاصِمَةِ والْتِواءَاتِها، في الْتِماسِ شَيْءٍ لا يَدْرِيهِ.

وفي قَارِعَةِ بَعْضِ تِلْكَ الطَّرْيقِ، على رَصِيفٍ مِنَ الأَرْصِفَةِ الْمُتَهَتِّكَةِ ـ وكَمْ هِيَ كَثِيرَةٌ في مَدِينَةِ الطُّيُورِ مِفْتاحِ الْجهادِ ـ صادَفَ السَّيِّدُ مَخْلُوقَةً زَرِيَّةً مُتَهَاوِيَةً، تَحِفُّ بِها أَشْباحٌ شَفّافَةٌ، أَخَذَها مَأْخَذَ الذُّرِّيَّةِ لَكِنَّها عَنِ الأَحْياءِ أَبْعَدَ وإلى الأَمْواتِ أَقْرَبَ، قَدْ عَلِقَتْ أَنْفاسُها بِهَياكِلَ تَصْطَكُّ عِظامُها لأَصْغَرِ حَرَكَةٍ فَاقْشَعَرَ بَدَنُهُ لِجَرْسِها وانْتَصَبَ شَعْرُ قَفاهُ لِصُورَتِها ثُمَّ تَقَزَّزَ بَدَنُهُ لَمّا رَأَى الْوَالِدَةَ تَمُدُّ يَدَ السُّؤالِ مُتَوَسِّلَةً في ذِلَّةٍ:

ـ للهِ... في سَبِيلِ اللهِ... لِوَجْهِهِ يا إِخْوَتِي... أنارَ طَرِيقَكُمْ وأَسْعَدَ حَظَّكُمْ وثَبَّتَ مَقامَكُمُ الْعالِي... في سَبِيلِ اللهِ...

أَرادَ الرَّجُلُ أَنْ يَرُدَّ إِصْبِعَيْهِ إلى أُذُنَيْهِ فَيُصِمَّهُما عَنِ النِّداءِ الْفاحِشِ والنَّبْرَةِ الْواخِزَةِ لَحْمَةَ صَدْرِهِ وَخْزَ الإبَرِ الْمَسْمُومَةِ، بَيْدَ أَنَّ قُوَّةً جَبَّارَةً كَتَّفَتْ جُمْلَةَ أَعْضائِهِ وحَجَزَتْ طاقَةَ جَسَدِهِ فَتَخَشَّبَ وسُرْعانَ ما تَهافَتَتْ نُصْبَ عَيْنَيْهِ تِلْكَ الصُّوَرُ الْمَتَناغِمَةُ الّتِي أَبْدَعَتْها في مُخَيِّلَتِهِ رُؤَى مُتَرَنِّمَةٌ عَنِ الْحَجِّ الْمَوْسُومِ، عَنْ فَرْحَةِ الْعَمْرِ وعُرْسِ الإيمانِ.

عَلى أَنَّ مَنْ نَوَى حَجّاً نَوَى جِهاداً، ونَذَرَ لَيَتَمَكَّنَنَّ مِنْ دَواخِلِ نَفْسِهِ ناهِيكُمْ عَنْ نَوازِعِ جَسَدِهِ، وهاهُوَ ذا يَبْلُغُ مِنْ لِسانِهِ عُقْدَةً حَلَّها بَعْدَ اسْتِعْصاءٍ فَبادَرَ الْوَلِيَّةَ إزاءَهُ مُرْتَعِشَ الشَّفَتَيْنِ وَلْهانَ:

ـ ما صُنْعُكِ بِهذا الْمَوْضِعِ يا مَخْلُوقَةُ؟... أَفَلاَ خَجِلْتِ مِنَ التَّسْآلِ وفِيكِ بَعْدُ قُدْرَةٌ على الكَسْبِ الْحَلالِ؟... أَمْ أَنَّكِ لا تَتَّقِينَ رَبّاً في بَراءَةِ أُولئِكَ الصِّبْيَةِ فَنَشَرْتِهِمْ كَالْقِرَدَةِ في الْعَراءِ، أُضْحُوكَةً لِلذّاهِبِ والجائي؟

أَجابَتِ الْمِسْكِينَةُ في حَشْرَجَةٍ، قدْ بَرَقَتْ في لَحْظَيْها الغائِرَيْنِ دَمْعَتانِ:

ـ إنّما هَمُّ أُولئِكَ مُضاعَفُ اثْنَيْنِ: يُتْمٌ وأُمٌّ فَقْرٍ وإعْدامٍ. وما تَسَكَّعْتُ بِهَذِهِ الأَرْصِفَةِ أَوْ نَفَشْتُ بِتِلْكَ الدُّرُوبِ، إلاَّ بَعْدَ أَنْ طارَدْتُ شُغْلاً أَقْتاتُ مِنْهُ في كُلِّ مكانٍ، والْتَمَسْتُ حِرْفَةً أُقَوِّمُ بِها أَوَدَ صِغارٍ في كُلِّ مَيْدانٍ فَلَمْ أَصِبْ. كُلٌّ مِنِّي يَطْفِرُ إلى بَعِيد طِفْرَةَ الضِّفْدَعِ مِنْ صَفْوَانِ نَهْرٍ إلى بَطْحاءِ وَادٍ بِلا الْتِفات. فَاسْتَسْلَمْتُ لِقَدَرِي وتَشَرَّدْتُ في الطُّرُقاتِ بِالْمُؤْمِنِينَ أَتَوَسَّطُ. ولا يَشْطَحَنَّ فِكْرُكَ بِكَ بَعْضَ شَطَحاتٍ، فَلَئِنْ كُنْتُ أَسُومُ سَحابَةَ يَوْمِي كَبَعْضِ الدَّوابِ الضَّائِعَةِ بَيْنَ شِعابِ الْجِبالِ، وفي الْقِيعانِ والْوِدْيانِ، تَهِيمُ على وُجُوهِها مِنْ غَيْرِ صَوْبٍ، فَالْعاطِفُ الْوَدُودُ نادِرٌ، والْحامِي كاشِفُ الْغَمِّ قاصِرٌ وغالِباً ما أَنْقَلِبُ إلى مَطْرَحِي طاوِيَةً، تَتَضَوَّرُ مَصارِينُ أُولئِكَ الصِّبْيَةِ جُوعاً كما أَمْسِ والّذِي قَبْلَهُ... إيْ يا لائِمِي إنّما حالُنا حالُ كَلْبِ الْقَبائِلِ يَرْبِضُ بِالْوَصِيدِ، تَحْتَ بَقْلَةِ الشَّمْسِ تَشْوِي عَمُودَ ظَهْرِهِ، يَسْمَعُهُ آلُ الدَّارِ يَقْرَعُ فَكَّيْهِ في صَخَبٍ فَيَحْسِبُونَهُ عَظْماً يَمُشُّ ولكِنَّهُ ذُبابٌ قَذِرٌ يَلْقِفُ.

نَفَخَ الرَّجُلُ يَتَصَبَّبُ عَرَقاً وقَدْ تَسارَعَ نَبْضُ قَلْبِهِ:

ـ ما الّذي أَسْمَعُهُ؟... إنَّ أَمْرَكِ جَلَلٌ تَتَقَطَّعُ لَهُ أَحْشائي وإنِّي لأَبْغِي نُصْرَكِ لَكِنِّي أَخْشى أَنْ تَكْذِبِيني فَأَنْقَلِبَ خِبّاً بَعْدَ بَياضِ الرَّأْسِ... فإنَّ خَبابَةَ الشَّيْبِ سَفاهَةٌ وإنَّ خَبابَةَ الشَّبابِ تَجْرِبَةٌ.

قالَتْ ابْنَةُ الْفَقْرِ:

ـ إنْ ذَلِكَ إلاَّ صِدْقٌ عافاكَ اللهُ مِنَ الكَذِبِ والكَذّابِ. ولَكِنِّي أَدْعُوكَ أَنْ تَتْبَعَنِي فَتُعايِنَ حالِي وتَنْظُرَ في دَارِي وتَسْأَلَ جِيرانِي وخِلاَّنِي وتَسْتَقْصِيَ عَنْ حِسابٍ مَصْرِفِيٍّ قَدْ أَكُونُ حَجَبْتُ أَثَرَهُ بَيْنَ أَلْحِفَةِ الْفِراشِ أَوْ في لِحاءِ أَشْجارِ الْفِناءِ، فَاسْتَنْتِجْ بَعْدَ ذَلِكَ ماذا تَرَى... إنّ الْوُقُوفَ على بُؤْسِي وَقُوفَ الْيَقِينِ يَسِيرٌ وفي مُتَناوَلِكَ بِأَقْصَرِ نَظَرٍ وأَقَلِّ تَكْلِيف.

وإنّهُ كما كانَ، وإنّ الرَّجُلَ الّذِي أَفْرَغَ جَوارِحَهُ مِنَ الدُّنْيا ومَلأَ خَلَدَهُ بِالْمَوْعِدِ الْهامِّ، تَبِعَ الْحُرْمَةَ مِنْ حَيْثُ جَرَّتْهُ واقْتَفَى أَثَرَها مِنْ حَيْثُ دَلَّتْهُ، وفي أَقَلِّ مِنْ رَمْشِ الْعَيْنِ، تَحَقَّقَ مِنْ تهالُكِها وانْكِسارِ ذِراعَيْها فَما كانَ مِنْهُ سِوَى أَنْ نَبَذَ إِلَيْها كُلَّ الصُّرَّةِ الَّتِي بِها كانَ يَنْوِي الْحَجَّ، وَوَهَبَها أَيْضاً جُمْلَةَ اللَّوَازِمِ الَّتِي كانَ قَدْ عَبَّأَها، فَطارَ عَقْلُ الْمَرْأَةِ تَكادُ لا تُصَدِّقُ اللَّحْظَةَ، يَحْسِبُها الرَّائِي مَهُوُوسَةً تَجْذِبُ في وَادِي الْجِنِّ، تَضْحَكُ وتَبْكِي، تَرْعَشُ رِعْشَةَ وَرَقَةِ الْخَرِيفِ أَمامَ كِيرِ الرِّيحِ، مِنْ فَرَطِ ما يَعْتَلِجُ في صَدْرِها الهَزِيلِ، الْمُقَوَّسِ تَقْوِسَةَ الرُّمْحِ الْيابِسِ، مِنْ مَشاعِرَ مُلْتَهِبَةٍ مُتناقِضَة شَرَدَتْ بِعَقْلِها وَفَهْمِها وَوَعْيِها على السَّواءِ، وقَبْضَتُها تُمْسِكُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مِثْلَ ذَلِكَ الْمَبْلَغِ مِنَ الْمالِ.

عادَ الرَّجُلُ أَدْراجَهُ. وهُوَ قافِلٌ إلى بَيْتِهِ، مَرَّ بِصاحِبِهِ الّذِي مَعَهُ نَوَى أَداءَ الْفَرِيضَةِ، يُطْلِعُهُ بِأَنْ لا حَجَّ لَهُ مَعَهُ ولا زِيارَةَ.

دُهِشَ الصَّاحِبُ وتَحَيَّرَ؛ ثُمَّ أَلَحَّ وعاوَدَ؛ ولَكِنَّ الرَّجُلَ قَطَعَ عَلَيْهِ بِعَزْمٍ بِأَنَّهُ في تِلْكَ النَّوْبَةِ مُتَخَلِّفٌ باقٍ، غَيْرَ مُرافِقِهِ في مَوْكِبِ الْحَجِيجِ.

اللهُ وَحْدَهُ يَدْرِي كَمْ كانتْ فَعْلَتُهُ مَعَ الْوَلِيَّةِ الْمُعْوِزَةِ كَرِيمَةً. فَقَدْ كانَ الْحَجُّ في الْجَزائِرِ، هاذِيكَ الأَيَّامَ، غالِياً باهِضَ التَّكالِيفِ، يَبِيعُ فِيهِ الرَّجُلُ الْجَلاَّبَةَ والْبُرْنُسَ وقَدْ لا يُسَدِّدَ شُرُوطَهُ، وقَدْ يَحْلِقُ الشَّارِبَيْنِ واللِّحْيَةَ أَيْضاً قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ رَسْمُ أُمْنِيَتِهِ في الأُفُقِ، وإذا بِالرَّجُلِ يَتنازَلُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ قَرِيرَ النَّفْسِ، مُتساهِلاً غَيْرَ مُنْقَبِضٍ كَما لَوْ كانَ يَطْرَحُ رَبْطَةَ بَصَلٍ في سَقِيفَةِ الدَّارِ. لَمْ يَكُنْ غَنِيّاً مَتَرَفِّهاً كَما قَدْ يَتَبادَرُ إلى بَعْضِ الأَذْهانِ؛ ولَمْ يَكُنْ ذا إرْثٍ مَبْسُوطٍ يَحْمَدُ عَلَيْهِ أَباً أَوْ جَدّاً لأَجْلِهِ ولأَجْلِ ساقِطِي الْحَياةِ؛ إنّما أُعْطِيَتُهُ تِلْكَ كانَتْ كَسْباً حَلالاً وَفَّرَهُ بِحَسَبِ كُلِّ شَعْرَةٍ ابْيَضَّتْ في مَفْرَقِهِ وواللهِ لَقَدْ كانَ أَبْيَضَ جُلَّهُ إلاَّ ما نَشَزَ نُشُوزَ الْمَرْأَةِ الرَّعْناءِ.

يَمَّمَ الْمُحْرِمُونَ، إذاً، شَطْرَ بَيْتِ إبراهِيمَ الْخَلِيلِ، وسُرْعانَ ما انْقَضَتْ مَناسِكُ الْحَجِّ فَذَهَبَتْ مَعَها مُناغاةُ الصَّبِيِّ إسْماعِيلَ يُضاحِكُ بِها الْمُؤْمِنِينَ ضارِباً بِقَدَمِهِ الْمُسْتَدِيرَةِ الْبَيْضاءِ نَبْعَ زَمْزَمَ الْمُبارَكِ، فَما يَتَمالَكُونَ شَوْقاً عارِماً في أَفْئِدَتِهِمْ وصَوْبَهُ يَهَرْوِلُونَ بَيْنَ الصَّفا والْمَرْوَةِ. ولَكِنَّها رُؤْيا تَتَفَسَّخُ وقَدِ نُفِخَ في الْعِيرِ فانْكَفَأَتِ الْوَفُودُ إلى دِيارِها خَفِيفَةً جَذْلانَةً في

مَوْكِبٍ مُبارَكٍ تَبْرُقُ مِنْهُ آلافُ الثُّرَيا. وما أَوْشَكَ يَحُطُّ السِّرابُ الأَبْيَضُ في حَيِّ صاحِبِنا حتَّى هَرْوَلَ الْحاجُّ إلى صَدِيقِهِ يُؤَنِّبُهُ مُغْتاظاً:

ـ ولمّا كُنْتَ تَنْوِي الْحَجَّ يا أَخِي، لِمَ رَدَدْتَنِي مَحْزوناً بِدَعْوَى أَنَّكَ غَيْرُ قاصِدٍ؟ هلْ كُنْتَ تَتَحاشَى صُحْبَتِي؟

زَوَى السَّيِّدُ ما بَيْنَ حاجِبَيْهِ ونَفَخَ:

ـ ماذا الْهُراءُ يا أَخِي مَهْلاً أَمْ تُراكَ تُخَرِّفُ لَمَّا ظَنَنْتُكَ سَتَعْقِلُ في الْحِجازِ؟ ومَتَى أَكُونَ قَدْ حَجَجْتُ؟ أَوْ كَيْفَ يَتَمَكَّنُ وقَدْ خَلَّفْتَنِي هاهنا مَضْرِبِي حَيْثُ وَجَدْتَنِي الآنَ ثُمَّ انْتَقَلْتَ دُونِي؟

قالَ الْحاجّ:

ـ ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ رَأَيْتُكَ، يا أَخِي، جَانِبِي في الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، عِياناً كَمَا أَراكَ اللَّحْظَةَ. ولا تَقُلْ إِنِّي مَخْبُولٌ مَرْكُوبُ. فَبِاللهِ الّذِي لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ قد شَهِدْتُكَ جَانِبِي تَقُومُ بِكُلِّ ما يَقُومُ بِهِ الْحَجِيجُ، تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وتَسْعَى بَيْنَ الصَّخْرَتَيْنِ وتَنْحَرُ في عَرَفَةَ مَعَ النَّاحِرِينَ... كَلاَّ ما أنا بَمَجْنُون بَلْ إِنَّكَ حَجَجْتَ مَعِي وتَطَهَّرْتَ ولَوْ أَنَّ جَسَدَكَ بَقِي هاهنا في الْوَطَنِ...

باريس في 21 يونيو 2008م

الْـمُسْتَجْدُونَ[25]

ازْدَكْ ازْدَكْ يا مَيْمُونْ جِيبْ الْكَسْرَة فِي الْقَلْمُونْ[26]

مَيْمُونُ قِرْدٌ صَغِيرٌ يُرَبِّيهِ الْفُقَرَاءُ مِنَ الْبَرْبَرِ والْعَرَبِ على السَّوَاءِ. يَرْبِطُونَهُ بِخَيْطٍ فِي عُنُقِهِ ثُمَّ يَسُوقُونَهُ مِنْ دَشْرَةٍ إلى دَشْرَةٍ يَسْتَجْدُونَ بِهِ.

مَيْمُونُ يُؤَدِّي مُخْتَلِفَ الْحَرَكَاتِ الْبَهْلَوَانِيَّةِ يُسَلِّي بِها الْعامَّةَ فَيَغْنَمُ سَيِّدُهُ الْكِسْرَةَ والدَّقِيقَ أَوْ قَمْحاً وشَعِيراً أَوْ رُبَّمَا أَيْضاً فُولاً وتِيناً يُعَبِّئُهُ على مَتْنِ حِمارِهِ.

يَتَشَقْلَبُ مَيْمُونُ ويَرْقُصُ ويُصَفِّقُ ويُزَغْرِدُ أَيْضاً. ولَكِنْ، إيَّاكَ أَنْ تَضْحَكَ عَلَيْهِ أَوْ تَهْزَأَ بِهِ فَمَيْمُونُ غَضُوبٌ حَقُودٌ لا يَتَنازَلُ عَنْ حَقِّهِ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ وسُرْعانَ ما يَقْفِزُ إلى وَجْهِكَ يَخْمِشُهُ إنْ تَمَكَّنَ، وإلاَّ فَهُنالِكَ سَبِيلٌ أُخْرَى أَيْسَرُ وأَنْجَعُ فَانْظُرْ! هاهُوَ مَيْمُونُ يَرْفَعُ كُراعَهُ ويَبُولُ عَلَيْكَ... كُنْتُ قَدْ حَذَّرْتُكَ هاهْ!

---

[25] هَذَا مِمّاَ شَهِدَتْهُ جَدَّتِي زَهْرَةُ كَتَّاب رَحِمَها اللهُ، في طُفُولَتِها. سُجِّلَتْ عام 1999م. (تُوُفِّيَتْ يَوْمَ 27 مايُو 2001م عَنْ 100 عام تقريبا).

[26] الْقُلْمُنُ: غِطاءُ الرَّأْسِ الّذِي في الْبُرْنُس.

تَكُونُ الْقَرْيَةُ مَيْتَةً هامِدَةً لا حَرَكَةَ فِيها. يَتَسَلَّطُ الْقَرَفُ والْمَلَلُ على شَبابِ الدُّوَّارِ وتَجُرُّ الأَيَّامُ أَذْيالَها مُتَثاقِلَةً مُتَشابِهَةً فَيَجْتَمِعُ الأُمَناءُ في باحَةِ الدَّشْرَةِ: هَذا يَجْلِسُ الْقُرْفُصاءَ على سَجَّادَةِ الْحَلْفاءِ يَجْذِبُ حَبَّاتِ الْمِسْبَحَةِ في شِبْهِ غَيْبُوبَةٍ، وذاكَ يَنُشُّ الذُّبابَ بِمِرْوَحَةِ الْجَرِيدِ، فَإِذا كانَ الْمَوْسِمُ شَتْوَةً الْتَفَّ في بُرْنُسِ الصُّوفِ، مُرْخِياً قُلْمُنَهُ على وَجْهِهِ، يَغْفُو بِانْتِظارِ مَوْعِدِ الْعِشاءِ - أَوْ تُراهُ الْعَشاءَ - فِيما يَتَحاوَرُ غَيْرُهُ في مَشاغِلِ الْقَرَوِيِّينَ وأَهْلِ الْعَشائِرِ.

هُناكَ عِنْدَ جِذْعِ الصَّفْصافَةِ، تَكَمَّشَ رَجُلٌ في قَشَّابِيَّتِهِ[27] طَالِقاً ساقَهُ الْيابِسَةَ حَذْوَ عَصاهُ حَتَّى لا تَكادُ تُمَيِّزُ بَيْنَهُما، فَضَرَبَ بِمِلْحَفَتِهِ عَلَى وَجْهِهِ مُخْفِياً نِصْفَهُ كَأَنَّهُ يَحْجُبُ الْبَلاهَةَ الَّتِي بَدَتْ على صُورَتِهِ، وإلى جانِبِهِ، رَبَطَ حِماراً أَخْضَرَ اللَّوْنِ، مَنْبُوشَ الْوَبَرِ، تَنْظُرُ عَيْناهُ الدَّعْجاوانِ الذَّابِلَتانِ إلى الأَشْياءِ في فُتُورٍ كَأَنَّهُ فَيْلَسُوفٌ يَكْبَحُ في قَرارَتِهِ جَيَشانَ نَفْسِهِ ولَكِنَّ السُّطُورَ تَبْدُو على جَبِينِهِ واضِحَةً.

في الْقُبَّةِ الَّتِي أَعْلَى التَّلَّةِ، نامَ وَلِيُّ الدَّشْرَةِ نَوْمَتَهُ الأَبَدِيَّةَ. وغَيْرُ بَعِيدٍ عَنْهُ، قَبَعَ شَيْخُ الْجامِعِ: ناسِكٌ أَجْرَدُ مُرابِطٌ في الْمَسْجِدِ الْمُتَواضِعِ تَواضُعَ السَّلِيبِ، يَقْرَأُ تارَةً في مُصْحَفِ رَبِّهِ وتارَةً يُعَلِّمُ صِبْيَةَ الْقَرْيَةِ، يَتَفانَى في الْحِفاظِ على إِرْثِهِمْ، في مَحْوِ جَهالَتِهِمْ، في شَدِّ عُودِهِمْ ونُصْرَتِهِمْ، ومَعَ ذَلِكَ فَلا أَحَدَ يُبالِي، بَلْ رُبَّمَا جَهِلَ الْجِيرانُ اسْمَهُ، ولَكِنَّهُ لا يُعانِي.

[27] مِعْطَفٌ صُوفِيٌّ تَقْلِيدِيٌّ.

هُنالِكَ في الْجَبَلِ، بَيْنَ أَشْجارِ الْبَلُّوطِ والسَّرْوِ، ناءَ كَلْكَلُ الرَّاعِي بِثِقَلِ الْوُجُودِ، فَأَنْطَقَ نايَهُ بِأَبْرَعِ الأَلْحانِ الشَّجِيَّةِ، فَرَدَّت عَلَيْهِ الْمَقامَ نِعاجُهُ الْهَزِيلاتُ بِثُغاءٍ مُتَقَطِّعٍ وَئِيدٍ.

كُلُّ شَيْءٍ مَيِّتٌ هامِدٌ في دُشُورِ الْقَبائِلِ والْهِضابِ. وإِنَّهُ لَيَبْدُو لِلزَّائِرِ كَأَنَّهُ يَسِيرُ في بَقايَا عادٍ وثَمُودَ فَتَوَجَّسَ مِنَ التَّماثِيلِ الْمُحِيطَةِ خِيفَةً وأَغَضَّ الْبَصَرَ اتِّقاءَ لَعْنَةِ الإِلهِ.

بَيْنَ الْحُقُولِ، جَلَسَ الأَوْلادُ يَنْصِبُونَ الشَّرَكَ لِلْوِعالِ[28] وأَمَّا الْبَناتُ فَاجْتَمَعْنَ على عَتَبَةِ بَعْضِ الأَكْواخِ يَلْعَبْنَ الْكُرُودَ[29] في انْتِظارِ الْعَرِيسِ الْمُناسِبِ لِلأَبِ أَوْ الْعَمِّ. وداخِلَ غُرْبِيٍّ[30] الدِّيسِ، تَدَلَّى الْمَهْدُ الْجِلْدِيُّ إلى وَتِدٍ مَغْرُوسٍ في عَرِيشَةِ الْعُودِ، بَيْنَ خِرَقِهِ نامَ الرَّضِيعُ الْجائِعُ على مَضَضٍ، في انْتِظارِ الثَّدْيِ الْجافِّ تُقَدِّمُهُ لَهُ أُمُّهُ وَراءَ الْمِنْسَجِ، رَيْثَما تَفْرُغُ مِنْ طَهْيِ أَوَانِي الْفَخَّارِ على وُقُودِ الْخَثْيِ.

الْبَهائِمُ كَرِبَةٌ في الأَصاطِبِ شَزِرَةٌ والدَّجاجاتُ قَدْ أَخْفَيْنَ مناقِرَهُنَّ بَيْنَ رِيشاتِهِنَّ في الدَّائنِينِ.

وتَهاوَى الدُّوَّارُ تَحْتَ سَخَمٍ مِنَ الْغَمِّ والْحُزْنِ مِنْ ضَجَرِ الأَيَّامِ وبُخْلِ الزَّمانِ. وَوَجَمَ الْخَلْقُ اللَّهُمَّ بِاسْتِثْناءِ النِّساءِ أَبَداً مُنْهَمِكاتٌ في أَشْغالِهِنَّ

---

[28] الْوَعْلُ، في الْجَزائِرِ، يَعْنِي: الْعُصْفُورَ.

[29] لُعْبَةُ الْكُعُوبِ.

[30] Gourbi: كوخ.

الْجَمَّةِ، غَيْرُ مُبارَكٍ فِيهِنَّ، كَأَنَّهُنَّ، مَعَ الْخَمَّاسِينَ[31]، الْوَحِيداتُ اللَّوَاتِي يَعْمَلْنَ فِي الْجِبالِ مُحافِظاتٍ على بَعْضِ رَمَقٍ فِي تِلْكَ الشِّعابِ.

وبَيْنَما الرَّتابَةُ تُرْخِي سُدُولَها على سُكَّانِ الدَّوَاوِيرِ، تَخْنُقُ الْحَياةَ فِي الْقُرَى خَنْقاً، هاهُوَ مَيْمُونُ يَعِنُّ فَجْأَةً فِي الشَّفَقِ، كَأَنَّهُ سَرابٌ بَيْنَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْمُتَراقِصَةِ مُغْتَبِطَةً بِمَقْدَمِهِ. ويَتَلَوَّنُ الأُفُقُ بِأَلْوَانٍ مُتَبَدِّلَةٍ زاهِيَةٍ كَأَنَّها وَجْنَتَا السَّماءِ تَحْمَرَّانِ مِنْ فَرَطِ السُّرُورِ. ويَتَرَنَّمُ الْحِمارُ على قارِعَةِ الطَّرِيقِ مُتَخَلِّياً عَنْ هِنْدامِ الْحَكِيمِ، تَرَى ذَيْلَهُ يَرْقُصُ يَمْنَةً ويَسْرَةً مِنَ الْبَهْجَةِ، يَجْبِذُ على شَكِيمَتِهِ مُكَشِّراً عَنْ أَضْراسِهِ الْعَظِيمَةِ فِي ابْتِسامَةٍ صادِقَةٍ أَنارَتْ صُورَتَهُ الدَّكْناءَ. وقَفَزَ الشَّيْخُ الْهَرِمُ مِنْ تَحْتِ الْجِدَارِ الْهاوِي حَيْثُ جَمَدَ كَمُومِياءَ وَرَدَها مَلَكُ الْمَوْتِ فَتَحَجَّرَتْ مَضْرِبَها لا تَنْبِسُ. وسُرْعانَ ما دَبَّتِ الْحَياةُ فِي الْحَجَرِ والشَّجَرِ والْحُقُولِ وتَرَى كَأَنَّ النُّوَّارَ تَفَتَّحَتْ أَكْمامُهُ قَبْلَ الْمَوْسِمِ ولَوْ إلى حِينٍ إكْراماً لِمَقْدَمِ مَيْمُونَ... وإنَّ مَيْمُونَ قَدْ جاءَ وتَحَقَّقَتِ الرُّؤْيَا فَانْتَعَشَ القَرَوِيُّونَ والْبَهائِمُ والدُّورُ وتَطايَرَتِ الْعَصافِيرُ بَيْنَ الأَغْصانِ صَدَّاحَةً مُهاجِرَةً أَوْكارَها وجَرَتِ الْخَنافِسُ بَيْنَ نَوَادِرِ الْقُرْطُمانِ عاجِلَةً وخارَ الْبَقَرُ مُهَلِّلاً بِالضَّيْفِ الْعَزِيزِ. وخَلْفَ مَيْمُونَ، اِكْتَضَّتِ الصِّبْيَةُ تَقْرَعُ الأَيْدِي مُتَخَلِّيَةً عَنْ شُرُكِها

---

[31] الْخَمَّاسُ: فَلاَّحٌ يأْخُذُ خُمُسَ الْغَلَّةِ.

وكُرُودِها[32] وأَشْداقِ الْمَطْلُوعِ وراحَتْ تَفْرَحُ وتُصَفِّقُ في أَثَرِ مَيْمُون، تُغَنِّي بِصَوْتٍ عالٍ صاخِبٍ:

اَزْدَكْ اَزْدَكْ يا مَيْمُون   جِيبْ الْكَسْرَة في الْقَلْمُونْ

ومَيْمُونُ يُصَفِّقُ ويَضْحَكُ ويَتَمَرَّغُ ويَشْطَحُ[33] ويَرْفَعُ كُراعاً ويَحُطُّ كُراعاً ويَغْمِزُ ويَقْرُص، فَإِذا أَحَسَّ أَنَّهُ نَجْمُ التَّمْثِيلِيَّةِ، بَرَعَ وأَبْدَعَ. وتَهُبُّ نَسْمَةٌ ذَكِيَّةٌ على صَفَحاتِ الأَوْجُهِ، تُوَشْوِشُ في الآذانِ كَلِماتٍ يَحْمِلُها الأَثِيرُ، تَنْبِسُ بِها عَناصِرُ الطَّبِيعَةِ في كُلِّ مَكانٍ:

ـ هَذا مَيْمُونُ، جاءَ مَيْمُونُ، يا لَها مِنْ ساعَةٍ حُلْوَةٍ!

ازْدَكْ ازْدَكْ يا مَيْمُونُ جِيبْ الْكَسْرَة في الْقَلْمُون

ويَغْدُو الدُّوَّارُ كُلُّهُ في عُرْسٍ عَظِيمٍ، لا يَتَخَلَّفُ عَنْ بَطَلِهِ أَحَدٌ، بَلِ الدِّيارُ والْمَسْجِدُ والسَّاحَةُ جَمِيعُها قَفْراءُ. الْكُلُّ مُهَرْوِلٌ نَحْوَ مَيْمُونَ، نَحْوَ الْقِرْدِ الطَّرِبِ الْمَلِيحِ، الَّذِي يَقْفِزُ في الأَجْوَاءِ، يَصِيحُ ويَنُطُّ فَوْقَ الرُّؤُوسِ والأَكْتافِ، ويَبُولُ على النَّاسِ.

ويَتَزَعْزَعُ نِظامُ الأَشْياءِ في الْقَرْيَةِ، وتَتَذَبْذَبُ الأَحوالُ، وتَدِبُّ الْفَوْضَى في كُلِّ صَقْعٍ وصَوْبٍ، لَيْسَ ثَمَّةَ سِوَى مَوْكِبٍ مِنَ الْبَرانِسِ

[32] لُعْبَةُ الكُعُوب.

[33] يَرْقُصُ.

والْعِماماتِ، تَتَوَسَّطُها وُجُوهٌ تَمَزَّقَتْ أَشْداقُها ضَحِكاً، وأَطْفالٌ بِثِيابٍ مُزَرْكَشَةٍ تَتَناقَرُ أَكُفُّها ابْتِهاجاً بِالصَّدِيقِ الْوَفِيِّ مَيْمُونَ.

هَذَا صاحِبُ مَيْمُونَ يَعْزِفُ لِقِرْدِهِ الْمَلِيحِ أَحْلَى الأَلْحانِ، على جُوَّاقٍ[34] يَتَلَوَّى بَيْنَ أَصابِعِهِ الْبارِعَةِ كَما حَيَّةِ الْهِنْدِ في حِكاياتِ أَلْفِ لَيْلَةٍ ولَيْلَةٍ، وذاكَ مَيْمُونُ يَرْقُصُ عارٍ! ولَكِنَّ هَذا لا يُهِمُّ أَبداً فَإِنَّ مَيْمُونَ لا يَكْتَرِثُ لِلقِيلِ والْقالِ بَلْ إِنَّهُ سَيِّدُ الْمَوْقِفِ في كُلِّ حالٍ. ويَكْفِي أَنْ تَرْتَدِيَ أُنْثاهُ مَيْمُونَةُ سُتْرَةً تَقِيها الْبَرْدَ عِنْدَما يَجِيئُها الْمَخاضُ.

وتَبْدُو الدَّشْرَةُ جَمِيعُها في مِهْرَجانٍ فَنِّيٍّ عَظِيمٍ، إلاَّ أَنَّ الْمَهْرَجانَ لا تُنَظِّمُهُ وُجُوهُ السِّينِما ونُجُومُ الْمَسارِحِ، إِنَّمَا أَبْطالُهُ مُسْتَجْدُونَ أَلْفَوْا هَذِهِ حِيلَةً يَسْتَنْصِرُونَ بِها النَّاسَ على عَضِّ الزَّمانِ فَيَهَبُونَهُمْ نَعْمَةً وبُرّاً أَوْ بُنّاً يَمْلأُونَ بِهِ مَزَاوِدَهُمْ عَوْلَ الْعامِ. ورُبَّمَا تَوَجَّهُوا بِها إلى سُوقِ "الْجُمُعَةِ"[35] أَوْ "عَرَّاسَةَ" باعُوها فَاشْتَرَوْا بَدَلَها ما يَحْتاجُونَ مِنْ أَشْياءَ ضَرُورِيَّةٍ أَوْ قايَضُوها بِما يَشُدُّ أَوْدَهُمْ ويُقَوِّمُ اعْوَجاجَ حالِهِمْ... لَماماً... لَماماً...

يَوْمٌ فَرِيدٌ لِلْفَرَحِ والاِسْتِهْتارِ. سُوَيْعاتٌ تَنْسَلِخُ على عَجَلٍ، يَنْتَفِضُ أَثْناءَها الْفَلاَّحُونَ الْبُسَطاءُ مُغْتَنِمِينَ وَثْبَةً يَتِيمَةً قَبْلَ أَنْ تَرْتَخِيَ أَطْرافُهُمْ في سُباتٍ طَوِيلٍ. ورُوَيْداً رُوَيْداً، تَنْحَدِرُ الشَّمْسُ إلى بُطُونِ الأَطْوَادِ ويَنْسَدِلُ السِّتارُ على خَشَبَةِ الْمَسْرَحِ ويُفَضُّ الْجَمْعُ، بَعْدَ اخْتِتامِ

---

[34] ناي.

[35] الجُمُعَةُ: أَهَمُّ قَرْيَةٍ في بَنِي وَرْثِيلانَ وكَذَلِكَ عَرَّاسة.

الْمَشْهَدِ، فَيُوَدِّعُ الْمُهَرِّجُونَ وتَنْحَسِرُ الابْتِسامَةُ على الشِّفاهِ ويُغْدُو كُلٌّ إلى بَيْتِهِ مُمْتَلِئاً خَفِيفاً ولَوْ لِلَيْلَةٍ...

تَرَى الأَطْفالَ، والْكِبارَ أَيْضاً، يَنْسِلُونَ إلى فَرْشاتِهِمْ والْوُجُوهُ مُسْتَنِيرَةٌ، حالِمِينَ بِزِيارَةِ مَيْمُونَ الْقادِمَةِ. مَيْمُونُ الّذِي راحَ يَدُورُ دَوْراتِهِ بَيْنَ الْعُرُوشِ، ولَعَلَّهُ لَنْ يَعُودَ سَرِيعاً، ولَكِنْ...

ولَكِنَّ الْمُسْتَجْدِينَ كَثِيرُونَ في الْمَناطِقِ النَّائِيَةِ مِنَ الْبِلادِ. هُناكَ عِنْدَ الْعُرْبانِ والْغَناوَةِ والْقَبائِلِ، هُناكَ حَيْثُ ضَرَبَ الْفَقْرُ بِجِرانِهِ بَيْنَ أَوْلادِ آدَمَ، هُناكَ حَيْثُ احْتالَ أَوْلادُ آدَمَ على الْفَقْرِ بِحِذْقٍ وشَطارَةٍ، بِكِياسَةٍ بالِغَةٍ غايَتَما صَيَّرُوا الشِّحاذَةَ مَعَ الزَّمَنِ عِيداً شَعْبِيّاً يَتَرَقَّبُهُ أَهْلُ الْقُرَى مُفْعَمِينَ بِآمالٍ سَماوِيَّةٍ. وَشَيْئاً فَشَيْئاً تَفْعَلُ الأَيَّامُ فِعْلَها، وتَنْصَهِرُ سَبِيكَةٌ مِنَ الرُّحَماءِ، ثُلَّةٌ مِنَ الشُّفَقاءِ: إخْوانُ الضِّيقِ وخِلاَّنُ الأَلَمِ، فإذا أَقَلُّهُمْ فَقْراً يُسانِدُ أَكْثَرَهُمْ عَوَزاً في زَخْمِ الزَّغارِدِ والضَّحْكاتِ والأَهازِيجِ. وإنَّ لِلْحَياةِ مُكْرِهاتٍ تُجْبِرُ على مَواقِفَ تُفاجِئُ ذَوِيها في أَحايِينَ كَثِيرَةٍ.

....

مَهْماً يَكُنْ، فَإنَّ الْحَياةَ تَعُودُ إلى اسْتِرْسالِها في هُدُوءٍ ثَقِيلٍ مُتَواصِلٍ رَهِيبٍ. وإنَّ الْمَرْءَ لَيَرْفَعُ عَيْنَيْهِ إلى الأُفُقِ فَلا يُبْصِرُ غَيْرَ ضَبابٍ أَعْمًى كَأَنْ خَطُّ الأُفُقِ دَنَا غايَتَما الْتَصَقَ بِخَيْشُومِ ناظِرِهِ أَوْ كَأَنْ رَسْمُهُ دَرَسَ. لِماذا ؟ لأَنَّ الْحَياةَ تافِهَةٌ حَقِيرَةٌ في وِدْيانِ الْهِضابِ وقِيعانِها. وَمُضْطَرّاً، تَرْجِعُ تُجِيلُ

نَظَرَكَ فِي مُحِيطِكَ فَتَرَى امْرَأَةً تَجْلِسُ إلى رَحَى الْحَجَرِ الْمُسْتَدِيرَةِ، تُمْسِكُها بِيَدِها الْخَشِنَةِ، تَطْحَنُ شَعِيراً تَصْنَعُ بِهِ مَزَّامْنَا[36]، عَسَى أَنْ تَخْدَعَ، بِشَيْءٍ مِنْ زَيْتِ الزَّيْتُونِ أَوْ بَعْضِ اللَّبَنِ والتِّينِ الْمُجَفَّفِ، الْجُوعَ في دَزِّينَةِ الأَفْوَاهِ الصَّغِيرَةِ الّتِي سَتَنْفَتِحُ مُشَرَّعَةً حَوْلَ الْمِثْرَدِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ. بإزائِها عَجُوزٌ مُوَشَّمَةٌ تُرْقِصُ على رُكْبَتِها صِنَّارَةً تَدُورُ على نَفْسِها بَعَجَلَةٍ كَالْجِنِّيَّةِ، تَغْزِلُ الصُّوفَ خُيُوطاً ناعِمَةً رَقِيقَةً هَيْفاءَ، مَثَلُها مَثَلُ زَغَبِ الْجَوْزَلِ تَنْفُخُ عَلَيْهِ فَيَطِيرُ في الْهَوَاءِ، وكَذَلِكَ الطُّمَأْنِينَةُ في جِبالِ الْجَزائِرِ: رَهِيفَةٌ، هَيِّنَةٌ، ظِلٌّ شَفَّافٌ تَلْمَحُهُ في كُلِّ شَيْءٍ ولَكِنَّ يَدَكَ لا تَلْمَسُهُ!

الصَّبَايَا الْغِيدُ تَتَّسِعُ أُحْدَاقُهُنَّ بِلَوْنٍ أَزْرَقَ وأَخْضَرَ على بَشْرَةٍ سَمْراءَ، يُلْصِقْنَ بِأَيْدِيهِنَّ الْمُحَنَّأَةِ الزَّبْلَ على الْجُدْرانِ كَيْ يَجِفَّ إلى الشَّمْسِ فَيَصِيرَ ـ مَمْزُوجاً بِعَلَفِ الزَّيْتُونِ ـ وَقُوداً خَيْراً مِنَ الْغازِ، يَقُولُ الْفَلاَّحُونَ! تِلْكَ وَلِيَّةٌ أُخْرَى تَمْلأُ مِنَ الْعُنْصُرِ ،أَسْفَلَ الْقَرْيَةِ، قِرْبَتَها الْمَدْبُوغَةَ بِجُذُورِ الْبَلُّوطِ والْقَطِرانِ.

هُناكَ، في الْخارِجِ، نَفَرٌ مِنَ الرِّجالِ يَنْسُجُونَ حَصائِرَ الْحَلْفاءِ لِلْمَسْجِدِ والْفَلاَّحُونَ، بَيْنَ تُرَعِهِمْ، يُرْضِخُونَ أَرْضاً بَوَاراً يُوَلِّدُونَها رُغْماً عَنْها بُقُولاً قَلِيلَةً. أَمَّا الأَطْفالُ فَيَلْهُونَ بِالضَّفادِعِ في النَّهْرِ، يَجْعَلُونَ في أَفْوَاهِها سِيجاراتٍ فَإذا انتَفَخَتْ وانْفَجَرَتْ، غَرَقُوا في ضَحِكٍ مُقَهْقِهٍ، حالُهُمْ حالُ الّذِي يُجْبِرُ نَفْسَهُ عَلَى شَيْءٍ وهُوَ لا يَبْغِيهِ، كَأَنَّهُمْ يَنْتَقِمُونَ لِحَظِّهِمِ

[36] كِسْرَةُ الشَّعِيرِ.

الْمَخْرُومِ مِنْ تِلْكَ الْمَخْلُوقاتِ الْمِسْكِينَةِ الضَّعِيفَةِ والْمَغْلُوبُ مُولَعٌ بِتَقْلِيدِ الْغالِبِ... أَمَا كانَتْ تِلْكَ سِياسَةَ الْبِلادِ في الْعِشْرِينِيّاتِ[37]؟

تَنْظُرُ رَبَّةُ الْبَيْتِ في كُوفِيِّها[38] فَلا تَلْمَسُ راحَتُها سِوَى حَفْنَةٍ مِنَ السَّمِيذِ. بَيْنَما يَنْبُذُ إِلَيْها المِزْوَدُ كَفّاً يَتِيمَةً مِنَ الزَّيْتُونِ النَّاشِفِ مُتَراخِياً، هُناكَ على مِرْفَعٍ مُنْفَرِدٍ في رُكْنٍ مِنَ الْكُوخِ، تَسْتَحِي جَرَّتُها مِنْ أَنْ تَكْتَشِفَ سَيِّدَتُها لَطْخَةَ السَّمْنِ الْمَغْبُونَةَ الّتِي الْتَصَقَتْ بِجَوْفِها. بَيْدَ أَنَّ الْقَرَوِيَّةَ تَهُزُّ كَتِفَيْها في اسْتِسْلامٍ، وحامِدَةً اللهَ على كُلِّ حالٍ، تَتَناوَلُ مِشاوِطَها[39] تَكْنُسُ بهِ رَوْثَ الدَّجاجِ في الْحالَةِ والدَّائِنِينِ[40].

في أَقْصَى الطَّرِيقِ، طَرِيقِ الْبايْلِكِ[41] الْوَحِيدَةِ، تَحَلَّقَ الْمُسِنُّونَ يُدَرْدِشُونَ في دُكَّانِ "الصَّبْرِ": حُوَيْنِتٍ أَقْفَرَ دامِسٍ، تَفْصِلُهُ مِنَ الْيَمِينِ إِلى الْيَسارِ طاوِلَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ مُغْبَرَّةٌ، يَقِفُ خَلْفَها بائِعٌ هَزِيلٌ، تَخْتَفِي أَسْنانُهُ الصَّفْراءُ، مِنْ أَثَرِ التَّبْغِ، وَراءَ شارِبَيْنِ كَثِيفَيْنِ بَيْنَما أَكَلَتْ لِحْيَةُ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ذَقْنَهُ النَّاتِئَ. غارَتْ عَيْناهُ الْحائلَتانِ في تَجْوِيفَيْهِمَا فَبَدَتْ نَظْرَتُهُما

---

[37] تَرُدُّ هَذِهِ الْمَشاهَدَ إِلى الْعِشْرِينِيّاتِ بِما أَنَّ جَدَّتَنا شاهَدَتْها في طُفُولَتِها وأَنَّها تَكُونُ قَدْ وُلِدَتْ بَيْنَ 1905-1908م.

[38] الكُوفِيُّ: جَرَّةٌ عَظِيمَةٌ تُبْنَى بَيْنَ الأَرْضِ وسَقْفِ الْبَيْتِ، يُخْزَنُ بِها عَوْلُ السَّنَةِ مِنْ حُبُوبٍ وطَحِينٍ وزَيْتٍ...

[39] رُزْمَةٌ مِنَ الأَعْوادِ تَحْزَمُ فِيما بَيْنَها وتُسْتَعْمَلُ مِكْنَسَةً.

[40] قِسْمَا الطَّابَقِ السُّفْلِيِّ مِنَ الْبَيْتِ التَّقْلِيدِيِّ.

[41] الطَّرِيقُ الْمُعَبَّدَةُ. والْبايْلِكُ: لَفْظَةٌ عُثْمانِيَّةٌ تَعْنِي: الْحُكُومَةَ.

مُسْتَوْحِشَةً نافِرَةً وتَعَظَّمَ كَتِفاهُ الْعَرِيضانِ تَحْتَ السُّتْرَةِ الإفْرَنْجِيَّةِ الْوَاسِعَةِ غايَةٍ، الْهَرِتَةِ عِنْدَ الْمِرْفَقَيْنِ وحَوْلَ الْياقَةِ والرُّسْغَيْنِ.

ورُغْمَ هَيْئَتِهِ تِلْكَ، فَإِنَّهُ يَتَّقِي الزَّبائِنَ بِطاوِلَتِهِ الْمُسْتَطِيلَةِ كَالدِّرْعِ، يَحْجُزُ عَنْهُ بَعْضَ تَعَدٍّ مَعَ أَنَّ الرُّفُوفَ خَلْفَهُ، اللَّصِيقَةَ بِالْجُدْرانِ كَأَنَّها هَياكِلُ عَظْمِيَّةٌ، لا تَعْرِضُ شَيْئاً، لا تَفْتِنُ الْعَيْنَ بِشَيْءٍ، فَبَدَا الْمَشْهَدُ مَهْزَلَةً مُضْحِكَةً بِجِوارِ تَلَفٍ وانْهِيارٍ... ما الْعِلَّةُ؟ أَلأَنَّ الدُّكَّانَ لا يُغْرِي الْفَلاَّحِينَ بِخَيْرٍ أَمْ لأَنَّ الْفَلاَّحِينَ نَفَرُوا مِنْهُ إلى حَبَّاتِ الْفُولِ تُنْبِتُها بِحَرُهُمُ الْمُتَواضِعَةُ قانِعِينَ؟

....

ها قَدْ نَسِيتُ الْقَمَرَ! الْقَمَرُ في السَّماءِ مُواصِلٌ لُعْبَةَ الْغُمَيْضاءِ مَعَ الشَّمْسِ لا يَفْتُرانِ، يَقْتُلانِ الأَيَّامَ لا يَكُفَّانِ. وتَتَطارَدُ الشُّهُورُ فَإِذا بِالْكَوْنِ يَحْتَضِنُ شَعْبانَ ويَهُبُّ مِنَ الْبِقاعِ أَرِيجٌ فِرْدَوْسِيٌّ يُدَغْدِغُ الْجَوارِحَ فَتَهْفُو إِلَيْهِ الأَفْئِدَةُ رائِمَةً، ساهِيَةً كَمَنْ نَوَّمَها تَنْوِيماً مِغْناطِيسِيّاً. تَراها تَلْهَجُ بِاسْمِ النَّبِيِّ وقَدْ دَمَعَتِ الأَعْيُنُ واخْتَنَقَتِ الْحَناجِرُ. ويَنْبَرِي الْمُشَوِّقُونَ[42] ذاهِلِينَ على الطُّرُقاتِ، مَسْحُورِينَ، مَجاذِيبَ، قَدْ زاغَتْ أَحْداقُهُمْ شَطْرَ بَيْتِ اللهِ الْحَرامِ، تُتَمْتِمُ أَلْسِنَتُهُمْ فَتَتَجاوَبُها أَسْماعُهُمْ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ! وفي خِضَمِّ تِلْكَ النَّشْوَةِ والزَّهْوِ، يُفِيقُونَ فَجْأَةً مِنْ ذُهُولِهِمْ فَيَتَرَدَّدُ السُّؤالُ، تَتَقاذَفُهُ الأَفْواهُ الْمُتَغَضِّنَةُ، في وُجُوهٍ عابِسَةٍ:

---

[42] التَّشْوِيقُ ضَرْبٌ مِنَ الْمَدِيحِ الْقَبائِلِيِّ.

ـ وأَنَّى اللِّقاءُ بِالْحَبِيبِ، في بَيْتِ الْجَدِّ الْخَلِيلِ، والْجَيْبُ لا يَذْكُرُ لَمْسَةَ الدُّورُو[43] مُنْذُ أَمَدٍ لَمْ نَعُدُدْ أَيَّامَهُ؟

وتَنْهَمِرُ الْعَبَراتُ الْمُتَحَسِّرَةُ وتَنْكَسِرُ الْخَواطِرُ مِنْ قُلُوبٍ تَدْمَى. وسُرْعانَ ما اكْفَهَرَّتِ الدُّنْيَا وانْطَمَسَتْ نُجُومُها وكُبِسَتْ بَسَماتُها وبُكِمَتْ نَغَماتُها كَأَنَّ الْوَقْتَ عُلِّقَ بِمُقْتَضَى قانُونٍ غَرِيبٍ. وتَرَى الْقَوْمَ صَرْعَى يَكادُونَ يُصْعَقُونَ، لَوْلا بَصِيصٌ مِنْ أَمَلٍ يَبْزُغُ في خَلَدِ بَعْضِ الْعُشَّاقِ: نابِغَةٍ أَلِفَ الْوَحْلَ يُثْقِلُ خُطُوَاتِهِ كُلَّما أَزْمَعَ الْخَطْوَ ومَعَ ذَلِكَ أَبَداً سائِرٌ قُدَّامَهُ على الدُّرُوبِ الْوَعْرَةِ!

أَمَا قالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ السَّلامُ: "لا تَصْلُحُ الْمَسْأَلَةُ إلاَّ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ". وهاهُوَ ذَا الْفَقْرُ الْمُدْقِعُ، وهاهِي ذِي الْمَسْأَلَةُ حَلٌّ خَيْرٌ مِنْ لا شَيْءَ، ولَكِنْ فَلْتَكُنْ مَسْأَلَةً جَمِيلَةً يَشِعُّ مِنْها الْفَنُّ ويُصْبِغُ عَلَيْها مِنْ حُسْنِهِ الْمُمْتِعِ الْفَرِيدِ، جُماناً خَلاَّباً.

ويَنْطَلِقُ الْحَجِيجُ زَرافاتٍ هائِمَةً هاتِفَةً بَيْنَ الشِّعابِ، مِنْ دَشْرَةٍ إلى دَشْرَةٍ ومِنْ دُوَّارٍ إلى آخَرَ. يَتَطَلَّعُ فِيهِمُ الرَّائِي فَيُشَبِّهُهُمْ بِجَمْعٍ مِنَ الدَّرَاوِيشِ فَرُّوا مِنْ كَهْفٍ لَهُمْ في بَعْضِ الْجِبالِ: عَظْمٌ رَقِيقٌ وشَعْرٌ أَشْعَثُ وحَدَقَةٌ مُتَّسِعَةٌ وثَوْبٌ بالٍ أَوْ هُمْ لِناظِرِهِمْ كَسَرابِ الْيَمامِ يُطْرِبُ هَدِيلُهُ الْمَلائِكَةَ خَفِيرَةَ الْخُطَى.

---

[43] أَبْسَطُ عُمْلَةٍ نَقْدِيَّةٍ في الْجَزائِرِ. أَصْلُها قِطْعَةٌ فِضِّيَّةٌ إسْبانِيَّةٌ كانَتْ تُساوِي، في وَقْتِها، رُبْعَ الذَّهَبِيَّةِ ووَزْنُها 6,451غ.

وتَغْدُو جُمُوعُهُمْ تَرْقَى على السَّبِيلِ، تَسْتَجْدِي الْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ جَوْباتِ الدِّيارِ تارَةً، وتاراتٍ تَدُقُّ الأَبْوابَ، تَسْتَوْهِبُ بِحَياءٍ ما تَرْضاهُ الأُنْفُسُ أَوْ ما كَتَبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ. وما أَكْثَرَ ما تَسْمَعُهُمْ الْمارَّةُ يُهَلِّلُونَ ويُرَدِّدُونَ بِأَصْوَاتٍ مُرْتَعِشَةٍ يَهُزُّها الْخُشُوعُ لِكَأَنَّها مَمْسُوحَةٌ تُوَدِّعُ الدُّنْيا فَرْدَ مَرَّةٍ فَتَتَسَرَّبُ الْكَلِماتُ تَتْرَى مِنْ حَناجِرِ الْعَجائزِ والشُّيُوخِ مُسْتَعْطِفَةً:

آ الْحُجَّاجْ آنْرُوحْ (يَا الْحُجَّاجَ نَرُوحُ)

آنَطْلَبْ الْفُتُوحْ (نَطْلُبُ الْفُتُوحْ)

الْمَوْقُوفْ فِي عَرَفَة (الْوُقُوفُ فِي عَرَفَة)

وتَجُولُ نَظَراتُ الْحَجِيجِ فِي الْقَرَوِيِّينَ الَّذِينَ تَحَلَّقُوا بِهِمْ مُسْتَغْرِبِينَ. أَهَؤُلاءِ هُمْ أَوْلِياؤُهُمْ قَدْ نَفَشُوا فِي كَرْنَفالٍ هَزْلِيٍّ بَلِيدٍ يَتَسَكَّعُونَ؟ أَمْ هُوَ وَفاءٌ يَلْمَسُونَهُ فِيهِمْ، كانُوا قَدْ تَوَهَّمُوا بَقِيَّةً مِنْهُ لَمْ تَثْبُتْ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ الْخَوَّانِ، فَعَجِبُوا؟

وبَيْنَا النَّاسُ يَتَجاذَبُهُمْ السُّؤالانِ، تَنْدُرُ مِنَ الصَّفِّ عَجُوزٌ عُمْرُها فِي كُمْشَةِ يَدِها، ما تَبَقَّى مِنْها شَيْءٌ، اللَّهُمَّ بِاسْتِثْناءِ نابٍ أَعْوَجَ يَرْفَعُ شَفَتَها كَيْ لا تَرْتَخِيَ فِي شَكْلٍ مُؤْسِفٍ بَيْدَ أَنَّ خَدَّيْها قَدْ خُسِفا فِي حَنَكَيْها. قَدْ رَبَطَتْ وَسَطَها بِحَمِيلَةٍ[44] مُزَرْكَشَةٍ جَمِيلَةٍ، لَفَّتْها سَبْعَ لَفَّاتٍ حَتَّى لا تَطِيحَ بَطْنُها ـ على عادَةِ النِّساءِ فِي بِلادِنا عِنْدَما يَسْعَيْنَ إلى أَعْمالِ الْحُقُولِ الشَّاقَّةِ ـ وفَوْقَ رَأْسِها عِمامَةُ الْعَجائزِ الْجَمِيلَةُ، قَدْ عَصَبَتْها بِأَناقَةٍ رُغْمَ

[44] حِزامٌ تَقْلِيدِيٌّ يُصْنَعُ مِنْ صُوفٍ، تَتَّخِذُهُ الْبَرْبَرِيّاتُ بِخاصَّةٍ.

السِّنِينِ. تُمْسِكُ طاسَةً في يَدِها وتَدْنُو مِنَ الأَنامِ غايَتَما لا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ سِوَى شِبْرٍ أَوْ أَدْنَى، عِنْدَئذٍ، تُثَبِّتُ الْبُؤْبُؤَ في بُؤْبُؤِ مُقابِلَها وتَفُوهُ بِرِقَّةٍ تَحُزُّ في الصَّخْرِ:

انْتَدُّو غَثْمُورْث نَرْمالِي	(نَمْشِي إلى بِلادِ الرِّمالِ)
آنْرُوحْ آنْذَا انْسنُوزُونْ وَامانْ	(نَرُوحُ إلى حَيْثُ تُباعُ الْمِياهُ)
تَسْطَلْتس أُو زِيَّانِي	(السَّطْلُ بِالزِّيانِي)[45]

وكَصَدًى لِصَوْتِ الْعَجُوزِ، يُتَخَيَّلُ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ طائراً عَجِيباً فَوْقَ فَنَنٍ يَشْجُو:

ـ ضاقَ الرُّوحُ، ضاقَ الرُّوحُ، ساعَةٌ يُفَرِّجُ رَبِّي! [46]

إِيْ بَلَى! أَنْتَ لا تَسْمَعُ صَوْتَ الْعَجُوزِ كَما أَسْمَعُهُ أَنا يَتَرَنَّمُ في أُذُنِي، في ذاتِي... وأَنْتَ لا تُبْصِرُها كَما أَراها أَنا جِسْماً نَوْرانِيّاً كُلُّهُ، تَتَحَرَّكُ أَعْضاؤُهُ في تَناسُقٍ وخِفَّةٍ. إِنَّها لَرُؤْيَا تَفْتِنُ كَالْكَشْفِ يُخْتَبَلُ لَهُ الصُّوفِيُّ بَلْ إِنَّ الْعَجُوزَ والصُّوفِيَّ سِيانِ، صِنْوانِ في حُبِّهِ "هُوَ"، في ابْتِغاءِ الْفَناءِ؟

أَلَيْسَ بِالآخِرِ "هُوَ" هُوَ سُبْحانَهُ الّذِي يَدْفَعُ بَعَجُوزٍ، قَهَرَها الدَّهْرُ وتَآكَلَتْها السِّنُونُ، إلى رِحْلَةٍ قَدْ تَتْرُكُ فِيها عُمْرَها؟

---

[45] عَمْلَةٌ نَقْدِيَّةٌ كانَتْ مَوْجُودَةً في ذَلِكَ الزَّمان. والْمَعْنَى أَنَّهُمْ كانُوا يَشْتَرُونَ الْماءَ في الصَّحْراءِ بِالنُّقُودِ.

[46] رَوَتْ عَلَيْنا جَدَّتُنا، رَحِمَها اللهُ، أَنَّ طَيْراً كانَ يَحُطُّ على شَجَرَةٍ بِفِناءِ بَيْتِها، وهِيَ طِفْلَةٌ، يُرَدِّدُ في شَجْوِهِ هَذِهِ الْعِبارَةَ.

إيْ بَلَى إنَّهُ "هُو" ! كانَتْ كَتِيبَةُ الْحَجِيجِ تُقْلِعُ، يَوْمَئِذٍ، كَالْفَلُوكَةِ الصَّغِيرَةِ تَتَقاذَفُها الأَمَوَاجُ فَوْقَ يَمٍّ هائِجٍ. تَغْدُو إلى الْمَجْهُولِ، إلى شَوَاطِئَ بَعِيدَةٍ لا تُدْرِكُها بِالْمُشاهَدَةِ ولَكِنْ تَعْرِفُها بِالسَّمْعِ كَما تَسْمَعُ عَنِ الأَعاجِيبِ في رِواياتِ الأَساطِيرِ. إلى سَوَاحِلَ يَتَساءَلُونَ عَنْ ضِفافِها كَيْفَ تَكُونُ؟

وبَيْنَما هُمْ في تَفْكِيرِهِمْ واهِمُونَ، تَنْغَرِسُ أَقْدَامُهُمْ في الأَرْضِ الْمُتَحَرِّكَةِ كَأَنْ ذَرَّاتُ الرَّمْلِ تَلْهُو مَتَغامِزَةً، ماكِرَةً بِهَؤُلاءِ الْمُغامِرِينَ الّذِينَ وَفَدُوا مِنْ أَجْبَنِ الأَراضِي وأَلأَمِ الْبِلادِ، مِنْ بُقْعَةٍ جُلْمُودٍ لا تَتَحَرَّكُ ! إنَّما في الصَّحْراءِ لا قَرَارَ لِلأَشْياءِ، كُلُّ الْعَناصِرِ في تَخَلْخُلٍ: الْكُثْبانُ والضَّوْءُ والظِّلُّ والْخَيالُ والْقَوَافِلُ والرُّحَّلُ... وحَبَّاتُ الرَّمْلِ أَبَداً في تَزَحْلُقٍ وتَلَوٍّ تَحْتَ أَقْدَامِ الْغُرَباءِ، تَزِيدُهُمْ جَهْداً وعَنَتاً مِثْلَ شَقِّ الرُّوحِ غايَتَما يَلِجُوا مَمْلَكَةَ النَّارِ والنُّورِ... مَمْلَكَةَ الْخَيالِ في يَقَظَةٍ. وإذا هُمْ يَمْسَحُونَ بِظاهِرِ الْيَدِ عَنْ جِباهِهِمْ جُمانَاتِ الْعَرَقِ: نَدَى الْحَيْرَةِ والْوَجَلِ واللَّهَبِ، ويَنْتَشِرُونَ في الْبِلادِ كَأَنَّهُمْ فِتْيَةُ الْكَهْفِ بُعِثُوا مِنْ جَدِيدٍ، في قَلْبِ دُنْيَا مُوَازِيَةٍ غَرِيبَةٍ، يُدِيرُونَ أَحْدَاقاً شَدِهَةً في الْبِيئَةِ والْعِبادِ.

ومِنْ فَلُوكَةٍ غَضَّةٍ صَغِيرَةٍ تَهَوَّرَتْ في بَحْرٍ مُتَلاطِمٍ لَمْ تَسْبِرْ أَغْوَارَهُ، إلى سَفِينَةِ الصَّحْراءِ الْمُحَنَّكَةِ، تَقْطَعُ بِهِمْ مُجَرِّبَةً بَحْرَ الرِّمالِ حَدَّ الْحِجازِ، بَيْتِ اللهِ الْحَرامِ.

وفي انْتِظارِ قافِلَةٍ مِنَ الْقَوَافِلِ تُعَبِّئُهُمْ يَتَمَوَّجُونَ كَالْقِلاعِ، إلى حَيْثُ طارَتْ أَرْوَاحُهُمْ وتَرَكَتْهُمْ جُثْمانَاتٍ هامِدَةً بَيْنَ ناسٍ شَكْلُهُمْ غَرِيبٌ وحَدِيثُهُمْ عَجِيبٌ، يُضْحِي الْحَجِيجُ كَما الْفِراخِ الصَّغِيرَةِ أَضاعَتْ أُمَّهاتِها فَسامَتْ

تَحْتَ شَمْسٍ مُحْرِقَةٍ تَلْفَحُ وُجُوهَها النَّاعِمَةَ، تَضْرِمُ أَلْسِنَتُها الْمُتَوَهِّجَةُ أَحْشاءَها بِكُلِّ قَسْوَةٍ، تَعْصِرُهَا مِنْ بَلَلِها كَما الْخِرْقَةِ، فَيَغْدُونَ بِزِيَّانِيَّاتٍ يَشْتَرُونَ سُطُولَ الْماءِ، يَرُدُّونَ بِهِ الضَّمَأَ الْهاجِمَ إِلى أَنْ تُقْلِعَ بِهِمُ الْعِيسُ إِلى أَرْضِ الْحَبِيبِ التِّهامِيِّ، على بِساطٍ مِنَ الْمَشاقِّ والأَهْوالِ وَصَفَها الرَّحَّالَةُ في كُتُبِهِمْ وأَحْسَنُوا.

يَجْتازُ الْمُسافِرُونَ الزَّوَابِعَ الرَّمْلِيَّةَ ويَتَجَنَّبُونَ عَضَّاتِ الْحِنْشانِ ولَدْغاتِ الْعَقارِبِ وسُخْرِيَّاتِ السَّرابِ... السَّرابِ الْخَبِيثِ الْعَدُوِّ اللَّدُودِ الَّذِي يُصَوِّرُ بِرِيشَتِهِ الْكاذِبَةِ الْوَاحَةَ في قَفْرٍ يَبابٍ... والْعَطَشِ الْقَتَّالَ الَّذِي يُمِيتُ الْمَرْءَ على نارٍ خَفِيفَةٍ يَتَقَلَّى... ثُمَّ قُطَّاعَ الطُّرُقِ الأَشْرارَ الَّذِينَ، لَشِدَّةِ ما اسْوَدَّتْ قُلُوبُهُمْ، لَمْ يَعُودُوا يَسْتَحُونَ مِنْ بَياضِ الْحَجِيجِ وطُهْرِهِمْ، بَياضٍ في سَرِيرَتِهِمْ وبَياضٍ في أَلْبِسَتِهِمْ وبَياضٍ في وُجُوهِهِم الْمُسْتَنِيرَةِ... وأَخِيراً، هُنالِكَ الْمَوْتُ الْمُفْزِعُ، قاتِلُ الشَّوْقِ، الَّذِي قَدْ يَقْبِضُ الرُّوحَ قَبْلَ بُلُوغِ الْحَبِيبِ. ولَئِنْ كانَ الشَّيْخُ، في بِلادِنا، يَتْلُو، إذا نَدَرَ، آياتِ الكُرْسِيِّ تَحْمِيهِ مِنَ الصَّعالِيكِ وكُلِّ الْهَوامِّ بِسِياجٍ مَخْفِيٍّ يَمْنَعُ عَنْهُ الشُّطَّارَ والْقَتَلَةَ وثُلَّةَ الْفُجَّار، ولَئِنْ كانَ يَقْطَعُ بَيْنَهُ وبَيْنَ بَناتِ عِرْيَطَ الْعُهُودَ بِتِلاوَةِ بَعْضِ التَّعازِيمِ فَلاَ تُغادِرُ الإِطارَ الَّذِي يَرْسُمُهُ لَها مُسْتَدِيراً على الرَّمْلِ، فَإِنَّ الْمَساكِينَ عاجِزُونَ عَنْ مُواجَهَةِ الْمَوْتِ الَّذِي يُهْلِكُ الأَرْواحَ وَقْتَما حَلَّ مَوْعِدُهُ وقَضَى اللهُ. ومِنْ ثَمَّةَ فَما تَخَلَّفَ سِوَى الاِسْتِكانِ إلى مَكْتوبِهِ والتَّعَزِّي بِأَنَّ مَنْ قُبِضَ في طَرِيقِهِ إلى الْبِقاعِ صافِي

النِّيَّةِ فقَدْ تُوُفِّيَ شَهِيداً. ثُمَّ إنَّ الْمَوْتَ شَهِيداً خَيْرٌ مِنَ الْمَوْتِ في أَكْوَاخِ الْهِضابِ!

....

وكَأَنَّ الشَّمَالَ والْجَنُوبَ يَتَبادَلانِ الْوُفُودَ بَيْنَ أَسْرابِ الْغَزالِ فَيُعَلِّقُ الْفَنَكُ والضَّبُّ على الذَّاهِبِ والآيِبِ هازِئَيْنِ. وبَيْنَما شَمْلٌ يَغْدُو مُتَعَبِّداً زاهِداً في الدُّنيَا، لا يَبْتَغِي سِوَاهُ لا شَرِيكَ لَهُ، قَدْ أَعْطَى الدُّنْيا بِالْقَفَا، يَغْدُو شَمْلٌ صَوْبَ التَّلِّ طالِباً زُخْرَهَا، راجِياً مِنها تَوْسِعَةً، ضاحِكاً راقِصاً مُنْتَفِضاً.

ولَوْ تَفْتَحْ جَفْنَيْكَ لَتُصادِفَنَّ رَهْطاً غَرِيباً مِنَ الزُّنُوجِ نَدَرُوا مِنَ الطَّارِفِ أَوْ تَيْمُونَ، أَسْنانُهُمْ بَيْضاءُ كَالْعاجِ، أَعْيُنُهُمْ بَرَّاقَةٌ كَحَصَى الْوادِي، قِيافَتُهُمْ غَرِيبَةٌ غايَةً، بِها جُلُودٌ وأَصْدافٌ وقُلَنْسُوَاتٌ رُشِقَتْ بِرِيشِ النَّعامِ، قَدِ اتَّشَحُوا بِوَشائِحَ مُزَرْكَشَةٍ تَدَلَّتْ مِنْها مَحارِمُ ومَنادِيلُ مِنْ كُلِّ الأَلْوَانِ الصَّارِخَةِ يَتَلاعَبُ بِها النَّسِيمُ، تَرْقُصُ هَبْلَى مَعَ رَقْصِ الزُّنُوجِ إذا تَهَزْهَزُوا كَمَنْ بِهِ مَسٌّ، فَرَفَعُوا سِيقانَهُمْ وضَرَبُوا الثَّرَى بِقُوَّةٍ تَتَزَلْزَلُ لَها الأَرْجَاءُ، فَانْتَفَخَتْ أَفْخاذُهُمْ حَتَّى لَتَظْهَرُ الْعُرُوقُ تَنْبُضُ تَحْتَ الْجِلْدِ الْمَخْمَلِيِّ، الْمُوَشَّى بِحَبَّاتِ عَقِيقٍ لا يَنْضَبُ. تَئِزُّ في كُلِّ شِبْرٍ مِنْ أَجْسامِهِمِ الْجَبَّارَةِ أَشْياءُ رَنَّانَةٌ مِثْلُ الطَّناجِرِ والْقُدُورِ عَلَّقُوها ذُيُولاً على الأَدْبارِ. أَشْباحٌ مُسَلِّيَةٌ كُلُّهُمْ. إنَّهُمْ حَتْماً لا يُطِيقُونَ أَنْفُسَهُمْ وإلاَّ فَمَا مَعْنَى تِلْكَ الْهَيْشَةِ الَّتِي تَنْتابُهُمْ ساعاتٍ كَثِيرَةً كَأَنَّهُمْ مَخْطُوفُونَ لا تَهْدَأُ الْعَفارِيتُ الَّتِي فِيهِمْ؟ على

أَنَّها عَفاريتُ مازِحَةٌ تُحِبُّ الضَّحِكَ لِذَلِكَ فَبَابا سالِمٌ أَبَداً يَضْحَكُ ضِحكَتَهُ النَّاصِعَةَ، لا يَرْتَدُّ فَكُّهُ سَحابَةَ يَوْمِهِ.

ويُقْفِلُ "بُوسَعْدِيَّةُ" ونَفِيرُهُ في عِياطٍ ودَوْشَةٍ إلى الشَّمَالِ، يُثِيرُ هَوَساً وحُمَّى في كُلِّ الأَمْصارِ الّتِي يَجْتازُها إلى أَنْ يُطِلَّ على بِلادِ الْحُضْنَةِ فَالأَطْلَسِ التَّلِّيِّ. وحَيْثُما فاتَ فَزِعَتِ النَّاسُ راكِضَةً:

ـ بابا سالِمُ، بابا سالِمُ جاءَ!

أَبَداً لا يَمُرُّ أَبُو سَعْدِيَةَ إلاَّ لَوَى مُسَلِّماً على جُمْهُورِهِ الْغَفِيرِ بِابْتِسامَتِهِ الْواسِعَةِ كَاللُّؤْلُؤِ يَنْصَعُ وَسَطَ قُرْصٍ مِنَ الْمِسْكِ الْغَوَالِي... جَوْنٌ على جَوْنٍ... لا تَنْقُصُ سِنٌّ واحِدَةٌ... فكَّاهُ مُرَتَّبانِ بِنِظامٍ كَأَنَّهُما دَرَجُ ابْيانُو.

مِنْ رَبْوَةٍ إلى رَبْوَةٍ، مِنْ وادٍ إلى وادٍ، يَمْثُلُ قَرْقابُو[47] في دَشْرَتِنا الْهادِئَةِ، قاطِعاً طُرُقاتِها الْمُلْتَوِيَةَ، ناشِراً الْفَرْحَةَ والْحُبُورَ في كُلِّ شِبْرٍ مِنْ أَنْحائِها. ويَرْقُصُ قَرْقابُو ويُغَنِّي مِنْ تُراثِهِ الإفْرِيقِيِّ فَتُهْرَعُ إِلَيْهِ الأَطْفالُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وحَدْبٍ، مِنَ الدِّيارِ والْحُقُولِ والْجِبالِ والْوِدْيانِ والأَنْهارِ والْمَدارِسِ والْكَتاتِيبِ والزَّوَايا، تَتْبَعُهُ في مِهْرَجانٍ بَهِيجٍ زاهٍ، وبَيْنَما الدُّفُوفُ والصَّناجاتُ الْحَدِيدِيَّةُ تُعْلِنُ دَرْبَكَتَها في الأَجْواءِ، في صَخَبٍ وضَوْضاءَ تُصِمُّ الآذانَ، كَأَنْ بِها مُسامِيرُ تَقْرَعُها مِطْرَقاتٌ، يَتَأَهَّبُ الْجَوْقُ الْفَظِيعُ لِمَسْرَحِيَّتِهِ الْمُضْحِكَةِ ويَنْبَرِي بابا سالِمٌ يَنُطُّ في الْهَوَاءِ، يَنْطَوِي طَبَقَتَيْنِ شَأْنُ مَنْ لا عَظْمَ فِيهِ، مُتَقَطِّعاً ضَحِكاً، كَأَنَّ أَيادِيَ خَفِيَّةً تُدَغْدِغُ أَخْمَصَيْهِ

---

[47] بابا سالم، بُو سعدِيَّة، قرْقابُو وقَرْقامُو: سِيان.

بِريشاتٍ طَوِيلَةٍ. وما يَكادُ يَسْتَوِي الْمَتفَرِّجُونَ في حَلْقَةٍ حَوْلَ الْمَشْهَدِ الْهازِئِ، وَسَطَ الْقَرْيَةِ الْبَسِيطَةِ، حَتَّى يَنْطَلِقَ في ثَرْثَرَةٍ ساخِرَةٍ، في حِوارٍ مَعَ زَوْجِهِ لالاَّ سالِمَةَ ـ وما هِيَ سِوى رَجُلٍ تَزَيَّا بِزِيِّ امْرَأَةٍ ـ فَيَقُولُ:

آ لالاَّ سالْمَة	(آ لالاَّ سالِمَةَ)
اشْطَحْ اسْواسْوَا	(اُرْقُصِي مُتَساوِياً)
أَذْناوِي النَّعْمَة	(نَجْلِبِ النَّعْمَة)[48]
أَنْعَلْ ثاماغْرَا	(نَصْنَعْ عُرْساً)

فَتَرُدُّ عَلَيْهِ لالاَّ سالمة:

جْمِيعْ الايمانْ	(وجَمِيعِ الأَيْمان)
الشِّيحْ والرِّيحْ	(الشِّيحُ والرِّيحُ)
أُورَتشِّيغْ إمْزِيحْ	(ما أَكَلْتُ الْقَمْحَ)
أُورْسَقَّاغْ إِبِيحْ	(لا سَقَيْتُ الْفُولَ)
أَيا الشْلاغَمْ أُوقْزِيحْ	(أَيا شارِبَيِ الْكَلْبِ)

فَيَسْتَأْنِفُ بابا سالِمٌ:

جْمِيعْ الايمانْ الْبَلِيطَة	(وجَمِيعِ الأَيْمانِ الْبَلِيطَة)[49]

---

[48] الزَّرْع والْحُبُوب.

[49] شالٌ: وِشاحٌ تُغَطِّي بِهِ الْمَرْأَةُ رَأْسَها وكَتِفَيْها.

أُوثَنْسِيتْ ازَّقْسْ إِيطَا (لا بِتٍّ فِيها اللَّيْلَةَ)
أَذَاوِيغْ ثامَطُّوتْ (أَجْلِبُ امْرَأَةً)
سَالطْبَلْ ذَا الْغايْطَة (بِالطَّبْلِ والْغَيْطَة)[50]

وبَيْنَما النَّاسُ في هَذْرٍ، الْبَعْضُ يَمْزِحُ والْبَعْضُ يَزُجُّ قِطَعاً نَقْدِيَّةً في راحَةِ بُوسَعْدِيَّةَ، تَقِفُ النِّساءُ على عَتَباتِ الدِّيارِ يُخْفِينَ وُجُوهَهُنَّ بِأَيْدِيهِنَّ، يَحْجُبْنَ ضِحْكَةً وزَغْرَدَةً.

أَحْياناً، تَجْرُؤُ إِحْداهُنَّ فَتُشِيرُ إلى بابا سالِمٍ: "ـ أَنِ ادْخُلْ بَيْتِي! " فَيُدْرِكُ أَنَّ مَهَمَّتَهُ أَنْ يُسْعِفَ تِلْكَ الْمَخْلُوقَةَ الْمَغْلُوبَةَ على بَعْضٍ مِنِ اسْتِبْدادِ الْقَدَرِ. وفي حِينٍ سَلَّمَ الْحَجِيجُ أَنْفُسَهُمْ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، تَسْتَوْسِطُ الْمَخْلُوقاتُ التَّعِيسَةُ في الْقَرْيَةِ شَرِيكاً لَهُ ـ تَنَزَّهَ رَبِّي عَنْ ذَلِكَ ـ يُعِينُهُنَّ على مَصائِبِ الزَّمانِ، على عُقْرِ الْكَنَّةِ، واحْتِباسِ الْفَرَسِ، وعَنَسِ الْبِنْتِ، وغِيابِ الْحَظِّ واسْتِبْدادِ الْمَرَضِ الَّذِي اسْتَقَرَّ لا يَزُولُ.

وبابا سالِمٌ أَبداً مُسْتَعِدٌّ لِلنَّجْدَةِ، في جُعْبَتِهِ شَطْباتٌ رَقِيقَةٌ تَشْفِي مَرَضَ الصُّفَارِ إذا شُرِطَ الْجَبِينُ، وحِيَلٌ وأَدْوَارٌ تُصارِعُ الْقَدَرَ حَيْثُ تَجَذَّرَ الْقَدَرُ مُنْذُ أَحْقابٍ. وفي أَعْبَابِ النِّساءِ يُوجَدُ دائِماً شَيْءٌ يُؤْجَرُ بِهِ بُوسَعْدِيَةُ على إِحْسانِهِ. ويَغْنَمُ الْمُسْتَجْدِي ما لأَجْلِهِ تَرَكَ الزَّوْجَ والْوَلَدَ، في أَقْصَى الْجَنُوبِ، في بِلادِ الرِّمالِ، بَيْنَ مَخالِبِ الْجُوعِ والْفاقَةِ.

---

[50] آلَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ مِثْلُ الزُّرْنَا التُّرْكِيَّةِ.

إذِ الْخَلائقُ تَمُوجُ هاتِرَةً في جُنُونٍ، تَرَى الرِّجالَ على قَوَارِعِ الطَّرِيقِ وأَدْراجِ الْحَوَانِيتِ، يَتْبَعُونَ الْبَهالِيلَ على الدَّرْبِ بِنَظَراتٍ هازِئَةٍ غَيْرِ مُكْتَرِثَةٍ، كَأَنَّهُمْ، بِوَقارِهِمْ، يَتَرَفَّعُونَ عَنْ مِثْلِ تِلْكَ الْخُزَعْبَلاتِ: تَسْلِياتِ الصِّغارِ، وهَوَى رَبَّاتِ الْحُجُورِ، ولَكِنَّهُمْ في أَعْماقِ أَنْفُسِهِمْ، يَلْهَجُونَ:

يا مَنْ صابَنِي كِيفْ بُوسَعْدِيَةَ

الطَبْلْ في تَرْمِيه

الْكِلابْ تَنْبَحْ

ازْدَكْ ازْدَكْ يا مَيْمُونْ جِيبْ الْكَسْرَة في الْقَلْمُونْ

باريس، 1999م

حُلْمُ خَدُّوجَة[51]

ما كُنْتُ أَتَجاوَزُ الأَرْبَعَةَ عَشَرَ عاماً؛ بَرِيئَةٌ، سَعِيدَةٌ، مُرْتاحَةُ الْبالِ في جِبالِ بِلادِي كَمَا أَسْرابِ الْعَصافِيرِ تَتَرَنَّمُ بِالْحَياةِ مِلْءَ حَناجِرِها على أَشْجارِ الزَّيْتُونِ.

ذاتَ لَيْلَةٍ، دَخَلْتُ فِراشِي الْوَثِيرَ في بَيْتِ أَبِي الْمُنْعِمِ، وأَخْلَدْتُ لِلنَّوْمِ. وإذا بِمَلَكِ الأَحْلامِ يَذْرُو عَلَيَّ مِنْ شَذَراتِ هِمْيانِهِ، فَتَسْتَرْسِلُ أَمامَ عَيْنَيَّ صُوَرٌ مُرْعِبَةٌ لِكابُوسٍ فَظِيعٍ. ومَهْما تَكُنِ السِّنُونُ قَدْ خَلَتْ بَيْنَ ذَلِكَ اللِّقاءِ وبَيْنَ ذِي اللَّحْظَةِ الّتي أُكاشِفُكِ فِيها، فَما زِلْتُ أَذْكُرُ تَفاصِيلَهُ وكَأَنَّنِي أَراها على شاشَةِ التِّلِفزْيُونَ.

مَعَ أَنَّ الْحُلْمَ انْطَلَقَ جَمِيلاً. كَنْتُ أَبْدُو رائِعَةً في تِلْكَ الْجُبَّةِ الْقَبائِلِيَّةِ الْحُلْوَةِ غايَةً. أَنِيقَةً، نَظِيفَةً، أَتَهادَى بَيْنَ بَساتِينِ "ذِراعِ الْمِيزانِ"[52] الْخَلاَّبَةِ، مُخْتالَةً بِقِيافَتِي الْمَتَأَلِّقَةِ.

---

[51] برواية خدُّوجة نفسها.

[52] قرية خدُّوجة في بلاد القبائل الكبرى، ولاية تِيزِي وَزُّو.

وفَجْأَةً، بَيْنَما أَنا أَقِفُ غَيْرَ بَعيدٍ عَنْ بَيْتِنا، مَسْحُورَةً بِتِلْكَ اللَّحَظاتِ الْمُمْتِعَةِ مِنَ الْجَمالِ والرَّوْعَةِ، لَمَحْتُ عَجُوزَيْنِ غَرِيبَيْنِ عَنِ الْبَلْدَةِ، يَنْظُرانِ إِلَيَّ بِإِعْجابٍ ويَتَغامَزانِ. وما عَتَمْتُ أَنْ سَمِعْتُ الْمَرْأَةَ تَقُولُ لِزَوْجِها:

ـ إنَّما هِيَ هِيَ! هِيَ تِلْكَ الّتي سَنَخْطُبُ لابْنِكَ!

فَجاوَبَها الشَّيْخُ هازّاً رَأْسَهُ بِرِضا:

ـ إي صَدَقْتِ بِالله!... مَلِيحَة حَقّاً!

كُنْتُ ما أَزَالُ بَيْنَ قَبْضَتَيْ الْمَلَكِ، أَتَمَلْمَلُ بَيْنَ ثَنَايَا نُعاسٍ مُبَلْبَلٍ، بَيْدَ أَنِّي رَأَيْتُنِي أُخْطَبُ وأُزَفُّ إلى أُولاءِ الْقَوْمِ الْمَجْهُولِينَ. قَوْمٌ لا أَعْرِفُ عَنْهُمْ شَيْئاً، أَدْرِي مِنْ أَيِّ شَرْخٍ يَنْفَصِلُونَ ولا إلى أَيِّ عِرْقٍ يَنْتَسِبُونَ.

يَا لَحَسْرَتِي وأَنا على الْعَتَبَةِ!... نَظَرْتُنِي فَأَلْفَيْتُنِي أَرْتَدِي جُبَّةً قَمِيئَةً زَرِيَّةً قَبِيحَةً مُتَّسِخَة. وَوَجَدْتُ نَفْسِي أَنْقَبِضُ لِذَلِكَ الرَّحِيل... الْتَفَتُّ خَلْفِي فَإذا بَيْتُ أَبِي يَبْدُو لِي أَثِيراً يَعُزُّ عَلَيَّ فِراقُهُ فَزادَتْ لَوْعَتِي.

ما كِدْتُ أَعْتِبُ مَنارَ الْبابِ، حَتَّى عَنَّتْ لِي امْرَأَتانِ مِنْ حَيْثُ لا أَدْرِي، دَنَتَا مِنِّي حَتَّى لاصَقَتانِي وإذا إحْداهُما تُبادِرُنِي:

ـ اِصْبِرِي... لا تُغادِرِي هَكَذا... ما يَجُوزُ هذا... اِعْلَمِي أَنَّ سَبِيلَكِ هَتِهِ الّتي تَسْلُكِينَها لَيْسَتْ بِتِلْكَ الّتي سَتُنِيرُ خُطاكِ وتَأْتِيكِ بِالْعِزِّ والسُّؤْدُد. ولا هِيَ بِتِلْكَ الّتي تَتَوَقَّعِينَ بَيْنَ ثَنَاياها خَيْراً ومَنَعَةً. إنَّما هِيَ شُرُورٌ كُلُّها وعَلَيْكِ أَوْصابٌ ومِحَنٌ. وإنَّها، ولا رَيْبَ، مَنْثُورَةٌ شَوْكاً وسِدْرَة، تَتَمَزَّقُ قَدَماكِ الصَّغِيرَتانِ على أَسِنَّتِها وتُذْهِبُ بَراثِنُها ذَيْلَ ثَوْبِكِ أَشْلاءً.

ثُمَّ انْكَبَّتا على قَدَمَيَّ رَبَطَتا ذَيْلَيْ جُبَّتِي بَعْضَهُما بِبَعْضٍ وَسَرَّحَتاني بَعْدَ أَنْ تَنَحَّتا جانِباً فَطَفِقْتُ أَسِيرُ بِتِلْكَ الْعُقْدَةِ الضَّخْمَةِ، تَتَدَلَّى بَيْنَ ساقَيَّ.

توَجَّهْتُ إلى الْعاصِمَةِ ورَكْبَ الْعَرُوسِ، عَلى مَتْنِ سَيَّارَةٍ امْتَطَيْتُها لأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِي الْقَصِيرةِ، فَجَعَلَتْ مُخَيِّلَتِي تَسْرَحُ، طُولَ الْمِشْوَارِ، فِيما يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَهُ الْمَدِينَةُ وفِيما تُخْفِيهِ مِنْ أَسْرارٍ رائعَةٍ، ورُحْتُ أَتَمَثَّلُ الْبَيْتَ الأَنِيقَ الّذي سأَقْطُنُهُ مُؤَثَّثاً بِأَفْخَرِ طِرازٍ، مُجَهَّزاً بِأَحْدَثِ الآلاتِ، وأَنا أَتَنَعَّمُ بِحياةِ بَذْخٍ وتَرَفٍ على غِرارِ نِساءِ الْحَضَرِ.

ودَخَلْنا الْجَزائرَ فَجَعَلْتُ أُحَدِّقُ في بِناياتِها الْفَخْمَةِ وبَساتِينِها الْخَضْراءِ وشَوارِعِها الكَبِيرَةِ بِمَحَلاَّتِها الْفاخِرَةِ مُتَعَجِّبَةً. كانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَزُورُ فِيها الْعاصِمَةَ، فَبَدَتْ إزاءَ عَيْنَيَّ الْجاحِظَتَيْنِ إعْجاباً تَماماً كَما كُنْتُ أَتَصَوَّرُها في "ذِراعِ الْمِيزانِ"، وجَعَلْتُ شَيْئاً فَشَيْئاً، ورَكْبُنا يَرْتَقِي أَحْياءَها الْواحِدَ تِلْوَ الآخَرِ، أَهْنَأُ بِمُفارَقَتِي لِبَلْدَتِي إذْ تَنْعَدِمُ في قَرْيَتِنا كُلُّ تِلْكَ الْمَدَنِيَّةِ الّتي تَبَرَّجَتْ بَيْنَ يَدَيَّ في الْمَدِينَةِ كَالعَرُوسِ الْمُتَصَنِّعَةِ؛ ثُمَّ إنَّ النَّاسَ عِنْدَنا ما انْفَكُّوا هَمَلاً أَجْلافاً، لا يَعْلُونَ عَنْ بَهائِمِهِمْ إلاَّ بِقَدْرِ ما يَمْشُونَ على قائِمَتَيْنِ بَدَلَ أَرْبَعٍ؛ أَمَّا أَنا فَكُنْتُ سَأَتَحَوَّلُ إلى امْرَأَةٍ عاصِمِيَّةٍ مُتَحَضِّرَةٍ...

ومَعَ ذَلِكَ فَهاجِسٌ في نَفْسِي باتَ يُسَوِّلُ لِي بِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ نَصِيبِي، فَصَوْتُ الْمَرْأَتَيْنِ في "ذِراعِ الْمِيزانِ" كانَ يَرِنُّ في فُؤادِي كَالْمِطْرَقَةِ تَدُقُّ على ناضِرَيَّ دَقَّاتٍ مُتَتالِيَةً لا تَكُفُّ.

وإنَّ الهاجِسَ صَدَقَ، وإنَّ الدَّقَّاتِ صِرْنَ يَشْتَدِدْنَ ويُسْرِعْنَ حَتَّى ما عُدْتُ أُطِيقُ لَهُنَّ احْتِمالاً، يَدْقُقْنَ يَدْقُقْنَ فَتَنْفَجِرُ الدِّماءُ في عَيْنَيَّ

وتَنْسَبِلُ الْغِشاوَةُ على نَظَرِي وأَكادُ أُصْرَع. إلاَّ أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْعَلْقَمَ تنْتَصِبُ لِي قَدَراً مَكْتُوباً لا أَمْلِكُ مِنْهُ مناصاً.

رَأَيْتُنِي في الْمَنامِ أَدْخُلُ حَوْمَةً قَصْدِيرِيَّةً رَهِيبةً، في حَيٍّ شَعْبِيٍّ أَكْحَلَ أَرْبَدَ، أَكْواخُهُ باهِتَةٌ مُتَهَالِكَة، في ناحِيَةٍ مُتَطَرِّفَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ الْبَهِيَّة. أَيْنَ بَساتِينُ الزُّهُورِ والأَحْوَاضُ الْجَمِيلة؟ أَيْنَ الْعِمارَاتُ الْبَيْضاءُ طُولَ الشَّوارِعِ النَّظِيفة؟ أَيْنَ أَشْجارُ النَّارَنْجِ والْيُوسُفِيَّةِ على جَنَبَاتِ الطَّرِيقِ؟ أَيْنَ السَّيَّارتُ اللَّمَّاعَةُ تَتَراصُّ في السَّاحاتِ الْوَاسِعَةِ؟ كُلُّ شَيْءٍ تَبَخَّرَ كَمَا في سَرَابٍ وأَضْحَى الْمَنْظَرُ الرَّهِيبُ يَتَرَسَّخُ أَمامَ لَحْظَيَّ حَقِيقِيّاً لا يَتَفَسَّخُ. أَما قال أَسْلافُنا: " هَرَبَ مِنَ الذَّبَّاحِ طاحَ في السَّلاَّخِ"؟ تِلْكَ هِيَ ورَبِّي...

ولَكِنْ، تَرَجَّيْ لِماماً... رُؤْيا شُؤْمِي ما اكْتَمَلَتْ بَعْدُ ومَلَكُ الأَحْلامِ ما تَزَالُ شِمالُهُ تَغْرَقُ في كِيسِهِ الشَّفَّافِ، تَغْرِفُ مِنْ أَعْمَاقِهِ صُوَراً قَبِيحَةً تُرْسِلُها إِلَيَّ في حَرَكَةٍ دائِبَةٍ فاتِرَةٍ لا تَهْدَأُ.

اِنْسَلَلْنا عَبْرَ سِكَكِ حَيِّ الصَّفِيحِ الْمُلْتَوِيَةِ كَالأَفاعِي، وفي حِينٍ كُنْتُ أَحْسَبُنا لَنْ نَهْتَدِيَ أبداً في تِلْكَ الْمَتاهَةِ الْمُظْلِمَةِ السَّوْداءِ، حَطَطْنا الرِّحالَ قُدَّامَ بابٍ خشَبِيٍّ مُتَهاوٍ، أَوْ ما بَدَا لِي كَالْبابِ، وجَعَلَتْ حَمَاتِي تُعالِجُ قُفْلَهُ تَبْغِي أَنْ تُولِجَ الْعَرُوسَ فِيهِ مُبارَكَةً مَسْعُودَةً... إلاَّ أَنَّهُ أَبَى الانْصِياعَ وآثَرَ الْبَقاءَ مُقْفَلاً إِتْماماً لِفَأْلِ السُّوءِ. ثُمَّ، بِاللهِ عَلَيكِ، أَيَّةُ بَرَكَةٍ تِلْكَ أَوْ سَعادَةٍ تَجِدُها فَتاةُ الأَرْبَعَةَ عَشَرَ زَلِقَتْ مِنْ جِبالِ الْقَبائِلِ تَوّاً في لَهاةِ تِلْكَ الْحُفْرَةِ الْحَقِيرَةِ؟... اِضْحَكِي، اِضْحَكِي يا ذاتَ الأَسْنانِ ما دامَ اللهُ قَدْ أَعْطَاكِ الضَّحِكَ... أَعَزَّكِ اللهُ.

ثُمَّ إنَّا تَمَكَّنَّا مِنَ الْبابِ الْعاقِّ ودَخَلْنا الدَّارَ، أَوْ بِالأَحْرَى الكُوخَ وانْقَضَى الْعُرْسُ الْوَهْمِيُّ، وفِي الْيَوْمِ التَّالِي. غَدَا كُلٌّ في عائلَتِنا السَّعِيدَةِ إلى أَشْغالِهِ الْيَوْمِيَّةِ وبَيْنَما نُبِذَ إِلَيَّ بِرُزْمَةِ مَلابِسَ هِيَ أَشْبَهُ بِالتَّلَّةِ أَغْسِلُها، وبَيْنَما أَنا أَتَعارَكُ مَعَ خَشَبَةِ الْغَسْلِ الّتي لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ لَها اسْتِعْمالاً - فَأَهْلُنا الْمُتَخَلِّفُونَ في بِلادِ الْقَبائِلِ لا يَسْتَعْمِلُونَ مِثْلَ تِلْكَ الْخَشَباتِ لِحَكِّ الثِّيابِ بَلْ إِنَّهُمْ يَغْسِلُونَها مُباشَرَةً في الْجَفْنَةِ... ولَوْ أَنِّي لَمْ أَعُدْ أُحْسِنُ غَسْلَ الثِّيابِ بِغَيْرِها الآنَ!... الْحاصِلُ يا لالاَّ، أُكْمِلُ لَكِ... بَيْنَما أَنا غارِقَةٌ بَيْنَ الْقِصَعِ والْجَفْناتِ، هاهُو ذا زَوْجِي يَعُودُ مِنَ السُّوقِ حَيْثُ يَبِيعُ بَعْضَ الأَشْياءِ الْبَسِيطَةِ على طاوِلَةٍ بَسِيطَة، يَعُودُ غَضْبانَ وقَدْ أَضاعَ سُتْرَتَهُ، سُتْرَةَ الْعَرِيسِ الّتي تَزَوَّجَ بِها، أَضاعَها أَوْ هِيَ سُرِقَتْ مِنْهُ ما دَرَيْنا... أَعوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنا أَماراتُ الشُّؤْمِ فَتَطَيَّرْنا... أَعْرِفُكِ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ يا أُخْتِي وأَدْرِي أَنَّكِ لَسْتِ كَهَؤُلاءِ الْمُتَعَلِّمِينَ الّذِينَ كَفَرُوا بِكُلِّ شَيْءٍ فَدَوْرَةً لِدَوْرَة، يَرْمُونَنا بِالتِّيمِيَّةِ والتَّخْرِيفِ، وإلاَّ ما كُنْتُ أَفْضَيْتُ إِلَيْكِ بِمَكْنُونِ قَلْبِي، وحَكَيْتُ لَكِ حُلْماً ما رَوَيْتُهُ إلاَّ لِلْقَلِيلِينَ... ولَكِنَّ الْحُلْمَ جَرَتْ تَفاصِيلُهُ تَحْتَ نَظَرِي، تَرْمُشُ لَهُ أَهْدابِي، فَانْتَقَشَ في خَلَدِي كَما أَصِفُهُ لَكِ وإِنَّ الْمَتاهاتِ تَشَعَّبَتْ عليَّ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ حَتَّى إِنِّي لَمْ أَعْرِفْ مِنْها نُفُوذا.

ومَعَ الْفَجْرِ، صاحَ الدِّيكُ في "ذِراعِ الْمِيزانِ" إلى تَرْكِ النَّوْمِ وأَزَّرَهُ الْحِمارُ بِنَهِيقِهِ الْبَغِيضِ فَهَبَبْتُ مِنْ فِراشِي مَذْعُورَةً، أَحُكُّ مُقْلَتَيَّ بِظَهْرِ كَفَّيَّ، أَسْتَعِيذُ رَبّاً رَحِيماً مِنْ كُلِّ وَسْوَاسٍ خَنَّاسٍ، لا يَكادُ عَقْلِي يُصَدِّقُ

أَنَّ ما ارْتَسَمَ على مِرْآتِهِ، اللَّيْلَةَ الْفارِطَةَ، مِنْ لَوْحاتٍ كَئِيبَةٍ حَزِينَة، لَمْ يَكُنْ سِوَى أَضْغاثِ أَحْلامٍ كاذِبَة!...

على أَنَّ الكَذِبَ هُوَ ما كُنْتُ قَدْ ظَنَنْتُهُ، أَمَّا الْحُلْمَ فَقَدْ كانَ رُؤْيا مُنْبِئَة، إِذْ ما أَوْشَكَ يَدُورُ الشَّهْرُ ويَزْدادُ الْقَمَرُ الْجَدِيدُ، حَتَّى امْتَثَلَ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِي الْعَجُوزانِ اللَّذانِ رَأَيْتُهُما في الْمَنامِ؛ هُما هُما بِمَلامِحِهِما وخَلْقِهِما فَقَدْ حَفِظَتْها مُخَيِّلَتِي مِنْ لَيْلَةِ الْحُلْمِ تِلْكَ. ما كُنْتُ واللهِ أَعْرِفُ ذَيْنِكَ الشَّخْصَيْنِ مِنْ قَبْلُ. وأَنَّى لِي أَنْ أَعْرِفَهُما وأَنا ابْنَةُ الْقَبائِلِ وهُما مِنَ الْحَضَرِ؟ وفي ظَرْفٍ سَرِيعٍ جِدّاً، خُطِبْتُ بِأَدْنَى مَهْرٍ، وزُفِفْتُ بِأَيْسَرِ مَؤُونَةٍ، فَما كانَ جِهازِي بِذِي بالٍ، ولا عُرْسِي بِذِي صِيتٍ وأُوتِيَ بِي أنا ابْنَةَ الأَرْبَعَةَ عَشَرَ رَبِيعاً إلى سِجْنِ الصَّفِيحِ، فَما زِدْتُ عَلَيْها رَبِيعاً بَعْدَ ذَلِكَ، أُوتِي بِي كَما قَرَأْتُ في لَوْحاتِ الْغَيْبِ الّتي كُشِفَ لِي سِتْرُها في جُنْحِ اللَّيْلِ، أُوتِيَ بِي الْعاصِمَةِ فَأَبْصَرْتُ شَوارِعَ الْمَدِينَةِ الْجَمِيلَةَ، تَخْفِرُها الأَشْجارُ الْمَظَلِّلَةُ ولَكِنَّنِي قَطَعْتُها قَطْعاً كَوَمِيضِ الْبَرْقِ ونَزَلْتُ عَنْ رَكْبِي في قَصْدِيرِ الْعاصِمَةِ، بَعْدَ أَنْ تَرَكْتُ قِبَبَها الْبَيْضاءَ وزَلِّيجَها الْمُزَرْكَش لِغَيْرِي.

وفي عُشَّةِ الْفِراخِ الّتي هَوَّنَتْ زَوْجُ حَمِي أَنْ تَهَبَها لِي غُرْفَةَ عَرُوسٍ، في ذَلِكَ الثُّقْبِ الأَغْبَرِ لَمْ أَدْخُلْ لأَنَّ الْمِفْتاحَ أَبَى أَنْ يَحُلَّ لِي قُفْلَهُ، ولَوْ بَقِيَ مُقْفَلاً طُولَ الْوَقْتِ لَكانَ رُبَّما أَحْسَنَ...! إلاَّ أَنَّ "عُشَّ الْعَرُوسَيْنِ" اِنْفَرَجَ وأَمْضَيْتُ في قَتامَتِهِ لَيْلَةَ الْعُمْرِ، وفي الْغَدِ، انْطَلَقَ زَوْجِي الشَّابُّ ذُو التِّسْعَةَ عَشَرَ عاماً إلى السُّوقِ، يَمْشِي الْهُوَيْنَى مُتَثائِباً إلى عَمَلِهِ الْبَخِيلِ، فَضاعَتْ مِنْهُ سُتْرَةُ الْعَرِيسِ، ومِنْ ساعَتِئِذٍ إلى يَوْمِنا هَذا الّذي

أَدْرَكْنا، وأَنا أَتَجَرَّعُ الْمُرارَ الْصِّرْفَ ما عَلِمْتِ، وشَرِبْتُ الْحَلْباءَ والشِّيحَ والْمَرِّيوَثَ[53] والدِّفْلَى وخاتِمَتُها عَلْقَمٌ زُعافٌ فَالزَّوْجُ سِكِّيرٌ عِرْبِيدٌ لا طائلَ تَحْتَهُ ولا باعَ، وعِيالٌ كُثُرٌ نُغاشُونَ جائعُونَ ضائعُونَ صائعُونَ غَيْرُ فالِحِينَ في دَرْسٍ أَوْ حِرْفَة، وقِلَّةُ حَوْلٍ وانْعِدامُ مالٍ وغِيابُ سَنَدٍ وبُؤْس عائلٍ وهَوَسُ بَالٍ وشُغْلٌ لا يَسُدُّ أَوُداً أَوْ يشُدُّ رَمَقاً، ومَعَ ذَلِكَ فَالْحَمْدُ للهِ على كُلِّ حالٍ، اِعْتِقادِي فِيهِ راسِخٌ، ومَنْ كانَ اللهُ نَصِيرَهُ فَلا مُسْتَنْصَرَ عَلَيْهِ بإذْنِهِ تَعالَى.

الجزائر العاصمة، سِبْتَمبر 1999م

[53] نبتة بَرِّيَّة مرَّة، تشبه النّعناع.

عَيْنُ الْـحَسُود[54]

نَحْنُ ناسٌ فَلاَّحُونَ لا نَسْتَغْنِي عَنِ الْبَقَر. أَمَّا الْحَقَّ شِئْتِ فَإِنَّا ناسٌ لا نُطِيقُ أَكْلَ اللَّحْمِ فَنَعْتاضُ عَنْهُ بِالْحَلِيبِ كَالْعُجُولِ.

اِقْتَسَمْنا وإخْوَتِي تركَةَ والِدِي فَنَفَذَتْ في سَهْمِي بَقَرَةٌ شَارِفٌ عَجْفاءُ، لا تُغْنِي ولا تُسْمِنُ مِنْ جُوعٍ.

تَحَيَّرْتُ وَوَجَدْتُنِي في ضِيقٍ مُتَوَرِّطاً، تَنْظُرُ عَيْنِي إلى الصِّبْيَةِ يَجُولُ فِيهِم الْجُوعُ ويَصُولُ، وأَنَا لا حَوْلَ لِي ولا باعَ وبَقَرَتُنا الَّتي وَرِثْتُ لا يُدِرُّ ضَرْعُها الْجافُّ قَلِيلاً ولا كَثِيراً.

فاضَ عَلَيَّ التَّخْمِينُ وصِرْتُ أَخْبِطُ كالنَّاقَةِ الْعَشْوَاءِ، لا أُصِيبُ لِنَفْسِي مَنْفَذاً مِمَّا أَجِدُ مِنْ حَرَجٍ وأَمْسَيْتُ، كُلَّ يَوْمٍ إذا قَفَلْتُ مِنَ الْحَقْلِ، أَنُورُ كَالْجَبَّاذَةِ[55] في صَحْنِ الدَّار.

دَوْرَةٌ وأَعُودُ إلى صُرَّتِي أَعُدُّ ما اسْتَأْمَنْتُها مِنْ فِلْساتٍ لَعَلَّ وعَسَى بَيْدَ أَنَّها ما تَرُدُّ لِي أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ ثَمَنِ الْبَقَرَةِ في سُوقِ الْجَلْبِ.

---

[54] برواية الفلاّح عليّ الْخَرُّوبِي، 1999م.

[55] قطعة خشبيّة تذهب وتجيء على النّول لتجذب الخيطان.

تَطارَدَتِ الأَيَّامُ أَمْ تُراها أَسابِيعُ ودَنَا مِنَّا شَهْرُ رَمَضانَ حَثِيثاً، تَعِنُّ لَنَا أَمَاراتُهُ مِنَ الطَّبائقِ[56] الْقَرِيبَةِ. وكانتْ لَيْلَةَ السُّوقِ الّتي تَسْبِقُ الشَّهْرَ مُباشَرَةً فَاسْتَسْلَمْتُ لِلنَّوْمِ كَأَنَّما أَفِرُّ إلى رَحْمَتِهِ مِنَ الْوَاقِعِ الرَّهِيبِ، فَإذا بِهاتِفٍ يَتَمَثَّلُ لِي في صُورَةِ شَيْخٍ جَلِيلٍ، لِحْيَتُهُ بَيْضاءُ طَوِيلَةٌ ناعِمَة، وحاجِباهُ ناصِعانِ، لَيْسَا أَنْصَعَ مِنْ عَمامَتِهِ وأَصْفَى مِنْ غَنْدُورَتِهِ أَوْ بُرْنُسِهِ. الْمُهِمُّ أَنَّهُ بادَرَنِي حازِماً:

ـ يا خَرُّوبِي! خُذِ الْحَبْلَ واقْصِدِ السُّوقَ تَقُدِ الْبَقَرَةَ.

فَفَزِعْتُ مِنَ النَّوْمِ فَرِقاً، أَسْتَعِيذُ اللهَ مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ فَما أَوْشَكَ يَهْدَأُ رَوْعِي بَعْضَ هُدُوءٍ حَتَّى أَخْلَدْتُ لِلنَّوْمِ ثانِيَةً وإذا الْهاتِفُ يَعُودُ إلَيَّ مَرَّةً أُخْرَى مُلِحّاً:

ـ بُكْرَةَ غَدٍ، خُذِ الْحَبْلَ يا خَرُّوبِي واقْصُدِ السُّوقَ تَقُدِ الْبَقَرَةَ!

فَأَفَقْتُ أَنْتَفِضُ كَالْفَرْخِ وطَفِقْتُ أَحْتَمِي بِالاِسْتِغْفارِ وأَتَدَرَّعُ بِالتَّعَوُّذِ ونَفْسِي تَهْمِسُ لِي في جُنْحِ الظَّلام:

ـ إنْ هَذا سِوَى شَيْطانٍ رَجِيمٍ يُوَسْوِسُ لَكَ يا خَرُّوبِيّ ويَلْهُو بِجَوَارِحِكَ يا رَجُل. خَزْيٌ ولَعْنَةٌ عَلَيْهِ إلى يَوْمِ الدِّينِ، مِنِّي ومِمَّنْ آذاهُ في الْبَرِيَّةِ طُرّا.

ثُمَّ تَمَدَّدْتُ أَبْتَغِي رَاحَةً وأَلْتَمِسُ قَدْراً مِنَ السَّكِينَةِ فَما عَتَمَ أَنِ انْسَدَلَ جَفْنِي وغِبْتُ في دَهالِيزِ النَّوْمِ لوْلا الْهاتِفُ يَنْدَهُ عَلَيَّ مُحْتَدّاً:

[56] رؤوس الجبال بلهجة المنطقة.

ـ يا خَرُّوبِي! قُلْتُ لَكَ خُذِ الْحَبْلَ واقْصُدِ السُّوقَ!
هَمَسْتُ:
ـ وكَيْفَ لِي والسُّوقَ ولَيْسَ في جَيْبِي قَدْرُ مِعْزَى؟
أَجابَنِي بِغَضبٍ صَرِيحٍ تِلْكَ الْمَرَّةَ:
ـ قُلْتُ لَكَ اِذْهَبْ!

وسُرْعانَ ما اخْتَفَى كَخَيْطِ الدُّخانِ يَطْلَعُ في الْهَوَاءِ مُتَمايِلاً، مَتَراقِصاً كَغادَةِ الْمَعْبَدِ ثُمَّ يَتَفَسَّخُ فَجْأَةً. وتَرَكَنِي مَعَهُ النُّعاسُ فَأَلْفَيْتُ السَّاعَةَ وَطِيئَةَ الْفَجْرِ فَتَوَضَّأْتُ وصَلَّيْتُ وجَعَلْتُ أَدُورُ في الْمِراحِ، يَدَايَ في جَيْبَيَّ، مُتَراخِياً مُتَثاقِلاً، أَفَكِّرُ فِيما قالَهُ لِي الهاتِفُ، وقَدْ باتَ يَقِيناً لَدَيَّ أَنَّ تِلْكَ رُؤْيا رَأَيْتُها، ومَعَ ذَلِكَ لا أُصَدِّقُ بِأَنَّ في وُسْعِيَ شِراءَ الْحَيَوانِ، أَنْظُرُ إلى الْحِبالِ الْكَثِيرَةِ مُعلَّقَةً في الاِسْطَبْلِ ولا أَمُدُّ إلى أَحَدِها بَناناً كَأَنَّما أَسْتَحِي مِنْ عَطَلِها أَوْ أَخْشى أَنْ تَنْقَلِبَ إلى حِنْشانَ فَتَلْدَغنِي.

لا تَسْأَلِينِي لِمَ؟ وِلِكنَّ ساقَيَّ جَرَّتانِي إلى سُوقِ الدَّشْرَةِ وأَلْفَيْتُنِي أَجُرُّ قَدَمَيَّ بَيْنَ مُنْعَرَجاتِها وسِكَكِها الْمُتْرَبَةِ، مُحَدِّثاً نَفْسِي:
ـ أَتَفَرَّجُ عَلى الدَّوَابِّ، وأُمَيِّزُ السُّوقَ هَذا الأُسْبُوعَ.

عَقِيدَةٌ راسِخَةٌ في ذِهْنِي أَكَّدتْ لِي بِأَنَّ هاتِفَ الْمَنام يَهْذِي، هاتِرٌ بْنُ هاتِرٍ يَقْصِفُ كَلاماً جُزافاً. طَفِقْتُ أَتَقَلَّبُ بَيْنَ الْبَقَرَةِ والأُخْرَى، يَدايَ في جَيْبَيَّ، وعَيْنايَ تَنْظُرانِ في الْبَهائِمِ الْجَمِيلَةِ ولَكِنَّ النَّفْسَ لا تَشْتَهِيها.

أَضْحَى الْباعَةُ، وأنا أَعْرِفُهُمْ جَمِيعاً، يُنادُونَنِي على حَيَواناتِهِمْ ويَعِدُونَنِي بِمُخْتَلِفِ التَّسْهِيلاتِ على أَنَّنِي لَمْ أَكْتَرِثْ. أَتَهادَى كَسْلانَ بَيْنَ

الْمَعْرُوضاتِ، أَعَافُها جَمِيعَها ولا أُعِيرُها اهْتِماماً. وصَرَفْتُ ساعاتٍ على تِلْكَ الْحالِ أَنْفَلِتُ بَيْنَ طُرُقاتِ السُّوقِ الْمَزْدَحِمَةِ.

وبَيْنا أَنا كَذَلِكَ، إِذْ اِنْفَرَجَتِ الطَّرِيقُ أَمامِي فَجْأَةً وعَنَّتْ لِي بَقَرَةٌ فاتِنَةٌ حَسْناءُ سَمِينَةٌ مُكْتَنِزَةٌ تَتْبَعُها ابْنَتُها. يالَها مِنْ رُؤْيا! بَقَرَةٌ فاتِنَةٌ تَتَبَخْتَرُ في مِشْيَتِها، تَخْطُو مُتامَيِسَةً. ما إِنْ وَقَعَ عَلَيْها بَصَرِي حَتَّى أَحْسَسْتُ قَلْبِي يَنْفَرِجُ شَطْرَيْنِ، يَتَّسِعُ ما بَيْنَ لَحْمَتَيْهِ، فَدَخَلَتْهُ تِلْكَ الْحُلْوَةُ واسْتَوَتْ بَيْنَ جُزْأَيْهِ.

[كانَتْ عَيْنا الْعَمِّ الْخَرُّوبِي تَلْمَعانِ بِشُعاعِ الْعاشِقِ وهُوَ يُحَدِّثُنِي عَنْ بَقَرَتِهِ تِلْكَ وقَدْ عَلَتْ مُحَيَّاهُ ابْتِسامَةٌ حَيِّيَةٌ وتَرَنَّمَتْ في صَوْتِهِ نَغْمَةٌ طَرِبَةٌ.]

ـ اِخْتَبَلَ لَها عَقْلِي وَوَدِدْتُ كَسْبَها مَهْماً كَلَّفَنِي الثَّمَنُ. ثُمَّ إِنَّ الْمُزايَدَةَ عَلَيْها بَدَأَتْ وانْطَلَقَ الْقَرَوِيُّونَ وأَهْلُ الْجِبالِ يَتَنافَسُونَ فِيها وانْبَرَيْتُ أَتَنافَسُ مَعَ الْمُتَنافِسِينَ مَعَ أَنَّ جَيْبِي خالٍ أَوْ يَكادُ. وكانَتْ عَيْنايَ لا تُفارِقانِ صاحِبَ الْبَقَرَةِ وهُوَ صَدِيقٌ قَدِيمٌ، أَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ أَنْ يَقْطَعَ الْمَزادَ لِصالِحِي. لَكِنَّهُ لَمْ يَنْتَبِهْ وانْفَضَّ الْجَمْعُ والْبَقَرَةُ مِنْ سَهْمِ غَيْرِي. مَهْماً لَوَّحْتُ أَوْ أَشَرْتُ، لَمْ أَنْفَعْ في تَرْجِيحِ الْكَفَّةِ لِصالِحِي.

حَزِنْتُ وانْتَفَخَ قَلْبِي وجَعَلْتُ أَعْذِلُ الْبائِعَ مُغْتَمّاً، فَتَعَلَّلَ بِأَنَّهُ لَمْ يَرَنِي. فَأَعْطَيْتُهُ بِالْقَفا لا أَقْبَلُ قِسْمَتِي وأَرْفُضُ الْبَيْعَ جُمْلَةً وقَدْ عَزَمْتُ عَلى فَكِّ بُنُودِهِ.

جَلَسْتُ عَلى قارِعَةِ الطَّرِيقِ أُفَكِّرُ مَتَأَسِّفاً، فَإِذا بِأَحَدِ مَعارِفِي مِنْ بِلادِ الْقَبائِلِ يَمْلِكُ قَطِيعاً ضَخْماً مِنْ بَقَرِ السُّوِيسِ الرَّائِعِ، ذِي الْبُقَعِ الْبَيْضاءِ

والسَّوْداءِ، يُرِيدُ أَنْ يَبِيعَنِي رَأْساً مِنْهُ، ضامِناً مُخْتَلِفَ التَّسْهِيلاتِ، إلاَّ أَنَّنِي أَنَخْتُ عَنْهُ وقَدْ رَكِبَ رَأْسِي الْمَشْهَدُ إِيَّاهُ، وما أَرْضَى سِوَى بِتِلْكَ الْمَبِيعَةِ. عَزَمْتُ على امْتِلاكِها رُغْمَ أَنْفِ الصَّفْقَةِ.

ـ تعالَ يا خُرُّوبِيّ! لا تَهْتَمَّ! لَيْسَ بَيْننا حِسابٌ ولا دَيْنٌ!

أَمَّا فَلا حَياةَ لِمَنْ تُنادِي!

أَبْصَرَ بِي بَعْضُ الْخِلاَّنِ وقَرَأَ على وَجْهِي سِيماتِ الْقَلَقِ والْحَسْرَةِ فَاسْتَطْلَعَنِي وما إِنْ أَفْضَيْتُ لَهُ بِمَكْنُونِ صَدْرِي حَتَّى فَتَحَ لِي صُرَّتَهُ أَغْتَرِفُ ما شِئْتُ مِنَ النُّقُود. فَاسْتَلَفْتُ مِنْها مِلْيُونَ دِينارٍ أَضَفْتُها إلى الأَرْبَعِمِئَةِ الّتِي كانَتْ مَعِي، ثُمَّ ترافَقْنا إلى مُشْتَرِي الْبَقَرَةِ فَأَلْفَيْناهُ مَعَ أَخِيهِ يَغْتَبِطانِ بَصَفْقَتِهِما. فَساوَمْتُهُ فِيها وزِدْتُهُ مِئَةَ دِينارٍ عَلَى الَّذِي صَرَفَهُ فَتَمَّ الاتِّفاقُ وقَطَعْنا شُرُوطَ الصَّكِّ وما إِلَيْها مِنْ تَقالِيدِ الأَسْواقِ لا تَعْرِفِينَها أَنْتِ.

فإذا كانَتْ لَيْلَةُ رَمَضانَ، الْيَوْمَ التَّالِيَ، تَدَبَّرْتُ ما تَبَقَّى مِنْ ثَمَنِ الْمَلِيحَةِ اقْتَرَضْتُهُ مِنْ بَعْضِ الأَحْبابِ والْجِيرَةِ وغَدَوْتُ إلى صاحِبِ الْبَقَرَةِ أُقايِضُهُ قُرَّةَ الْعَيْنِ. وما عَتَمْتُ أَنْ عُدْتُ بِها، أَجُرُّها بِرِفْقٍ، وهِيَ تَتَبَخْتَرُ في طَرَفِ الْحَبْلِ وابْنَتُها خَلْفَها تُحَرِّكُ دُبُرَها يَمْنَةً ويَسْرَةً في ظَرْفٍ، وأَنا أَتَهادَى مُنْتَعِشاً وقَدْ بَدَتْ لِي الدُّنْيا وَرْدِيَّةً زاهِيَةً.

[اِبْتَسَمَ الْعَمُّ الْخَرُّوبِيُّ ثُمَّ أَرْدَفَ بِحَياءٍ:]

لَنا، مَعْشَرَ الْفَلاَّحِينَ، عاداتٌ وطَبائِعُ ما تَعْرِفِينَها أَنْتِ... نُؤْمِنُ بِها وهِيَ دُسْتُورُنا.

دَخلَتِ الْبَقَرَةُ الدَّارَ بِقَدَمِها الْيُمْنَى فَهَرْوَلَتِ الْعَجُوزُ زَوْجِي فَرِحَةً بِها مُسْتَبْشِرَةً، تُلاقِيها عِنْدَ عَتَبَةِ الْبابِ قارِئَةً فِيها فَأْلَ خَيْرٍ.

وفِعْلاً، فَقَدْ أَبْقَيْتُ على تِلْكَ الأُسْرَةِ الصَّغِيرَةِ حَوْلاً كامِلاً لا أُخْرِجُها مِنَ الْبَيْتِ حِمايَةً لَها مِنَ الْحُسَّادِ. فَجَعَلْتُ أَكْلأُها عُشْباً أَغَضّاً آتِيها بِهِ مِنَ الْمَراعِي الْخَضْراءِ الْمُعْشَوْشِبَةِ، وأَسْقِيها أَعْذَبَ ماءٍ أَمْلأُهُ لَها مِنْ أَصْفَى نَبْعٍ زُلالٍ، والْبَقَرَةُ تَرُدُّ الإحْسانَ بِإِحْسانٍ مُضاعَفٍ، تُدِرُّ عَلَيَّ كُلَّ يَوْمٍ سِتّاً وعِشْرِينَ لِتْراً مِنَ الْحَلِيبِ.

[وكَأَنَّهُ لَمَحَ جَهْلِي ـ أَنا الْوافِدَةَ مِنَ الْمَدِينَةِ ـ فَتَفَوَّهَ وعَيْناهُ تَشِعّانِ بِبَرِيقِ الْفَخْرِ والاعْتِزازِ، تَحْتَ لِثامٍ وافٍ مِنَ التَّواضُعِ، مانِعاً عَلى صَوْتِهِ الْجَهْرَ فاسْتَدامَ رَتِيباً مُتَساوِياً لَوْلا الْبَسْمَةُ الْمُحْتَشِمَةُ تَكْشِفُ بَعْضَ حِجابٍ عَنْ بعْضِ ما فِي الْقَلْبِ:]

أَجَلْ! كُنْتُ أَحْلُبُ مِنَ الْبَقَرَةِ كُلَّ يَوْمٍ سِتّاً وعِشْرِينَ لِتْراً! إِنَّهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ واللهِ! ولَمْ تَكُنْ كَثافَةُ ذَلِكَ الْحَلِيبِ تَتَغَيَّرُ أَبداً مَهْماً مَزَجْناهُ بِالْماءِ أَوْ خَلَّيْناه. زُبْدَةٌ ودُهْنٌ كُلُّهُ ومَذاقٌ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ!... اِرْتَوى أَبْنائِي وأَحْفادِي وفِلْذاتُ كَبِدِي وبِعْنا مِنْهُ وغَنِمْنا فَاكْتَفَيْنا وفَضَّلْنا.

[وبِالصَّوْتِ الرَّتِيبِ ذاتِه، اِسْتَأْنَفَ:]

ـ دارَ الْحَوْلُ وأَخْرَجْتُ الْبَقَرَةَ إلى الْحَقْلِ وقَدْ تَوْأَمَتْ، وكَذَلِكَ عَشَّرَتْ ابْنَتُها وَوَضَعَتْ. وأَضْحَيْتُ، كُلَّما تَوَجَّهْتُ، إلى الْبَحْرَةِ، لَقِيَنِي ابْنُ عَمٍّ لِي تَحْتَرِقُ الأَرْضُ الّتِي تَمْشِي عَلَيْها رِجْلاهُ مِنْ حَسَدِهِ وبُغْضِ سَرِيرَتِهِ.

[ما رَأَيْتُ مَلامِحَ الْعَمِّ الْخَرُّوبِي تَكْفَهِرُّ قَبْلَ تِلْكَ الْمَرَّةِ قَطُّ، حَتَّى لَمَّا كانَ يَخْشَى عَلى ابْنِهِ الشُّرْطِيِّ أَنْ يُقْتَلَ في تِلْكَ الأَيَّامِ الْكالِحاتِ. أَمَّا تِلْكَ النَّوْبَةَ، فَقَدْ عَلاَ صَوْتُهُ واضْطَرَبَ، وانْكَسَرَ حاجِباهُ، ولَكِنَّها مُجَرَّدُ لَحْظَةٍ خاطِفَةٍ سُرْعانَ ما عَقِبَتْها رَتابَتُهُ الْمُدْهِشَةُ.]

لَقِيَني ابْنُ عَمِّي فَلانٌ وصارَ يَقُولُ:

ـ لَقَدِ اشْتَرَيْتَ، والله يا الْخَرُّوبِي، بَقَرَةً وتَوْأَمَتْ!

فَأَشَحْتُ عَنْهُ بِوَجْهِي ومِلْتُ على حَقْلِي أَفْلَحُهُ بِصَمْتٍ، فَلَقِيَني الْيَوْمَ التَّالِيَ وعاوَدَنِي:

ـ وَيْ وَيْ يا الْخَرُّوبِيّ! اِشْتَرَيْتَ بَقَرَةً وابْنَتَها ثُمَّ إنَّها تَوْأَمَتْ...

سَكَتُّ عَنْهُ وانْصَرَفْتُ أَعالِجُ شُتَيْلاتِي وأَتَعَهَّدُ نَباتاتِي، فَأَنْقُشُ أَرْضِي وأَرْعَى مَزْرُوعاتِي وكَأَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ. وكَمَا تَتَوَقَّعِينَ فَقَدْ لَقِيتُهُ نَوْبَةً ثالِثَةً فَلَمْ يَرْعَوِ وكَرَّرَها مَعِي قائِلاً:

ـ يا الْخَرُوبِّي هاهْ! اِشْتَرَيْتَ بَقَرَةً وتَوَأَمَتْ! وبَعْدُ لَها رِيخَةٌ[57] عَشَّرَتْ...

فَانْفَجَرْتُ في وَجْهِهِ صاخِباً وأَنَّبْتُهُ مُعَنِّفاً:

ـ أَما اسْتَحَيْتَ يا شَيْخَ السُّوءِ؟ تَحْسُدُونِي في بَقَرَةٍ وعُجُولِها! إنّما هِي مالٌ أَبْكَمُ يَعْلَفُ الْحَشِيشَ ويَجْتَرُّ الْقُرْطانَ وتَغْبِطُنِي فِيهِ! أما كَفَفْتَ عَنْ شُؤْمِكَ يا وَجْهَ الشُّؤْمِ؟

[57] عِجْلة، صَغيرة البقرة.

وما عَتَمْتُ أَنْ أَلْقَيْتُ الْمِعْوَلَ مِنْ يَدِي ضارِباً الأَرْضَ بِرِجْلِي حُنْقاً وقَفَلْتُ إلى بَيْتِي تَضْطَرِبُ أَحْشائِي اضْطِراباً، لا أُطِيقُ الْعَمَلَ وقَدِ انْتابَنِي خَوْفٌ أَعْجَزُ عَنْ تَحْدِيدِهِ.

وإنَّهُ كَما أَقُولُ لَكِ: ما انْصَرَمَتْ أَيَّامٌ بِعَدَدِ أَصابِعِ الْكَفَّيْنِ حَتَّى نَبَتَتْ لِبَقَرَتِي حَبَّةٌ تَحْتَ ذَقْنِها نُسَمِّيها نَحْنُ الْفَلاَّحَةَ "الْخِنْزِيرَ". أَنْتِ لا تَعْرِفِينَها طَبْعاً! [قالَها بِابْتِسامَةٍ رُؤُوفَةٍ مُنْتَهَى الرَّأْفَة]. وحَبَّةُ الْخِنْزِيرِ هَذِهِ، يَوْمَ تَنْبُتُ عَلى جِلْدِ الْحَيَوانِ لا تَضُرُّهُ في شَيْءٍ؛ إنَّما الْخَطَرُ عِنْدَما تَنْبُتُ داخِلَ اللَّحْمِ.

ولَقَدَ نَبَتَتْ لِحُلْوَتِي مِنَ الْخارِجِ فَلَمْ أَقْلَقْ عَلَيْها بَلْ عالَجْتُها فَخَفَّتْ بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ. إلاَّ أَنَّ الْخِنْزِيرَ عاوَدَتْها، وأَخَذَتْ تَتَفاقَمُ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى أَوْشَكَتْ أَنْ تُودِيَ بِها فَعَجَّلْتُ إلى بَيْعِها لَحْماً، الرِّطْلانِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ، واضْطُرِرْتُ إلى بَيْعِ صِغارِها أَيْضاً، إذا كُنْتُ لَمْ أَخْسَرْ ثَمَنَها فَقَدْ خَسِرْتُها هِيَ وكانَ ذَلِكَ في عَيْنِي مُصاباً جَلَلاً.

كانَتْ بَقَرَتِي أَجْمَلَ بَقَرَةٍ وأَرْوَعَها وأَبْهاها في كُلِّ قُرَى الْهِضابِ، ومِنْ هُنا إلى سَطِيفَ سائِراً دائِراً. ولَقَدْ كانَتْ كَرِيمَةً جَوَّادَةً. كَيْفَ لا وهِيَ هِبَةُ اللهِ في وَجْهِ فَقْرِي وعَوَزِي؟ إلاَّ أَنَّ عَيْنَ الْحَسُودِ أَخَذَتْها مِنِّي. إنَّ الْخِنْزِيرَ إذا نَبَتَتْ تَحْتَ ذَقْنِ الْحَيوانِ مِنَ الْخارِجِ لا تَقْتُلُ، ولَكِنَّها قَتَلَتْ بَقَرَتِي أَنا. قَتَلَها الْحَسَدُ الّذِي تَغَلْغَلَ في قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَشَوَّهَ سَرِيرَتَهُ وانْطَلَقَ كَالرَّصاصِ إلى قَلْبِ بَقَرَتِي أَرْداها. ورُغْمَ ذَلِكَ، فَالْحَمْدُ للهِ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ.

[وابْتَسَمَ الْعَمُّ الْخَرُّوبِيُّ بِحُنُوٍّ وحُزْنٍ مُسْتَسْلِماً لِقَضائهِ، راضِياً بِقَدَرِهِ كَمَا طَبِيعَةِ شَعْبِهِ الْبَسِيطِ.]

حمّام قَرْقُور في أَغسطس 1999م

فَضِيحَةٌ في الْـمَعْذَرِ

بُوسْعادَةُ مَدِينَةٌ صَحْراوِيَّةٌ مِنْ أَجْمَلِ مُدُنِ الْجَنُوبِ الْجَزائِرِيِّ وإِنَّ السُّيَّاحَ يَسْتَمْتِعُونَ بِمناظِرِها كَثِيراً.

ولَكِنَّ السَّائِحِينَ لا يَدْرُونَ بِما خارِجَ بُوسْعادَةَ مِنْ أَسْرارٍ. ولَوْ عَلِمُوا لَهَفَتْ إِلَيْها قُلُوبُهُمْ. ولَشَدُّوا إِلَيْها الرِّحالَ فَزارُوها. ولَرُبَّما أَيْضاً اتَّعَظُوا بِها فَغَيَّرَتْ سَبِيلَ حَياتِهِمْ.

أَمَّا أَنا فَأَدْرِي بَعْضاً مِنْ هَتِهِ الْمُودَعاتِ في رِمالِ بُوسْعادَةَ. على عِلْمٍ بِشَيْءٍ مِمَّا تُكِنُّهُ الْكُثْبانُ في أَحْوازِ بُوسْعادَةَ والصَّحْراءِ. في رُبُوعِ الْبَدْوِ الْهادِئِينَ. حَيْثُ السَّكِينَةُ. حَيْثُ بَعُدَتِ السَّماءُ عَنِ الأَرْضِ فَبانَتْ بَوْناً شاسِعاً. حَيْثُ نَزَلَتِ الشَّمْسُ فَلامَسَتْ خَصْلاتُ شَعْرِها الْحَضِيضَ. حَيْثُ أَحَبَّ الشَّاعِرُ أَنْ يُطْلِقَ عَقِيرَتَهُ بِشِعْرٍ مَلْحُونٍ يَهُزُّ الْوِجْدانَ. وحَيْثُ حَلاَ لِلْمُرابِطِ أَنْ يَضْرِبَ أَرْكانَ زاوِيَتِهِ فَيَبُثَّ في الطَّلَبَةِ الرُّحَّلِ كَلامَ الرَّحْمنِ.

غادَرْتُ بُوسْعادَةَ وتَوَجَّهْتُ إلى الْمَعْذَرِ. إِنَّها ضاحِيَةٌ بَعِيدَةٌ عَنِ الْمَدِينَةِ. تَرَى الدُّنْيا بِها كُلَّها خَضْراءَ يانِعَةً. قَدْ نَبَتَ العُشْبُ في كُلِّ مَكانٍ

مِنْ جوَانِبِها. وقَدْ هَبَّتْ بِها نَسائِمُ عَلِيلَةٌ عانَقَتْ أَرِيجَ النَّخْلِ فَأَنْعَشَتِ الْقُلُوبَ والأَنْفُسَ. وقَدْ غَرَّدَتْ بِها، على أَفْنانِ الْواحَةِ، عَصافِيرُ تَسَتَّرَتْ بِعَراجِينِ الْبَلَحِ مِنْ حَرِّ السَّمُومِ.

أَمَّا بُقْعَةٌ مِنْهُ فَمُحْتَرِقَةٌ جَرْداءُ لَمْ يَنْبُتْ بِها شَيْءٌ قَطُّ. يَبابٌ بَلْقَعٌ مَنْتُوفٌ فَهِيَ كَشامَةِ الْبَرَصِ في جَسَدِ الغادَةِ.

إِنَّ مَنْظَرَ تِلْكَ الْبُقْعَةِ يُرْهِبُ الْكائِنَ. وإِنَّ الزَّائِرَ لَيُحِسُّ عِنْدَهُ بِشُعُورٍ غامِضٍ، ثَقِيلٍ، مُعَبَّإٍ بِالْقَلَقِ والْحَيْرَةِ.

ولَوْ أَنَّ بَعْضَ الأَمْرِيكانِ أَطَلُّوا على الْمَعْذَرِ لَقالُوا إِنَّ كائِناتٍ مِنَ الْمِرِّيخِ حَطَّتْ سَفِينَتُهُنَّ الْفَضائِيَّةُ في ذَلِكَ الْمَكانِ مُنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ فَاحْتَرَقَتِ الْبُقْعَةُ مِنْ أَشِعَّةِ أَجْهِزَتِها الْوَهَّاجَةِ.

لَكِنَّ شُيُوخَ الْمُعْذَرِ يَتَداوَلُونَ، عَنْ عُرْيِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ الضَّاحِيَةِ وتَجَرُّدِها بِذَلِكَ الشَّكْلِ الْفاحِشِ، تَفْسِيراً مُخْتَلِفاً، جَمِيلاً وحَكِيماً. إِنَّهُ حِكايَةٌ عَجِيبَةٌ تَحْفَظُها الْخَواطِرُ الْمُتَشَوِّقَةُ إلى الأَساطِيرِ والأَحاجِي الأَجْيالَ تِلْوَ الأَجْيالِ.

لا غَرْوَ أَنَّ تَفْسِيرَ شُيُوخِ الْمَعْذَرِ دافِقٌ بِالاِسْتِقامَةِ والْمَوْعِظَةِ ومَلِيءٌ أَيْضاً بِالْعُجْبِ والرَّوْنَقِ على غِرارِ سُكَّانِ الْخِيامِ يَتَخَيَّرُونَ مَلِيحَ الْكَلامِ ويَنْظِمُونَ دُرَرَ الْمَعانِي في كُلِّ عَهْدٍ وصَوْبٍ.

يَقُولُ الْحُكَماءُ إِنَّ قَرْيَةً كانَتْ تَقْطُنُ بِالْمَعْذَرِ في الزَّمَنِ الْقَدِيمِ. وكانَ يُقِيمُ بَيْنَ أَهْلِها راعٍ يَعْتَنِي بِماشِيَةِ الأَعْرابِ. وكانَ لِذَلِكَ السَّارِحِ بَيْتٌ مُشَيَّدٌ في مَحَلِّ تِلْكَ الْبُقْعَةِ الْمُحْتَرِقَةِ بِالضَّبْطِ.

ثُمَّ إِنَّهُ زَوَّجَ ابْنَهُ. وأَقامَ لَهُ عُرساً جَميلاً لَمْ يُعَوِّدِ الرُّعاةُ النَّاسَ على مِثْلِهِ. وحَضَرَ جَميعُ أَهْلِ الدُّوَّارِ فَتَعَشَّوْا وامْتَلأَتْ أَعْيُنُهُمْ وبُطُونُهُمْ بِخَيْراتِ الْمَأْدُبَةِ حَتَّى إِنَّهُ خُيِّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مَدْعُوُّونَ إِلى زَفافِ بَعْضِ الشُّيُوخِ أَوِ الْقُوَّادِ ولَيْسَ إِلى وَلِيمَةِ سارِحِهِمْ... تَحَيَّرَ السَّاداتُ في الْقِيانِ وتاهَتِ الْعُقُولُ والأَبْصارُ.

وفي الْمَساءِ، وقَدِ انْقَضَتِ الْمَأْدُبَةُ، دَخَلَ الْعَرِيسُ على عَرُوسِهِ فَأَبَتْ عَلَيْها نَفْسُهُ ورَفَضَ الدُّخُولَ بِها ثُمَّ كَرِهَ أَنْ يَتِمَّ الزَّواجُ بَيْنَهُما فَنَدَرَ إِلى أَبِيهِ وأَخْبَرَهُ بِالأَمْرِ.

حاوَلَ الْوَالِدُ أَنْ يُطَيِّبَ خاطِرَهُ مَلِيّاً. وكَذَلِكَ أُمُّهُ. ولَكِنَّهُما أَخْفَقا وصَمَّمَ فَتاهُما على التَّخَلِّي عَنِ الْعَذْراءِ في خِدْرِها.

بُهِتَ الرَّاعِي وقَدْ أُخِذَ على غِرَّةٍ. وأَطْرَقَ لَماماً ثُمَّ أَعْلَنَ:

ـ أَمَّا وأَنَّنِي صَرَفْتُ تِلْكَ الأَمْوالَ كُلَّها فَلَنْ تَضِيعَ أَبَداً أَدْراجَ رِياحٍ. وإِنْ أَنْتَ قَدْ زُغْتَ عَنِ الصَّوابِ فَلأَتَزَوَّجَنَّ أَنا الْبِنْتَ.

ثُمَّ إِنَّهُ دَخَلَ بِالْفَتاةِ عِوَضاً عَنِ ابْنِهِ...

يَقُولُ كِبارُ الْقَوْمِ: وقامَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ في الصَّباحِ. وعَلِمُوا بِفَعْلَةِ الرَّاعِي. فَما كانَ مِنْهُمْ سِوَى أَنْ تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ وطَرَدُوهُ مِنْ دَشْرَتِهِمْ في الْحالِ فَجَمَعَ أَشْياءَهُ وأَهْلَهُ وغادَرَ الْمَكانَ سَرِيعاً إِلى حَيْثُ لا يَدْرِي أَحَدٌ وقَدْ ضاعَ خَبَرُهُ بَيْنَ الْكُثْبانِ.

أَمَّا فإنَّ النَّبَأَ ظَلَّ مُشاعاً بَيْنَ أَجْيالِ الْمَعْذَرِ. تتَوَارَثُهُ أَخْلافٌ عَنْ أَسْلافٍ إذْ لَبِثَ مَوْضِعُ الدَّارِ مُحْتَرِقاً، عارِياً، لا تَنْبُتُ بِهِ الأَعْشابُ أَبَداً ولا يَخْضَرُّ لَوْنُهُ الْبَتَّةَ.

فَاسْتَخْلَصَ كُبَراءُ الْمَعْذَرِ أَنَّ اللهَ مَسَخَهُ ومَسَخَ مَوْضِعَهُ حَتَّى لا يَبْقَى لِفَعْلَتِهِ النَّكْراءِ جِذْرٌ تَنْبُتُ لَهُ أَعْرافٌ بَعْدَ ذَلِكَ تُلَوِّثُ الْمَكانَ فَسُبْحانَ اللهِ مُرْشِدِ الْعاقِلِينَ.

(باريس، 1999م)

السَّكْرانُ

الْوَقْتُ زَوَالٌ، والْيَوْمُ جُمُعَة، والصَّمْتُ رَهِيبٌ مَخِيفٌ يُخَيِّمُ على مَدِينَةِ الْجَزَائِرِ العاصِمَة. تَرْفَعُ بَصَرَكَ إلى سَمَائِها الزَّرْقاءِ فَتُلْفِيها صافِيَةً مَجْلُوَّةً لا أَثَرَ لأَدْنَى سَحابَةٍ في ثَوْبِها الْفَضْفاضِ مَهْماً حَدَّقْتَ سائِراً دائِراً في قُبَّتِها الْمُتَعالِيَة.

ومَعَ ذَلِكَ فَالْهَوَاءُ ثَقِيلٌ تَتَنَفَّسُهُ العِبادُ بِصُعُوبَةٍ حَتَّى إنَّ الطُّيُورَ أَمْسَكَتْ عَنْ شَدْوِها الْجَمِيلِ في أَشْجارِ السَّرْوِ وغرائِسِ النَّخِيلِ الْمُنْتَشِرَةِ بَيْنَ أَرْجاءِ "الْبَهْجَة"، وانْسَحَبَتِ الْقِطَطُ والْكِلابُ إلى حَيْثُ صادَفَتْ أَوْكاراً تَلْجَأُ إلَيْها، ولأَوَّلِ مَرَّةٍ في التَّارِيخِ، تَجاوَرَ الْعَدُوَّانِ الأَبَدِيَّانِ والْتَصَقَ جَسَدُ أَحَدِهِما بِفَرْوِ الآخَرِ، يَحْتَمِيانِ مِنْ أَمْرٍ ما على أُهْبَةِ الْحُدُوثِ.

إنَّ قَلَقاً مُرِيباً تَفَشَّى في الْقُلُوبِ والأَفْئِدَةِ وشَعَرَ كُلُّ عاصِمِيٍّ أَنَّ هاذاكَ الْيَوْمَ قَدْ شَذَّ عَنْ إخَوانِهِ الّذِينَ سَبَقُوهُ إلى الْفَوْتِ، وتَمَنَّى لَوْ يَنْقَضِي هَذا الْفَظِيعُ بِسُرْعَةٍ ويَنْقَلِبُ إلى ماضٍ.

ولَوْ أَنَّ النَّهارَ نهارُ حُرْمَةٍ وقُدُسِيَّةٍ، على أَنَّهُ بَدَا نَذِيرَ شَؤْمٍ وطَالِعَ سُوءٍ فَضاقَتِ الْخَوَاطِرُ. وما كانَ مِنَ الْكُثيرِ سِوَى أَنْ قَصَدُوا بُيُوتَ الرَّحْمَنِ زَرَافاتٍ وَزُمَراً، يلْتَمِسُونَ بَيْنَ أَرْوِقَتِهِ الطَّوِيلَةِ حِصْناً، وبَيْنَ عَرَصاتِهِ العالِيَةِ فُسْحَةً لِصُدُورِهِمُ الْمُنْقَبِضَةِ، ويَأْرَبُونَ في كَلِماتِ رَبِّهِمْ بَعْضَ أَمَلٍ، بَعْضَ نَصْرٍ مُؤَزَّرٍ على جَحافِلِ الأَهْوَالِ الّتي أَضْحَوْا يَتَشَوَّفُونَها في مِرْآةِ الآفاقِ، تَرْتَسِمُ في فَجَواتِ عَيُونِهِمْ الشَّفَّافة، فَما بَقِيَتْ لَهُمْ مِنْ غايَةٍ سِوَى الاعْتِصامِ بِحِمَى الْوَاحِدِ الأَوْحَدِ، صانِعِ الْغَيْبِ وصائغِ الْقَدَرِ، عَسَى أَنْ يُمِيتَ رائدَ الشُّؤْمِ في مَهْدِهِ؛ وباتَ أَكِيداً لَدَيْهِم، ذِي السَّاعَةَ، أَنَّ الشَّياطِينَ قَدْ أَحْدَقَتْ بِهِمْ تَبُثُّهُمْ وَساوِسَها فَاقْشَعَرُّوا في انْتِفاضَةٍ واحِدَةٍ، وأَعْمِدَةَ الْمَساجِدِ عانَقُوا في ضَمَّةِ احْتِماءٍ.

اِحْتَشَدَ مَسْجِدُ "كابُلَ" في حَيِّ "بَلْوِزْدادَ" كَعادتِهِ وزادَ. وتراصَّتِ النَّاسُ تَسُفُّ إِرْشادَ الإمامِ سَفّاً، تَبْتَلِعُ مِنْ جَوْفِهِ الْكَلِماتِ قَبْلَ أَنْ تَرْتَسِمَ على شَفَتَيْهِ. في تِلْكَ الأَثْناءِ، وقُبالَةَ بَيْتِ اللهِ، جَلَسَ مُتَشَرِّدٌ سِكِّيرٌ لَمْ يَسْتَحِ مِنْ حُرْمَةِ الْمَكانِ؛ جَلَسَ أَرْضاً قُبالَةَ الْجامِعِ وأَخَذَ يَحْتَسِي زُجاجَةَ خَمْرٍ، دَمِ سَبُعٍ[58]، بَيْنَا صَوْتُ الْوَاعِظِ يَبْلُغُهُ جَرْسُهُ فَلاَ يُحَرِّكُ فِيهِ شَعْرَةً ولا يَعْنِيهِ بِشَيْءٍ أَوْ هَكَذا بَدا...

فَجْأَةً، تَمَلْمَلَتِ الأَرْضُ بما حَمَلَتْ وأَنْذَرَتْ بِالأَمْرِ الْخَطِيرِ. وضَرَبَ غَرْبَ الْجَزَائِرِ زِلْزَالٌ هائلٌ ساحَتْ مَوْجاتُهُ عَلى بِضْعَةِ أَمْيالٍ فَلامَسَتِ

---

[58] يُكَنِّي مُتَعاطُو الْخَمْرِ الْعاصِمِيُّونَ النَّبِيذَ: "دَمَ السَّبُع".

"الْبَيْضاءَ مَدِينَةَ الطُّيُور"[59]. فَانْسابَتِ الطُّرُقاتُ مُتَراقِصَةً كَحَيَّاتِ الأَدْغالِ تَفِرُّ مِنْ خَطَرٍ داهِمٍ، وتَمايَلَتِ الْمَبانِي والعِماراتُ مُهْتَزَّةً تَتَهَدَّدُ الْمارَّةَ الْفَزِعِينَ لَتُهَرِّسَنَّ رُؤُوسَهُمْ ولَتَدْفِنَنَّهُمْ أَحْياءً. وإنْ هُمْ تَحاشَوْها إلى الْهَواءِ الطَّلْقِ، هارِبِينَ مِنْ تَمَلْمُلِها، فإنَّ الأَرْضَ حَلَفَتْ لَتَخْسِفَنَّهُمْ كَما خسَفَتْ ذاتَ يَوْمٍ قارُونَ وأَتْباعَهُ، وصارَتْ أَحْشاؤُها تَنْفَتِحُ لِلأَنامِ يُشاهِدُونَها بِأَعْيُنٍ جاحِظَةٍ مَذْعُورَة، وبانَتْ أَلْسِنَتُها الْمُتَعَدِّدَةُ حمْراءَ بِلَوْنِ النِّيرانِ الْمُلْتَهِبَةِ في جَوْفِها، مُتَعَطِّشَةً إلى ابْتِلاعِ الْخَلْقِ كَما يُبْتَلَعُ الْمَشْطُورُ بَيْنَ قِطْعَتَيْهِ شَرائِحُ اللَّحْمِ. وخُيِّلَ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ يَعِيشُونَ مُباشَرَةً فِيلْماً مِنْ أَفْلامِ هُولِيوُودَ حَيْثُ تُفِيقُ عَناصِرُ الطَّبِيعَةِ تَتَوَعَّدُ أَبْناءَ آدَمَ حانِقَةً عَلَيْهِ، أَوْ لَعَلَّهُمْ في كابُوسٍ كاذِبٍ سَيَنْتَبِهُون مِنْهُ قَرِيباً.

في مَسْجِدِ "كابُلَ"، في حَيِّ "بَلْوِزْدادَ"، فَزِعَتِ النَّاسُ وسَيْطَرَ عَلَيْها الرُّعْبُ فَأَخَذَ بَعْضُها بِتَلابِيبِ بَعْضٍ وجَعَلُوا يَدُوسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِالأَقْدام. أَقْوَاهُمْ يَرْفِسُ أَضْعَفَهُمْ، وأَصْغَرُهُمْ يَطَأُ أَكْبَرَهُمْ. ولَحْظَةَ ابْتَغَى الْمُؤْمِنُونَ الْفِرارَ مِنَ الْمَوْتِ، قَبَضَتْ أَنامِلُهُ على جَمْعٍ غَفِيرٍ مِنَ الشُّيُوخِ والصِّبْيانِ عَفْساً واخْتِناقاً وسَكْتاتٍ قَلْبِيَّةً.

إنَّ الْمَوْتَ، إذا مَثُلَ لِقَوْمٍ، لَمْ يُبْقِ في قَلْبِ أَحَدٍ رَحْمَةً على أَحَدٍ، بَلْ وغَدَا كُلٌّ يُسابِقُ ظِلَّهُ، يَبْغِي تُخُومَ الْفَرَجِ يَنْفُذُ مِنْها إلى بَرِّ النَّجاةِ ولَوْ كَلَّفَ ذَلِكَ مَوْتَ الأُمَّةِ جَمِيعِها!...

[59] لقبان للجزائر العاصمة.

وصارَ النَّاظِرُ إلى مَسْجِدِ "كابُلَ" يرَى الْخَلْقَ يتَرامَى مِنَ النَّوَافِذِ والشَّبابِيكِ، بَيْنَما مَوْجاتٌ بَشَرِيَّةٌ تتَضايَقُ عِنْدَ مخارِجِ الْجامِعِ. كُلُّهُمْ قَطِيعٌ مِنَ الْهَوامِّ انْطَلَقَتْ تَرْكُضُ في أَدْغالِ إفْرِيقِيا، نافِرَةً مِنَ اللَّيْثِ يَعْدُو في أَعْقابِها لافْتِراسِها، فَخَمَشَتِ الأَرْضَ بِأَظْلافِها كَما النَّادِبَةِ تَخْمِشُ خَدَّيْها بِأَظافِرِها، وضَرَبَتِ النَّقْعَ بِسَنابِكِها تَهُزُّهُ في الْهَوَاءِ هَزّاً كَمَا عفارِيتَ مُرْعِبَةٍ تَبَدَّتْ في بِلادِ السَّرابِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ يَعْتَرِضُ سَبِيلَها.

تَطَلَّعَ فِيها السِّكِّيرُ لَحْظَةً، تَطَلَّعَ بُرْهَةً فِي حُشُودِها تَتَماوَجُ وفي أَجْداثِها تَهْوِي إلى حَضِيضٍ كأَنَّما دُمَى خِرَقٍ، ثُمَّ خاطَبَها بَيْنَ جَرْعَتَيْنِ بِهُدُوءٍ مُزْعِجٍ:

- إلى أَيْنَ تَهْرُبُونَ؟... أَتَفِرُّونَ مِنْ رَبِّكُمْ؟... بَلْ اُقْعُدُوا وشَهِّدُوا "لا إلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ"!...

الْـحَيَّةُ في اللَّحْدِ[60]

دَخَلَ الْعَمُّ السَّعِيدُ على جارَتِهِ الْعَجوزِ يَرْتَعِشُ كَوَرَقَةِ الْخَرِيفِ في الْغُصْنِ الْيابِسِ. إنَّهُ قافِلٌ يُهَرْوِلُ مِنْ مَقْبَرَةِ "الْعالِيَةِ" ولَقَدْ رَأَى فِيها شَيْئاً مَهُولاً!...

ـ أَنْصِتِي يا حاجَّةُ واسْتَعِيذِي رَبَّكِ! إنَّها الآخِرَةُ قَدْ بَرَزَتْ لَنا مَعالِمُها بِلا شَكٍّ. إنَّ الْحُمَّى رَكِبَتْ عِظامِي ومَفاصِلِي لِهَوْلِ ما رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ.

ـ خَيْرٌ عَمُّ السَّعِيدُ... هَوِّنْ عَلَيْكَ... ما الَّذي رَأَيْتَهُ؟

ـ أنا عائِدٌ لِتُوِّي مِنْ جَبَّانَةِ "الْعالِيَة"[61]. وكُنْتُ مَعَ جَمْعٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ نَدْفِنُ امْرَأَةً جاؤُوا بِنَعْشِها مِنْ فِرَنْسا.

الْعَمُّ السَّعِيدُ رَجُلٌ مِنْ جِبالِ جُرْجُرَةَ، قَصِيرٌ أَصْهَبُ، وَجْهُهُ مُسْتَدِيرٌ وأَحْمَرُ، ذاهِبٌ إلى الشَّيْخُوخَةِ، صادِقُ التَّدَيُّنِ، مُتَبَتِّلٌ مُتَواضِعٌ في

---

[60] رواها العمّ السّعيد لجدّتي وكررتها زوجه على مسمعي.

[61] مقبرة مهمّة في ضاحية من ضواحي الجزائر العاصمة، بها قبر الأمير عبد القادر الجزائري والأمير محمّد المقراني وغيرهما من عظماء الجزائر.

تَعَبُّدِهِ، غَنِمَ صِيتاً طَيِّباً عِنْدَ جِيرانِهِ في حَيِّ "الْمَدَنِيَّةِ"[62]، واشْتُهِرَ بِالْعَفافِ والصِّدْقِ والاِسْتِقامَةِ.

ـ صَلَّيْنا عَلَيْها الْجَنازَةَ وعِنْدَما هَمَمْنا بِإِيداعِها الْقَبْرَ، أَلْفَيْنا في الْحُفْرَةِ حَيَّةً عَظِيمَةً ما شاهَدْنا أَفْظَعَ مِنْها ولا دَرَيْنا مَوْضِعَ جُحْرِها ولا كَيْفَ نَدَرَتْ عَلَيْنا مِنْهُ... ما كأَوْشَكْنا نُبْصِرُ بِالْحَيَّةِ الْمُرَوِّعَةِ حَتَّى فَرَرْنا جَمِيعاً وناديْنا على حَفَّارِ الْقُبُورِ يُخَلِّصنا مِنْها بِفَأْسِهِ فَنَرْدِمَ الْمِسْكِينَةَ ونَنْصَرِفَ.

أَكَبَّ حَفَّارُ الْقُبُورِ على السِّرْدابِ رافِعاً فَأْسَهُ عالِياً فَوْقَ هامَتِهِ، يُرِيدُ أَنْ يَهْوِيَ عَلى الأَفْعَى يَقْسِمُها شَطْرَيْنِ كَما يَهْوِي السَّيَّافُ عَلى فَرِيسَتِهِ يَفْصِلُ رَأْسَها عَنْ جُثَّتِها. ولَكِنَّ الْحَفَّارَ لَمْ يَرَ في اللَّحْدِ شَيْئاً ولا نَحْنُ رَأَيْنا؛ وكادَ الْمِسْكِينُ يَتَدَحْرَجُ بِطُولِهِ في الْحُفْرَةِ مِنْ فَرْطِ الانْفِعالِ...

ـ ما دَهاكُمْ جَمِيعَكُمْ؟ أَتَخَيَّلْتُمْ أَمْ هُوَ بَدَا لَكُمْ؟ فُضُّوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ واخْلُصُوا وخَلُّوا تُرَّهاتِ ذَوَاتِكُمْ جانِباً وانْفِذُوا بِجُلُودِكُمْ مِنْ هَذا الْجَحِيمِ الّذي كُتِبَ عَلَيَّ أَنْ أَقْضِيَ فِيهِ أَيَّامَ شَبابِي.

خَجِلَ أَكْثَرُنا مِنْ نَفْسِهِ، وقَدْ بَدَتْ لَهُ في مِرْآةِ الْحَفَّارِ غِرَّةً صَبِيَّةً لَمْ تَرْشُدْ بَعْدُ. وبِبَسَماتٍ بَلِيدَةٍ تَناوَلْنا النَّعْشَ مِنْ جَدِيدٍ وقَصَدْنا وَضْعَهُ مَثْوَاهُ الأَخِيرَ وإِذا بِالْحَيَّةِ تَظْهَرُ كَشَأْنِها أَوَّلَ مَرَّةٍ مُهَدِّدَةً مُخِيفَةً، لا تُبْدِي عَلاماتِ الأُنْسِ أَوْ الْمُسالَمَة. فَدَعَوْنا الْحَفَّارَ كَرَّةً أُخْرَى وغابَتِ الْحَيَّةُ كَما بِحَرَكَةٍ سِحْرِيَّةٍ تَسْخَرُ مِنَّا وكَذَلِكَ دَوَالَيْكِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ...

---

[62] حيّ شعبيّ في الجزائر العاصمة.

أَدْرَكْنَا أَنَّ في الأَمْرِ عَلامَةً رَبَّانِيَةً تَنُمُّ على أَنَّ الْمَرْأَةَ لَمْ تَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ، وأَنَّ عَذابَها إِنَّما شَرَعَ تَحْتَ أَعْيُنِنا. أَجْفَلْنا مِنْها وفَكَّرْنا في تَرْكِ الْجُثَّةِ قُرْبَ قَبْرِها فَالْهُروبِ إلى حَيْثُ نَتَناسَى الْمَنْظَرَ الرَّهِيبَ.

وكانَتْ شَفَتَا الْعَمِّ السَّعِيدِ تَرْتَعِشانِ فَرَقاً، مَعَ أَنَّ الرَّجُلَ كَثِيرُ الصَّلاةِ، كَثِيرُ الْعِبادَةِ، ولَعَلَّ ذَلِكَ ما أَفْزَعَهُ، لأَنَّ عَقْلَهُ الْبَسِيطَ وقَلْبَهُ الطَّاهِرَ لَمْ يَسْتَوْعِبا انْتِصابَ الْحَيَّةِ بَيْنَ الْمَخْلُوقَةِ والدَّارِ الآخِرَة... ما عَسَى أَنْ تَكُونَ قَدِ اقْتَرَفَتْهُ؟

ـ هَمَمْنا بِالْفِرارِ إذا لَوْلا شَيْءٌ مِنْ صَبْرٍ لَمَمْناهُ مِنْ أَعْماقِ أَنْفُسِنا، كُلُّ مِنَّا يَسْتَحِثُّ أَخاهُ عَلى التَّجَلُّدِ، وكَرَّرْنا الْمُحاوَلَةَ لِلْمَرَّةِ كَذا نُلِحُّ في إِتْمامِ الَّذي مِنْ أَجْلِهِ جِئْنا وقَدِ اسْتَحْيَيْنا مِنْ تَرْكِ الْمَرْأَةِ مُلْقاةً عَلى قارِعَةِ الطَّرِيقِ كَبَعْضِ الْقُمامَةِ. ثُمَّ إِنَّ هاجِساً كانَ يَدْسُرُنا على رَدْمِها لأَنَّ ما يُثْقِلُ ضَمِيرَها الْمَيِّتَ سِرٌّ مُغَيَّبٌ بَيْنَها وبَيْنَ رَبِّها، ما يَنْبَغِي أَنْ يُكْشَفَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ لِلْعِيانِ وَسَطَ الأَحْراشِ يَتَفَرَّجُ عَلَيْهِ الرَّائِحُ والْجائِي. وتَشَبَّثَ كُلٌّ مِنَّا بِزاوِيَةٍ مِنَ الْقُماشِ الَّذي صارَ لَنَا خَلاصاً وهاوِيَةً لِلْمَرْأَةِ، وعَوَّلْنا عَلى تَسْلِيمِها الضَّامِرَ وكَأَنَّ عَزِيمَتَنا أَخافَتْ أَشْياءَ الْغَيْبِ فإِذا الْحَيَّةُ قَدِ انْدَثَرَتْ وامَّسَحَ أَثَرُها كَما لَوْ لَمْ تَكُنْ قَطُّ...

تَفْهَمِينَ يا حاجَّةُ أَنَّ الظَّرْفَ لَمْ يَكُنْ مُواتِياً لِلتَّساؤُلاتِ، وأَنَّ أَحَداً مِنَّا لَمْ يَكُنْ يَنْوِي التَّفْتِيشَ عَنِ الْمُتَطَفِّلَةِ الرَّهِيبَةِ يَتَحادَثُ مَعَها في شَأْنِ لُعْبَةِ الْغُمَّيْضَةِ الَّتي دَعَتْنا إِلَيْها، بَلْ وإِنَّ مُعْظَمَنا شَعَرَ بِراحَةٍ نِسْبِيَّةٍ بِأَنْ نَسِيَتْنا لَماماً وخَلَّتْ ما بَيْنَنا وبَيْنَ أَيْدِينا مِنْ مَهَمَّةٍ نُوفِي أُصُولَها. ثُمَّ إِنَّا

أَقْلَعْنا أَكْتَعُونَ مِنَ الْمَقْبَرَةِ مُوَلِّينَ كَسَرابِ الْحَمامِ يُزْجَرُ إلاَّ أَنَّ الْحَمامَ، في حالَتِنا، هُوَ الْمُتَطَيِّرُ شُؤْماً.

عافانا اللّهُ وإيَّاكِ يا حاجَّةُ مِنْ سُوءِ الْعاقِبَةِ وفَضْحِ السُّمْعَةِ، وأَماتَنا مِيتَةَ الكِرامِ في السِّتْرِ، آمِينْ يا رَبَّ الْعالَمِينْ.

الحيّةُ في رَمَضان[63]

كُنْتُ في شَبابِي ـ حَكَى الْعَمُّ السَّعِيدُ ـ أعْمَلُ في فِرَنْسا. وكُنْتُ فَتًى يافِعاً جَميلاً. حَضَرَنا سَيِّدُنا رَمَضانُ فَأَصْبَحْنا صائِمِينَ. ولَمْ يَكُنْ عِنْدِي، يَوْمَئِذٍ في غُرْبَتِي، زَوْجٌ ولا أَهْلٌ. تَوَسَّدْتُ ذِراعِي تَحْتَ شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ، في بَعْضِ الأَحْرَاشِ الْعالِيَةِ الْحَشائِشِ، الْمُتَشابِكَةِ الأَعْشابِ، أَطْلُبُ غَفْوَةً مُرَقِّعَةً رَيْثَما يُطْلِقِ الْفُطُورُ سَرَاحَنا.

وأنا كذلِكَ بَيْنَ الصَّحْوَةِ والرَّقْدَةِ، مُتَثاقِلٌ مُتَراخٍ، أَنامُ نَوْمَةَ الثَّعْلَبِ، أُغْمِضُ عَيْناً وأَفْتَحُ أُخْرَى، إذا بِي وجارَةٍ فِرَنْسِيَّةٍ، صَبِيَّةٍ عَزْباءَ، مُمْتَلِئَةِ الْجِسْمِ، تَحْصُدُ الأَحْراشَ بِأَيْدِيها، تَقْطَعُ النَّباتاتِ بِمَخالِبِها، تَبْغِينِي وقَدْ عَلا جَبِينَها مِثْلُ الْوَهَجِ، فَأَوْجَسْتُ مِنْها شَرّاً...

لَمَحْتُ فِي عَيْنَيْها شُعْلَةَ الْبَغْيِ، وقَرَأْتُ في السُّطُورِ الّتِي ارْتَسَمَتْ بَيْنَ مُقْلَتَيْها ومَوْلِدِ حاجِبَيْها أَماراتِ الْفُحْشِ والْمُنْكَرِ، وأَدْرَكْتُ أَنَّ الْمَرْأَةَ

---

[63] برواية أمِّ السَّعد، عن زوجها العمِّ السَّعيد.

تَهُمُّ بِي والْعِياذُ بِالله... يا أَللهُ! أَمْ كَيْفَ يَمْضِي ذَلِكَ وسَيِّدُنا رَمَضانُ في ضِيافَتِي أَنا الْمُسْلِمَ؟

أَقْبَلَتِ الْمَجْنُونَةُ وابْتِسامَةٌ ماكِرَةٌ تَخُطُّ شَفَتَيْها... ولُعابٌ راغٍ يَتَقاطَرُ مِنْ شِدْقَيْها، وقَدْ عَوَّلَتْ عَلَيَّ وعَزَمَتْ على تَنْفِيذِ ما صَوَّرَ لَها الشَّيْطانُ فَذَهَبَ رُشْدِي بِما سَوَّلَتْهُ لَهُ نَفْسُها.

حَمْداً للهِ أَنْ لَحظاتُ الدَّهْشَةِ لَمْ يَدُمْنَ طَوِيلاً وإذا بِي أَصْرُخُ مُتَلَجْلِجاً:

ـ لا يا مَدامْ[64] ! لا يا مَدامْ! حَرام... حَرام! إنَّ هذا لا يَجُوزُ... ثُمَّ إنِّي صائِمٌ!

ولَكِنَّ الشَّيْطانَةَ طَفِقَتْ تَضْحَكُ ضَحِكاً يَتَرَدَّدُ في ارْتِفاعٍ كَأَنَّهُ قَهْقَهَةُ الْمارِدِ الّذي سَكَنَها، قَهْقَهَةٌ أَصَمَّتْ أُذُنَيْها وفُؤادَها فَلَمْ تُصْمِ كَلِماتِي مِنْ سَرِيرَتِها مُضْغَةً، واسْتَمَرَّتْ تَتَقَدَّمُ نَحْوِي، مُكَرِّرَةً في غَنَجٍ:

ـ هَيَّا!... هَيَّا!...

وأنا كَذَلِكَ بَيْنَ الْوَجَلِ والْحَيْرَةِ، إذا بِحَيَّةٍ هائلَةٍ تَخْرُجُ مِنْ حَيْثُ لا نَدْرِي تَقْطَعُ عَنْها السَّبِيلَ، تَبْغِي أَنْ تَهِجَّ فيها كَيْ تَمْنَعَنِي مِنْ كَيْدِها.

الْتَمَسَتِ الْمَرْأَةُ النَّجاةَ، وحاوَلَتِ الإفْلاتَ ذاتَ الْيَمِينِ وذاتَ الْيَسارِ، ولَكِنَّ الْحَيَّةَ أَبداً مُنْتَصِبَةٌ في وَجْهِها، فَبَلَغَ مِنْها الْهَلَعُ مَبْلَغَهُ وطَفِقَتْ تَصْرُخُ بَلْ تُوَلْوِلُ وأَنا أُرَدِّدُ كَأَنِّي مَجْذُوبٌ يَهْتَزُ:

---

[64] سيّدتي: Madame

ـ لا يا سَيِّدَتِي... أَنا صائمٌ... هذا رَمَضانُ... لَيْسَ مِثْلُ هذا في شَهْرِ الْقُدُسِيَّةِ والطَّهارَةِ!...

هلْ بَلَغَتْها كَلِماتِي؟... هل سَمِعَتْ مِنْها شَيْئاً؟... اللهُ أَعْلَمُ... إنَّما ظَلَّتْ تُعارِكُ تِلْكَ الْحَيَّةَ الْعَجِيبَةَ، تَرْقُصانِ بَعْضاً مِنْ تِلْكَ الرَّقْصاتِ الْمُضْطَرِبَةِ الّتي وَفَدَتْ عَلَيْنا الْيَوْمَ مِنَ الْغَرْب.

كانَتْ تَصْرُخُ:

ـ يا سَعِيد!... يا سَعِيدُ!

لَمْ أُبالِ... لَمْ أَكْتَرِثْ... تَرَكْتُها وقَفَلْتُ إلى عُشَّتِي الضَّيِّقَة... وفي بَعْضِ تِلْكَ الطَّرِيقِ، اِبْتَعْتُ لِي رِطْلَيْ بَطاطا وشَرِيحَةَ لَحْمٍ ثُمَّ طَهَوْتُ لِي "جَوَازاً"[65] لَذِيذاً أَفْطَرْتُ عَلَيْهِ، داعِياً رَبِّي أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنِّي.

الْغَداةَ، أَقْبَلَ بَعْضُ الْجِيرانِ يُخْبِرُنِي أَنَّ تِلْكَ اللاَّهِيَةَ مُلْقاةٌ في الْمُسْتَشْفَى، تَصْطَكُّ فَرائصُها فَرِيسَةَ الْحُمَّى، مِنْ رَوْعِ حَنَشٍ عَظِيمٍ بَدَا لَها في الْمَزْرَعَةِ...

الجزائر العاصمة، في 10 يوليه 1999م

---

[65] كلُّ ما طُهِيَ بِخضر ولحم ومرق.

الأَرْضُ الطَّهُورُ[66]

كأنّ مِثلَ هَتِهِ الْحِكاياتِ لا تَحْدُثُ إلاَّ لِلْعَمِّ السَّعِيدِ!... هاهُو ذا يَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى مِنَ الْجَبَّانَةِ وقَدْ فَزِعَ أَشَدَّ الْفَزَعِ. وإنَّهُ قالَ لِجارَتِهِ الْعَجُوزِ:

ـ يا حاجَّةُ! يا عَجُوزَ الْخَيْرِ! اُدْعِي رَبَّكِ يُكْرِمْنا خَيْراً في الدُّنْيا والآخِرَة. إنَّ نَوَامِيسَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ قَدْ بَانَتْ... اِسْمَعِي! إنَّ الّذِي رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ أَفْظَعُ وأَشَدُّ هَوْلاً مِنْ هاذِيكَ الْمَرَّةِ!

ومَسَحَ الْعَمُّ السَّعِيدُ بِكَفِّ يُمْناهُ الْعرَقَ الْمُتَصَبِّبَ مِنْ جَبِينِهِ ثُمَّ، بِصَوْتٍ مُرْتَعِشِ النَّبَراتِ وجَسَدٍ تَنُوسُ شُطُوفُهُ جَمِيعُها كَأَنَّهُ فَراشَةُ لَيْلٍ تَحُومُ حَوْلَ فانُوسٍ، أَوْكَأَنَّهُ الْهُدْهُدُ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِنا سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَسْتَثْقِلُ هَوْلَ الْمَقامِ، أَرْدَفَ هامِساً:

ـ اِنْطَلَقْتُ أَدْفِنُ مَعَ بَعْضِ الإخْوَةِ راحِلاً مِنَ الرَّاحِلِينَ. فإذا أَدَّيْنا الصَّلاَةَ عَلى جَسَدِهِ الْفانِي، اِنْبَرَيْنا نوارِيهِ التُّرابَ، ومَسَكْنا بِنَعْشِهِ عَلى

[66] رَوَى الْحَدَثَ الْعَمُّ السَّعِيدُ لِجَدَّتِي.

زَوَايَا الْحُفْرَةِ نُرِيدُ إيداعَهُ بَطْنَها. عَلى أَنَّ الْحُفْرَةَ الْمَجْنُونَةَ أَخَذَتْ تَصْغُرُ وتَتَقَلَّصُ، مُمْتَنِعَةً عَنِ النَّعْشِ...

بَلَعَ الْعَمُّ السَّعِيدُ رِيقَهُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ كَأَنَّهُ يَغْتَصُّ بِلُعابِهِ واسْتَأْنَفَ:

ـ عِنْدَئِذٍ، نادَى الْمُصَلُّونَ عَلى حَفَّارِ الْقُبُورِ وأَمَرُوهُ بِتَوْسِعَةِ اللَّحْدِ... لا رَيْبَ أَنَّهُ أَخْطَأَ مَقايِيسَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ!

اِنْدَفَعَ الصَّانِعُ إلى جَوْفِ الأَرْضِ يَحْفِرُهُ مُوَسِّعاً. فَما إنْ أَتَمَّتِ الْفَأْسُ نَقْرَها حَتَّى أَكَبَّ الْمُصَلُّونَ على الْجُثَّةِ الْهامِدَةِ يُمَدِّدُونَها مَوْضِعَها. بَيْدَ أَنَّ الْحُفْرَةَ عاوَدَتْ عِنادَها وأَخَذَتْ تَتَقَلَّصُ وتَضِيقُ غايَتَها انْقَطَعَ سَبِيلُ قُعْرِها عَلى الدَّافِنِ... لَقَدْ كانَتْ تَلْفِظُ الْمُسَجَّى لَفْظاً! بَلْ وتَبْدُو لأَعْيُنِ النَّاظِرِينَ، ثَمَّةَ حاضِرِينَ، بِأَنَّ أَشْبارَها تَتَكَمَّشُ تَكَمُّشاً، وبِأَنَّ ما بَيْنَ أَصابِعِها مِنْ مَسافَةٍ يَزُولُ حَتَّى تَلْتَصِقَ خَناصِرُها بِأَباهِمِها... بلْ إنَّها، فِعْلاً، تَنْحَشِرُ انْحِشاراً والنَّاسُ عَلَيْها شُهَداءُ!... تِلْكَ الْحُفْرَةُ تَرْغَبُ عَنِ الْجُثَّةِ في أَحْشائِها!...

أَمْسَكَ الشَّيْخُ عَنِ الْحَدِيثِ بُرْهَةً مُتَعَمِّداً، وطَفِقَ يَتَفَرَّسُ في وَجْهِ الْعَجُوزِ، يَقْرَأُ في أَخادِيدِهِ أَثَرَ كَلِماتِهِ. فإذا اطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ على مَفْعُولِ سِحْرِهِ، اِسْتَمَرَّ يَرْوِي:

ـ لَوْ قُدِّرَ لَكِ، يا عَجُوزَ الْخَيْرِ، وحَضَرْتِ صُفُوفَنا، لَبَلَغَ أُذُنَيْكِ اصْطِكاكُ فَرائِصِ الْمُؤْمِنِينَ كَأَنَّها تَضْرِبُ الإيقاعَ في بَعْضِ أَعْراسِ الشَّياطِينِ، ولَكُنْتِ تَرَيْنَها حَدقاتٍ زائِغَةً تَتَرامَقُ بَعْدَ أَنْ تَقَمَّصَها الْوَجَلُ،

بَلْ وإنَّ الْجارَ لَيَسْمَعُ دَقّاتِ قَلْبِ جارِهِ تَتَسارَعُ فَهَمَّ بِالْفِرارِ لَوْلا أَنْ صَوْتُ بَعْضِهِم ارْتَفَعَ جَرِيئاً، يَصِيحُ فِي الْحَشْدِ هُناكَ بإقْدامٍ:

ـ ما دَهاكُمْ يا بَنِي آدَمَ؟ ماذا مُصابُكُمْ وأَنْتُمْ رِجالٌ؟ أَوَ تِلْكَ حُفْرَةٌ ضَيِّقَةٌ لَمْ يَحْفَظِ الْحُفَّارُ مَقايِيسَها أَفْقَدَتْكُمْ تَوازُنَكُمْ؟ أُفٍّ لَكُمْ مِنْ فُحُولٍ!... بَلْ تَماسَكُوا وهَلُمَّ اُدْعُوا صانِعَ الْقُبُورِ يَنْزِلِ اللَّحْدَ كَرَّةً أُخْرَى ولْيُوَسِّعْ بَعْدُ مِنْ أَطْرافِهِ؛ فَكَأَنَّ التُّرابَ هاهُنا مُنْزَلِقٌ، وكَأَنَّ الذَّرّاتِ تَحْتَ أَقْدامِنا لَعُوبٌ تُشاكِسُ الْفَأْسَ ساخِرَةً، تَتَزَحْلَقُ عَنِ الْمَكانِ الَّذِي تُلْقِيها إِلَيْهِ بَهْلَوانَةً، قَدْ عَزَمَتِ الْيَوْمَ عَلَى الْمِعْوَلِ أَنْ لَيُتِمَّنَّ ناقِراً الثَّرَى حَدَّ الْجُنُونِ!... اُدْعُوا حَفّارَ اللُّحُودِ فَلْيَعُدْ إِلَيْها ثالِثَةً عَسَى أَنْ يَنْقَلِبَ كُلٌّ إِلى دُنْياهُ حَيْثُ ما يَنْتَظِرُهُ مِنَ الشُّؤُونِ كَثِيرٌ!...

وعادَ الْحُفّارُ إِلى اللَّحْدِ الْمَشْؤُومِ، وجَعَلَ يَضْرِبُ جَوانِبَهُ نَقْراتٍ عَصَبِيَّةً وقَدِ امْتَلأَ قَلْبُهُ عَلَى الْحُفْرَةِ الْعَنِيدَةِ حُنْقاً وغَيْظاً. أَوَ بَعْدَ تِلْكَ السِّنِينَ الَّتِي أَمْضاها فِي تَفْصِيلِ الدِّيارِ لأَهْلِ الدّارِ، تَقْلِبُهُ تِلْكَ الْحَمْقاءُ إِلى مُبْتَدِئٍ غِرٍّ يَجْهَلُ الْحِرْفَةَ، وتَنْقُصُهُ الْخِبْرَةُ، فَحَبِطَ قَدْرُهُ بَيْنَ الرِّجالِ؟!... ثُمَّ إِنَّ وَراءَهُ حُفَراً زُمَراً يُهَيِّئُها إِذْ إِنَّ الْمَوْتَ أَكْثَرُ مَنْ يَعْمَلُ عَلى وَجْهِ الْمَعْمُورَةِ، وإِنَّ أُمَّ قَشْعَمٍ لا تَفْتُرُ أَبَداً عَلى الْبَسِيطَةِ!...

عادَ إِلَيْها حَفّارُ الْقُبُورِ إِذاً، وقَدْ انْتَفَخَتْ عَضَلاتُ ظَهْرِه وصَدْرِهِ وذِراعَيْهِ، يَنْخُرُ الْبُخارَ مِنْ خَشْمَيْهِ كَالثَّوْرِ يَنْقُرُ الأَرْضَ بِخُفِّهِ وذاكَ بِفَأْسِهِ. واتَّسَعَتِ الْحُفْرَةُ وبَدَا فُوها فَسِيحاً كَالْهُوَّةِ تَسْتَعِدُّ لِلابْتِلاعِ. ولَمْ يَشُكَّ أَحَدٌ مِنَ الْحُضُورِ، حَوْلَ الْغارِ الْمُخِيفِ، أَنَّهُ قَدْ صارَ بِانْفِراجٍ لَيْسَ

فَوْقَهُ ضَرُورَةٌ. وتَأَكَّدُوا مِنْ أَنَّ تِلْكَ هِيَ الْقاضِيَةُ. وأَمْسَكَ بَعْضُهُمْ بِالْكَفَنِ واسْتَعَدُّوا لإلْقائهِ في الْكَهْفِ الْعَظِيمِ.

تِلْكَ السَّاعَةَ... يا لَلْعَجَبِ الْعَظِيمِ يَتْبَعُهُ فَزَعٌ هائل!... لَقَدْ كانَتِ الْحُفْرَةُ تَضِيقُ فِعْلاً وتَقِيءُ الْجُثَّةَ اشْمِئْزازاً... الْجَمِيعُ يَشْهَدُ عَلى أَنَّها قَدْ رَدَّتْها عِيافاً وتَفَلَتْها كَالْبُصاقِ يُلْقِي بِهِ الرَّجُلُ عَلى قارِعَةِ الطَّرِيقِ!

ما مِنْ شَكٍّ إنَّ الأَرْضَ تَأْبَى أَنْ تَحْتَضِنَ الْمَيِّتَ. إنَّ التُّرابَ يَأْنَفُ أَنْ يَضُمَّ الْجثَّةَ. يَقِيناً إنَّ الْقَبْرَ مَأْمُورٌ. أَمَرَهُ عَلِيُّ الشَّأْنِ بِأَنْ تَسْتَنْكِفَ أَحْشاؤُهُ الطَّهُورُ مِنِ اسْتِقْبالِ النَّتَانِ... لا بُدَّ وأَنَّ الْجُثَّةَ ناجِسٌ قَدِ اقْتَرَفَ صاحِبُها مِنَ النَّجَاسَةِ ما أَكْرَهَ الثَّرَى النَّقِيَّ فِيهِ!...

اللهُ أَعْلَمُ بِمَخْلُوقِهِ ولكِنَّ الشُّهَداءَ لا يَشُكُّونَ فِيمَا رَأَوَا وما لَمَسُوا لِذَلِكَ سِوَى هَذا التَّفْسِيرِ. عَلى أَيَّةِ حالٍ، لَقَدْ أَسْلَمُوا أَعْلَى الْحُفْرَةِ الْجِسْمَ الْهامِدَ، بِالضَّبْطِ فَوْقَ فَوْهَةِ الرَّمْسِ، ورَدَمُوا عَلَيْها التُّرَابَ امْتِثالاً لأَمْرِ الإمامِ، وخَلَّوْا عَنْها مُوَلِّينَ، مُهَرْوِلِينَ، لا يَلْوُونَ عَلى شَيْءٍ وقَدْ رَكِبَهُمْ ذُعْرٌ شَدِيدٌ...

أَمْسَكَ الْعَمُّ السَّعِيدُ عَنِ الْكَلامِ يُفَكِّرُ فِيمَا رَوَى مِنْ أَحْدَاثٍ، وغاصَ في لُجَجٍ مِنَ الأَفْكَارِ، ولَعَلَّهُ لَقِيَ الْعُجُوزَ إزاءَهُ، في بَعْضِ دُرُوبِ التَّخْمِينِ، تنْهَشُها التَّساؤُلاتُ ذاتُها فحَارَا مَعاً في أَسْرارِ الْكَوْنِ ومُغَيَّباتِ الْمَلَكُوتِ. واسْتَبَدَّ بِالْمِكانِ صَمْتٌ رَهِيبٌ ثَقِيلٌ في وَضَحِ النَّهَارِ والشَّمْسُ عالِيَةٌ في كَبِدِ السَّمَاءِ... وكَأَنَّ الشَّيْخَ الْخائفَ أَخَذَتْهُ بِجارَتِهِ الرَّأْفَةُ فشَاءَ أَنْ يُخْرِجَها مِنْ بَعْضِ وُجُومِها ووَاصَلَ يَقُولُ:

ـ مَهْماً يَكُنْ، فَإِنَّ بَعْضَ الْمُصَلِّينَ عَلى الْجَنَازَةِ دَفَعَ بِهِ الْفُضُولُ إلى تَفَقُّدِ الْوَدِيعَةِ فَأَلْفَى التُّرابَ قَدِ انْسَلَخَ عَنِ التَّابُوتِ، وتَسَرَّبَ مِنْ جَانِبَيْهِ إلى قُعْرِ الْحُفْرَةِ، بَيْنَما ظَلَّ الْمُكَفَّنُ مُعَلَّقاً عَلى الْفُتْحَةِ، لا هُوَ تَحْتَ الأَرْضِ ولا هُوَ فَوْقَها... إنَّما بَيْنَ بَيْنَ وكَفَى!...

أَعاذَنا اللهُ مِنْ سُوءِ الْعاقِبَةِ واللّهُمَّ احْفَظْنا مِنْ شُرُورِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ.

باريس في: 31 مايُو 1999م

حَيٌّ مَيِّتٌ

هاجَتِ الْعاصِمَةُ وماجَتْ. وأَضْحَتِ النِّسْوَةُ يَلْتَفِفْنَ في مُرُطِهِنَّ أَوْ يَتَسَرْبَلْنَ في حُيَّاكِهِنَّ ويَجْرِينَ مُهَرْوِلاتٍ إلى مُسْتَشْفَى "مُصْطَفَى باشا". وباتَ الرِّجالُ، مُجَرَّدَ ما يَفْرَغُونَ مِنْ أَشْغالِهِمْ ويَنْعَتِقُونَ مِنْ وَظائِفِهِمْ، يَتَزاحَمُونَ في تَسابُقٍ مَعَ عَقارِبِ السَّاعَةِ وكَأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَفُوتَهُمْ شَيْءٌ هامٌّ...

إِنَّهُمْ جَمِيعَهُمْ في هَمْزٍ وهَمْسٍ يَتَحادَثُونَ. مَجاذِيبُ يَصْعَدُونَ عَقَبَةَ الْبِيمارِسْتانِ مُهَمْهِمِينَ، وعَلَى صَفَحاتِ وُجُوهِهِمْ صُوَرُ الْحاضِرِينَ الْغائِبِينَ، الْغارِقِينَ في أَفْكارِهِمْ، في لُجَجِ التَّخْمِينِ غائِصُونَ.

ـ ولَكِنْ، ما الَّذِي دهاهُمْ أَكْتَعِينَ؟ هلْ حَدَثَ في الْجَزائِرِ شَيْءٌ يُدْهِشُ الْبالْ؟...

ـ أما سَمِعْتُمْ يا أَنْتُمُ الَّذِينَ تَسْأَلُونَ؟ إِنَّ النَّبَأَ قَدْ أَدْرَكَهُ كُلُّ مَنْ في الْعاصِمَةِ يَدُورُ. بَلْ إِنَّ الْخَبَرَ قَدْ بَلَغَ رَبَّاتِ الْحُجُورِ في الْخُدُورِ. بَلْ وإِنَّهُ قَدْ تَلَقَّفَتْهُ الأَجِنَّةُ في الْبُطُون.

في بَعْضِ قاعاتِ مُصْطَفَى باشا الْبَيْضاءِ، رَجُلٌ حَيٌّ مَيِّت!...

ـ كَيْف ؟...

ـ أَجَلْ، أَجَلْ! رَجُلٌ حَيٌّ مَيِّتٌ!.... دَفَنُوا الْمِسْكِينَ لَمَّا حَسِبُوهُ وَلَّى، بَيْنَما لَمْ يَزَلِ الْمَخْلُوقُ حَيّاً. إنَّما أَصابَهُ مِثْلُ الإغْماءِ فَغُشِيَ وقَبَضَ عَلى أَنْفاسِهِ الْمَوْتُ الْكلِينيكِيُّ كَمَا يُدْعَى.

ثُمَّ إنَّ التَّعِيسَ... ماذا أَقُولُ؟ بَلِ الْمَحْظُوظَ في اللَّحْدِ أَفاقْ، فإذا أَطْباقُ الثَّرى تَكْبِسُ عَلَى أَنْفاسِهِ فَمِنْهَا فَرَقْ! ثُمَّ إنَّهُ بِمَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ صَرَخْ، فَسَمِعَهُ بَعْضُ الْمَارَّةِ بِالْجَبَّانَةِ يَسْتَغِيثُ وإلى الإمامِ سَبَقْ، يَسْتَفْتِيهِ فِيمَا مِنَ الْمَقْبَرَةِ سَمْعُهُ اِسْتَرَقْ، فَأَهَابَ بِهِ الشَّيْخُ أَنْ إلَى الرَّمْسِ اُرْكُضْ، ومِنْ تَحْتِ التُّرابِ الْمُبْعَثَ أَنْقِذْ! وأَوْفَدَ مَعَهُ بَعْضاً بِالْفُؤُوسِ والْمَعاوِلِ يُزِيحُونَ ما رَدَمَ ذَوُو الْجنازَةِ عَلَى الْمُغَشَّى.

وفي فِراشِ الْقَبْرِ أَلْفَوا الرَّجُلَ في كَفَنِهِ مُسَجَّى، ومِنْ رِقْدَتِهِ عَيْناهُ اسْتَفاقَتا، وعَنِ النَّوْمَةِ الأَبَدِيَّةِ ازْوَرَّتَا، وإلَى النُّورِ اشْتاقَتا.

أَخْرَجُوا الْمَرْحُومَ مِنَ الْجَدَثِ الّذِي اسْتَضافَهُ أَيَّاماً ثَلاَثَةً هِيَ كُلُّ عِدَّتِه في ذَلِكَ النُّزُلْ، وإلى الْمُسْتَشْفَى أَدَّوْهُ بِرِفْقٍ ولَكِنْ عَلَى عَجَلْ.

والْتَفَّ حَوْلَ الْمِسْكِينِ كُلُّ رَهْطٍ ونَفَرْ، وفاطِمَةُ وزُبَيْدَةُ وغَيْرُهُمَا زُمَرْ، وجَعَلُوا كُلُّهُمْ يَسْأَلُونَ الْمُفَدَّى عَمَّا في الآخِرَةِ أَبْصَرْ، وكَيْفَ هِيَ ظُلْمَةُ الْقَبْرْ، وهَلْ ضَمَّتْهُ حَتَّى الضِّلْعُ انْكَسَرْ، وهَلْ رَأَى نَكِيراً ومُنْكَرا، وهَلْ في الْعَذابِ أَعْثَرْ، وهَلْ ضَرَباهُ ضِرْبَةَ إخْشانٍ دَفَعَتْهُ تَحْتَ الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِراعاً وأَكْثَرْ؟

لكِنَّ الرَّجُلَ فَزِعْ، ويا لَخَيْبَةِ الْجَمْعْ، إذْ لِسانَهُ خَلَّفَ في الْقَبْرِ مِنْ شِدَّةِ ما فُجِعْ، وكَأَنَّها أَمانَةٌ يُودِعُها غايَتَها يَرْجِعْ. أَوْ كَأَنَّهُ بِمَواثِيقَ غَلِيظَةٍ في الْعالَمِ الآخَرِ كُبِحْ، فَهُوَ عَلى الرَّدِ لا يَنْجَحْ. أَوْ لَعَلَّ عَقْلَهُ مِنْ كُلِّ ذِكْرَى مُسِحْ. فَإذا، مَنْ حَوْلَهُ، في وَجَلٍ وحُنُوٍّ يَسْتَرْحِمْ، وفي مُقْلَتَيهْ شُرُودٌ عَلَيْهِ وَجَمْ، وإنَّما الصَّمْتُ بِإحْكامٍ غَرِيبٍ عَلَيْهِ خُتِمْ.

سَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ هُلْ هُوَ كَما يَصِفُونْ؟ هَلِ السَّبِيلُ إلى الْمَوْتِ بَيْضاءُ ناصِعَةُ اللَّمَعانْ كَما يَدَّعُونْ؟ هَلْ طِرْتَ أَمْ مَشَيْتْ؟ هَلْ ضَرَبُوكَ أَوْ آلَمُوكَ؟ هَلْ جرَّكَ الْمَلَكانْ؟ هَلْ لَهُمَا جَناحانِ عَجِيبانْ؟ هَلْ رَأَيْتَ عَرْشَ الرَّحْمانْ؟ هَلْ حَدَّثَكَ الرِّضْوَانْ؟ أَمْ لَعَلَّكَ صامِتٌ لأَنَّكَ تَسْتَحِي مِنْ زِيارَتِكَ جَهَنَّمَ والشَّيْطانْ؟... هَيَّا انْطِقْ ما لَكَ أَبْكَمُ لا تُفْضِي إلَيْنا بِأَسْرارِ الْغَيْبِ وما وَراءَ الْحِجابِ مِنْ شُؤُونْ؟

وحاصَرُوهُ بِأَسْئِلَتِهِمْ وهُوَ عَنْهُمْ مُمْسِكٌ لا يُصَحِّحُ مَظْنُونا، ولا يَكْشِفُ مَكْنُونا. بَلْ ظَلَّ صامتاً تَدُورُ مُقْلَتاهُ في الْخَلْقِ الَّذِي حَوْلَهُ، فَأَلْفاهُ قَوْماً قَزْماً جَرَّهُ إلَيْهِ الْفُضُول، جاهِلٌ لَمْ يَأْبَهْ بِمَا بَيْنَ أَضْلُعِهِ مِنْ فَزْعَةِ الْمَوْتِ والْبَعْثِ عَلَى السَّوَاء، ولَمْ يُدْرِكْ أَنَّ الْمَرْءَ الَّذِي رُدَّ إلَيْهِ الرُّوحُ بَعْدَ قَبْضَةِ ثَلاثْ، لَمْ يُرَدَّ إلَيْهِ لِيَرْفُثْ، إنَّما لِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ جَهِلَ وعَبَثْ، وعَنِ الْحَقِّ الْمَحْتُومِ حَنِثْ، بَلْ وفاتَ عَنْهُ أَنَّ رَبَّهُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مْنِ حَبْلِ الْوَرِيدْ، وأَنَّهُ قادِرٌ عَلَى بَتْرِ أَجَلِهِ في اللَّحْظَةِ الَّتِي يُرِيد، فَيَقْذِفَ بِهِ إلى أَسْفَلِ السَّافِلِينْ، أَوْ يَرْفَعَهُ إلى أَعْلَى عِلِيِّينْ، بَيْنَ تَسْنِيمٍ ورَيَّانْ، ولَكِنَّ ذَلِكَ عَلى أَكْثَرِهِمْ شَتَّانْ...!

رَجَعَ الرَّجُلُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَرْجِعِ الأَنْبِياءُ والرُّسُل، حَتَّى يَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِر، ومَوْعِظَةً لِمَنْ يَتَّعِظ، ولكِنَّها سُلْفَةٌ مُدَّ بِهَا إلى حِين، وإنْ هُوَ مُطِّطَ فِي أَجَلِهِ فلأَنَّ أَجَلَهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ حان، وإنَّما تِلْكَ ساعَةٌ أُخْرَى في الْحُسْبانْ.

ثُمَّ إنَّ الْمَحْتُومَ الْمَقْضِيَّ جاءَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ مِنْ بَعْدُ فكانَ لَهُ خَلاصاً مُرِيحاً، وكانَ الْفُجَّارُ قَدْ كَدَّدُوهُ كَأَنَّهُمْ كِلابٌ مَسْعُورَة، يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ لا يُخْلِفُون، وأَنْشَبُوا في لَحْمِهِ الْمَخالِبَ فَمَشُّوا مِنْهُ الْعَظْمَ والْعَصَبَ لا يُمَيِّزُون، فَزادُوهُ خَوْفاً عَلى خَوْف، وأَوْسَعُوهُ قَلَقاً ما فَوْقَهُ قَلَقٌ، يَبْغُونَ أَنْ يَسْتَخْلِصُوا مِنْهُ ما لَيْسَ فِيهِ. وإنَّ أَحَداً مِنْ ذَلِكَ الْمَعْشَرِ الْوارِدِ الصَّادِرِ لَمْ يَتَلَقَّفِ السِّرّ، ولَمْ يَعِ أَنَّ اللهَ عَلى بَعْثِ خَلْقِهِ كَرَّةً أُخْرَى لَقَدِير، وأَنَّ السَّاعَةَ قَرِيبَةٌ لا تَسْتَعْجِلُوها، قَدْ أَفْلَحَ مَنِ اسْتَقْبَلَها بِزادٍ يُرْضِيها.

باريس في: 31 مايو 1999م

بَرْدٌ فِي جَوْفِ الأَرْضِ[67]

فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ الْمُسْتَطِيلَةِ الْباهِتَةِ، الّتي شَحُبَ لَوْنُها فَظَهَرَتْ بِها بُقَعُ الْجِبْسِ رَمادِيَّةً كَما غُيُومِ الْخَرِيفِ الْمُقْرِفَةِ، تَوَازَتِ الأَسِرَّةُ الْحَدِيدِيَّةُ ذاتُ الأَزِيزِ الْمُزْعِجِ، فَانْخَسَفَ النُّور مِنْ أَرْجائِها وصَمَتَتِ الْمُوسِيقا في أَرْكانِها.

ساعاتٌ رَتِيبَةٌ يُماثِلُ بَعْضُها بَعْضاً، تَنْقُلُها نَزِيلاتُ الْمُسْتَشْفَى مِنَ أَمامٍ إلى خَلْفٍ بِجَهْدٍ، يَكَدْنَ لا يَرَيْنَ نِهايَةَ الْمِشْوَارِ في ذَلِكَ الْمَكانِ الْفَظِيعِ.

على أَنَّ ضَيْفَةً خاصَّةً نَزَلَتِ الْمُسْتَشْفَى ذاتَ يَوْمٍ لَمْ يَكُنْ كَغَيْرِهِ مِنَ الأَيَّامِ. ضَيْفَةٌ لَمْ تَكُنْ كَكُلِّ الضَّيْفاتِ. إنَّما حُرْمَةٌ اِنْتَزَعُوها مِنَ الْقَبْرِ بَعْدَ أَنْ أَلْقَوْها في أَحْشائهِ حَيَّةً، فَحَقَّتْ عَلَيْها صِفَةُ "الاجِئَةِ الآخِرَة"...

ذُعِرَتْ نَزِيلاتُ الْمُسْتَشْفَى أَوْ هُنَّ اغْتَبَطْنَ... أَتُدْفَنُ الإنْسانَةُ ثُمَّ تَعُودُ مِنْهُ حَيَّةً؟... والْتَفَّتِ الْحَرائِرُ بِالْوَافِدَةِ الْغَرِيبَةِ، يَتَشَرَّبْنَ حَدِيثاً غَرِيباً، ويَمْلأَنَ لَواحِظَهُنَّ بِتَفاصِيلِ مَخْلُوقَةٍ عَجِيبَةٍ ضَمَّها الْقَبْرُ ثُمَّ لَفَظَها، حَجَرَ عَلَيْها ثُمَّ سَرَّحَها... إلى أَجَلٍ مَوْعُودٍ.

---

[67] روتْها المرحومة فاطمة بَلْمُوهوب وقد عاينتِ المرأة في المستشفى وسمعت منها قصَّتها.

رَوَتِ الْمَفْدِيَّةُ:

ـ أَوْدَعُونِي الْحُفْرَةَ فَمَكَثْتُ بِها ما مَكَثْتُ... قَدْ تَكُونُ مُدَّةً غَيْرَ طَوِيلَةً!... ثُمَّ إِنِّي أَفَقْتُ، وفِي دَوْخَتِي، شَعَرْتُ وَخْزَ الْبَرْدِ شَدِيداً تَحْتَ طَبَقاتِ الثَّرَى فَأَمْسَى بَدَنِي كُلُّهُ يَقْشَعِرُّ.

صَمَتَتْ بُرْهَةً كَأَنَّها تَلْتَقِطُ أَنْفاسَها ولَكِنَّها فِي الْوَاقِعِ تَلْتَقِطُ أَنْفاسَ سامِعاتِها، تَسِفُّ أَرْواحَهُنَّ مِنْ أَجْداثِهِنَّ سَفّاً تَتَقَوَّى بِطاقاتِهِنَّ فَارْتَعَشْنَ ثُمَّ أَرْدَفَتْ:

ـ شَعَرْتُ إذا بِبَرْدٍ شَدِيدٍ وخُيِّلَ لِي، بَلْ رَأَيْتُ رَأْيَ الْيَقِينِ كَما أَراكُنَّ بِيَ خافِراتٍ ذِي السَّاعَةَ، خِزانَتِي فِي حُجْرَتِي الَّتِي بِدارِ الدُّنْيا، مُنْفَتِحَةَ الْبابَيْنِ واسِعَتَهُما، وتَمَثَّلَ لِي ما حَوَتْهُ مِنْ قُماشٍ فاخِرٍ ومَلابِسَ رَفِيعَةِ الطِّرازِ تَغُرُّنِي، وكَنَّى لِي اللهُ كَأَنَّما هِيَ فِي مُتناوَلِي تَسْنَحُ لِي وأَنَّهُ يَكْفِينِي مَدُّ الْيَدِ لِمُلامَسَتِها.

ومَدَدْتُ كَفِّي فِعْلاً أَبْغِي شَيْئاً أَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتِي وأَقِي بِهِ نَفْسِي مِنْ صَرَدِ الآخِرَةِ النَّازِفِ، بَيْدَ أَنِّي، مَهْماً مَدَدْتُها، ومَهْماً كانَ الصِّوانُ قَرِيباً مِنِّي قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، إلاَّ أَنِّي ما كُنْتُ أَبْلُغُ شَيْئاً فَزادَتْ حَيْرَتِي.

وبَيْنَما أَنا فِي تِلْكَ الْمُعْضِلَةِ أَتَمَلْمَلُ، ولَعَلَّنِي طَفِقْتُ أَصْرُخُ، إذا بِأَهْلِ الأَرْضِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ فَوْقَ الأَرْضِ، يَنْتَشِلُونَنِي مِنَ الْحُفْرَةِ، وأَنْ لَيْسَتِ السَّاعَةُ ساعَتَكِ بَعْدُ ثُمَّ احْتَمَلُونِي إلى مَوْضِعِكُنَّ هَذا بِالْغَصْبِ.

وإِنَّهُ لَعَهْدٌ أَقْطَعُهُ على نَفْسِي ـ وها أَنْتُنَّ أَمامَ اللهِ تَشْهَدْنَ على نَذْرِي ـ أَنْ لَنْ أَتْرُكَ شَيْئاً بِتِلْكَ الْخِزانَةِ أَتَوَسَّمُ فِيهِ قِيمَةً إلاَّ تَصَدَّقْتُ بِهِ، بَلْ

وإنِّي سَأَبْتاعُ الْقِطْعَةَ تِلْوَ الأُخْرَى أَهَبُها في كُلِّ صَوْبٍ وحَدْبٍ. ولَئِنْ لَمْ يُدْرِكْنِي الْمَوْتُ هَذِهِ النَّوْبَةَ، فَإِنَّ دَوْلَةً أُخْرَى لَنْ تُخْطِئَنِي، وإنِّي لأَرْجُو أَنْ أَمُدَّ ـ ساعَتَئِذٍ ـ أنامِلِي إلى خَزَانَتِي فَأَعُودَ بِشَيْءٍ أَرُدُّ بِهِ صَقِيعَ الرَّمُوسِ، عَسَى أَنْ يَضُمَّنِي بَعْدَها الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ إلى جَنَّةٍ أَتَفَيَّأُ بِفَيْئِها الظَّلِيلِ.

حَمَّام قَرْقُور، أَغُسطُس 1999م

الأَجَلُ مَحْتُومٌ

لَمْ يَكُنِ الْفَتَى يَبْلُغُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وعَشْرِينَ عاماً.وكانَ لَهُ رَبْعٌ قَدْ رَبَطَتْهُ بِهِ آصالٌ وَشِيجَةٌ مُنْذُ عَهْدٍ لا يُحْسِنُ عَدَّهُ. ثُمَّ إِنَّ الأَصْدِقاءَ أُولاءِ كانُوا يُحِبُّونَ قَضاءَ أَوْقاتِهِمْ أَكْثَرِها في رِفْقَة، فكانَتِ الْعَيْنُ لا تَراهُمْ يَفْتَرِقُونَ إلاَّ لِماماً وقَدْ هَوَوْا الأَشْياءَ نَفْسَها وأَلِفُوا الأُمُورَ عَيْنَها.كانُوا أَرْبَعَةً ولَكِنَّهُمْ ذاتٌ واحِدَةٌ. وكانَ الشَّابُّ مِنْهُمْ يُعْرَفُ بِجَماعَتِهِ ويُمَيَّزُ بِخَصائِصِ خِلاَّنِهِ.

وُلِدُوا في حَيٍّ وَاحِدٍ، في عامٍ واحِدٍ. ودَرَسُوا في مَدْرَسَةٍ فَرِيدَةٍ ورُفِدُوا مِنْ سِلْكِها في ظَرْفٍ مُوَحَّدٍ رُبَّما لِسَبَبٍ واحِدٍ. وسَنَدُوا حِيطانَ الْحُومَةِ بِظَهْرٍ واحِدٍ وكانَتْ لَهُمُ الآمالُ ذاتُها والأَحْلامُ نَفْسُها والتَّخَيُّلاتُ عَيْنُها. وكانُوا يَضْحَكُونَ مَعاً ويُمْسِكُونَ مَعاً ويَبْكُونَ مَعاً ويَضْجَرُونَ مَعاً ويَتَمَنَّوْنَ بِقَلْبٍ واحِدٍ ويَتَصَوَّرُونَ بِفُؤادٍ واحِدٍ ويُفَكِّرُونَ بِعَقْلٍ واحِدٍ... سُبْحانَ الْمَوْلَى الْخالِقِ! نَفْسٌ فَرِيدَةٌ صَوَّرَها عَلى أَرْبَعٍ...

أَقْبَلَ الْفَتَى عَلى أُمِّهِ وثارَ يَسْتَعْطِفُها مُلِحّاً فِي أَنْ تُبارِكَ رِحْلَتَهُ بالسَّيَّارَةِ، مَعَ الرَّبْعِ، إلى "بُرْجِ مَنائلَ"[68]، شَرْقَ الْعاصِمَةِ.

كَأَنَّما تَوَجَّسَتِ الأُمُّ خِيفَةً وسَبَقَ إلى نَفْسِها هاجِسُ رِيبَةٍ فَقَطَعَتِ الْحَدِيثَ:

ـ أَبداً لَنْ تَذْهَبَ!... الطَّرِيقُ وَعْرَةٌ وأَنْتُمْ شَبابٌ مُتَهَوِّرٌ يَطِيرُ بِالسَّيَّاراتِ طَيَراناً... أَمَجْنُونَةٌ أَنَا أَمْ مَجْنُونَة؟... بَلْ سَتَمْكُثُ هُنَا في حِفْظِي وتَحْتَ صَوْنِي...

وما عَتَمَتْ أَنْ سَدَّتْ دُونَهُما كُلَّ منافِذِ النِّقاشِ فَأَصَمَّتْ أُذُنَيْها وفُؤادَها وعَقْلَها وكُلَّ جَوَارِحِها فَما بَلَغَها مِنْ إلْحاحِ فَتاها يَسِيرٌ ولا كَثِيرٌ وتَلاشَى صَدَى صَوْتِهِ في زَوَايا الشَّقَّةِ الْمَتَواضِعَةِ.

فَانْطَلَقَ ثَلاثَةٌ مِنَ الأَرْبَعَةِ باجْتِماعِهِمْ فَكِهِينَ، لَمْ يُنَغِّصْ عَلَيْهِمْ جَوَّ الرِّحْلَةِ سِوَى تَخَلُّفِ صاحِبِهِمْ في تَلابِيبِ أُمِّهِ.

وبَقِيَ الشَّابُّ في مَدِينَتِهِ يَمْضَغُ أَسَفاً في صَمْتٍ ويَلُوكَ حُنْقاً، فإذا جُنَّ الظَّلامُ، دَخَلَ فِراشَهُ يَلُوذُ بِالنَّوْمِ تَحْتَ عَيْنِ أُمِّهِ الْحَرِيصِ...

وانْقَضَى اللَّيْلُ وطَلَعَ الصُّبْحُ، فإذا بِأَخْبارٍ يَقِينَةٍ تَبْلُغُ أُذُنَيْ الأُمِّ ـ وما بَقِيَ لَها أَنْ تَسُدَّ أُذُنَيْها ـ بأَنَّ رَبْعَ ابْنِها قَدْ فُجِعُوا في أَعْمَارِهِمْ بِحادِثٍ مُرِيعٍ وقَدْ قَضَوْا جَمِيعُهُمْ لَمْ تَنْجُ مِنْهُمْ نَفْسٌ.

---

[68] بلدة في الشَّرق الجزائريّ، من ولاية تيزي وزّو.

تَسارَعَتْ دَقَّاتُ قَلْبِها مَجْنُونَةً فَرَدَّتْ يَدَها إلى فُؤادِها تبْغِي أَنْ تُمْسِكَ بِهِ قَبْلَما يَهْوِي إلى قَدَمَيْها وهَمَسَتْ هَمْسَةً أَشْبَهَ بِالْحَشْرَجَةِ:

ـ ولَوْ أنَّ فِلْذَةَ كَبِدِي كانَتْ مَعَهُمْ؟

وجَرَّتْ ساقَيْها تُحاوِلُ الرَّكْضَ، تَتَعَثَّرُ مَعَ كُلِّ خَطْوَةٍ، إلى ابْنِها تَنْعَى إِلَيْهِ أَصْحابَهُ، وتُذَكِّرُهُ بِضَرُورَةِ طاعةِ الْوَالِدَيْنِ وبَأَنَّ قَلْبَ الأُمِّ لا يَكْذِبُ أَبَداً، وبأَنَّ "مَنْ اسْتَمَعَ إلى كَلِمَةِ الكَبِيرِ، رَبِحَ أَوْ خَرَجَ عَلى خَيْرٍ".

اِنْحَنَتِ على ابْنِها تُرِيدُ إيقاظَهُ وقَدْ قابَلَ الْجِدَارِ. وبِصَوْتٍ خافِتٍ مُتَلَعْثِمٍ جَهِدَتْ كَيْ تُخْرِجَهُ في حُلَّةٍ حَنُونٍ مُتَساوِيَةٍ، نادَتْهُ... كانَتْ تَرْجُو أَلاَّ تُفْزِعَهُ في يَقْظَتِهِ... أَلاَّ تُفْجِعَهُ، ولَكِنَّ الشَّابَّ لَمْ يَسْمَعْ والِدَتَهُ تُنادِيهِ، لَمْ يَسْمَعْ جَرْسَها الْمُضْطَرِبَ، وإِلَيْها لَمْ يَسْتَدِرْ كَيْ يَقْرَأَ على وَجْهِها الْحَنُونِ أَماراتِ التَّرَحِ والْفَرَحِ مَعاً، أَماراتِ الْخَوْفِ والطُّمَأْنِينَةِ قَدْ تعانَقا لأَوَّلِ مَرَّةٍ، لأَنَّ الأَقْدَارَ وَعَدَتْ ألاَّ يَفْتَرِقَ الرَّبْعُ أَبداً، وأَلاَّ تَنْفَصِمَ شِلَّتَهُ ما دامَ الدَّهْرُ، وقَدْ قُبِضَ رُوحُهُ في الْمَنامِ ولَحِقَ بِأَصْحابِهِ إلى العالَمِ الْمَجْهُولِ!...

باريس، في 6 شعبان 1420هـ

الموافق 14 نوفمبر 1999م

فِي الْقَبْرِ شِبْرٌ[69]

هَذَا امْتِحانُ شَهادَةِ الْباكالُورْيا على الأَبْوَابِ فَتَأَهَّبَ طُلاَّبُ رَأْسِ الْوَادِي[70] للأَمْرِ الهامِّ والْتَمَسَتْ فَتاتانِ، فِي الْفِناءِ خَلْفَ بَيْتَيْهِما، مَضْرِبا لِلْمُذاكَرَةِ أَوْفَقَ وقَدْ تَذَمَّرَتا مِنْ ضِيقِ الدِّيَار.

وبَيْنَا هُما كَذَلِكَ، جازَتا عَنْ مَقْبَرَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ عَنْ حَيِّهِمَا فَأَلْفَتَا رَمْساً مَنْسِيّاً... قالَتْ أَخَفُّهُما عَقْلاً وأَكْثَرُهُما تَهَوُّراً:

ـ أَما يَقُولُونَ: "إنَّ في الْقَبْرِ شِبْراً؟"[71]، اِصْبِرِي أُجَرِّبِ الْمَقُولَة... سَأَفْتَرِشُ الْقَبْرَ ذا وأَقِيسُهُ.

وتَمَدَّدَتْ فِيهِ وَجَذَبَتْ خِمَارَها على وَجْهِهَا كَأَنَّهُ كَفَنٌ ومِنْ رَقْدَتِها لَمْ تَسْتَفِقْ بَعْدَها قَطُّ.

صَبَرَتْ صَاحِبَتُها ما انْتَظَرَتْ رَيْثَما تَفْرُغِ التَّمْثِيلِيَّةُ، ثُمَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْقَلَقِ، اِنْبَرَتْ إليْها تَجْذِبُها مِنْ ذِراعِها عاذِلَةً مُؤَنِّبَةً وقدِ انْتابَها الارْتِباكُ:

---

[69] روى الْقِصَّة نساءٌ مِنْ بُرج بو عريريج.

[70] مدينة صغيرة في ولاية برج بو عريريج.

[71] مثل شعبي جزائريّ.

ـ هَيَّا كَفاكِ هُزُءاً يا مَجْنُونَةُ... كَفَى هُتْراً... إنَّ هَذا لا يُضْحِكُ أَبداً!

على أَنَّها سُرْعانَ ما رَكَضَتْ إلى الْحَيِّ تَنْعَى صَدِيقَةَ عُمْرِها، وما كان مِنْ رِجالِ الْحَيِّ إلاَّ أَنِ اصْطَفُّوا يُصَلُّونَ عَلَيْها صَلاةَ الْجَنازَةَ، وقَدْ أَمَرَ الإمامُ بِتَرْكِها مَكانَها لا تُحَرَّكُ لِغَسْلٍ أَوْ تَكْفِينٍ...

حَمَّام قَرْقُور، أغسطس 1999م

عَرُوسُ مَجَّانة[72]

قِيلَ إِنَّ أُخْتَيْنِ جلَسَتا في حَوْشٍ لَهُما تَتَسامَرَانِ بِاللَّيْلِ. بَيْدَ أَنَّهُما، لِسُوءِ تَفْكِيرِهِما، لَمْ تَنْتَخِبا مَضْرِبَهُما وجَلَسَتَا، أَعَزَّكُمُ اللهُ، غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ بالُوعَةِ الْمِياهِ الْفاسِدَةِ.

وإِذْ هُما تَتَجاذَبانِ أَطْرافَ الْحَدِيثِ، أَبْصَرَتا فَجْأَةً رَجُلاً يَنْدُرُ إِلَيْهِما مِنَ الثُّقْبِ ويَتَطَلَّعُ فِيهِما بِصَمْتٍ. فإِذا انْقَضَتْ بِضْعُ دقائقَ بَدَتْ ساعَةً، اخْتَفَى الْمَخْلُوقُ مِنْ حَيْثُ أَطَلَّ وكَأَنَّهُ ما طَلَعَ مِنْها ولا ظَهَرَ.

اِحْتَفَظَتِ الْبِنْتانِ بِالرُّؤْيا لأَنْفُسِهِما، حَتَّى إذا ما جاءَ حَظُّ إِحْدَى الْفَتاتَيْنِ بَعْدَ أَيَّامٍ، وتَهَلَّلَ فَؤادُها بِمَقْدَمِ الْخُطَّابِ يَسْأَلُونَ وُدَّها، إذا الْعَرِيسُ هُوَ الرَّجُلُ ذاتُهُ الّذي ظَهَرَ لَها وشَقِيقَتَها مِنْ مَجْرَى الْمِياهِ.

رُبَّما خَشْيَةَ الْهُزْءِ، وَرُبَّما خَشْيَةَ أَنْ يَطِيرَ الْعَرِيسُ، أَوْ خَوْفاً مِنْ أَنْ تُتَّهَما بِالْجُنُونِ وعَدَمِ الاتِّزَانِ، آثَرَتا الصَّمْتَ وإِضْمارَ ما تَخَمَّرَ في ذِهْنَيْهِما مِنْ أَسْئلَةٍ مُرْبِكَةٍ.

---

[72] روتها نساء من مجّانة. ومجّانة بلدة صغيرة في منطقة زَمُّورة من وِلاية بُرْج بو عريريج. وهي مَوْطِن الأمير محمّد المقراني رحمة الله عليه.

اِتَّفَقَ أَهْلُ الْفَتاةِ والْخُطَّابُ حَسَبَ الْعُرْفِ، وأَتَى الأَصْهارُ الْجُدُدُ بِالْمَهْرِ والصَّدَاقِ وسائِرِ الْهَدَايَا والتُّحَفِ فَقُطِعَ الشَّرْطُ وقُرِئَتِ الْفاتِحَةُ وتَمَّ الْعَقْدُ. وما عَتَمَتْ أَنْ أُقِيمَتِ الأَفْرَاحُ والأَهازِيجُ وحَضَرَ الْعُرْسَ الأَقارِبُ والأَحْبابُ، فَرَقَصتِ الصَّبايا وغَنَّتِ الْحَرائِرُ ودَارَتْ أَطْباقُ الْكُسْكُسِ مُضَرَّبَةً بِاللَّحْمِ والْمَرَقِ، ثُمَّ حُمِلَتِ الْعَرُوسُ في مَوْكِبٍ ضَخْمٍ يَمْلأُ الشَّوَارِعَ بِضَوْضائِهِ وبَهارِجِهِ.

وانِقَضَتْ لَيْلَةُ الدُّخُولِ، وأَشْرَقَ صباحُ الْعَرُوسِ كَمَا نَدْعُوهُ في بَلَدِنا، وحَسَبَ التَّقْلِيدِ الْمَوْرُوثِ، حَمَلَ أَهْلُ الْعَرُوسِ الْحَلْوَى والْكَعْكَ والْحِنَّاءَ صَوْبَ بَيْتِ فَتاتِهِمْ يَزُورُونَها لِيَوْمِها الأَوَّلِ في بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ، وطَلَبُوا مَسْكَنَ أَنْسبائِهِمْ عامِدِينَ إلى ما سُجِّلَ لَدَيْهِمْ مِنْ عُنْوانٍ. لكِنَّ حَيْرَتَهُمْ زادَتْ لَمَّا لَمْ يَعْثُرُوا لِلْبَيْتِ عَلى أَثَرٍ. فَاسْتَعانُوا على مَعْضِلَتِهِمْ بِبَعْضِ المارَّةِ، فإذا نَظَرُوا في الْمَكْتُوبِ، قالُوا جازِمِينَ:

ـ لا وُجُودَ لِهَذِهِ العائِلَةِ هُنا بِهَذا الْحَيِّ!... ما سَمِعْنا بِهَذا الاِسْمِ قَبْلاً ثُمَّ إنَّ الْعُنوانَ ذا وَهْمِيٌّ...

طارَ عَقْلُ الْقَوْمِ وشُدِهُوا أَشَدَّ شَدَهٍ ثُمَّ حارُوا في أَمْرِ ابْنَتِهِمْ: هلِ ابْتَلَعَتْها الأَرْضُ؟

أَحَدٌ لَمْ يَفْصِلْ في الأَمْرِ وكَثُرَ الْقِيلُ والْقالُ في بَلْدَةِ مَجَّانَةَ إلى يَوْمِنا هَذا!

حَمَّام قَرْقُور، أَغُسْطُس 1999م

مالُ الآخِرة

اِنْقَضَتْ صَلاةُ الْجَنازَةِ فَمالَ الْمُصَلُّونَ على شُطَفِ الْمَيِّتِ يُغَيِّبُونَهُ الْقَبْرَ وقد شَرَعَ بَعْضُهُمْ يُهِيلُ عَلَيْهِ ذَرَّاتِ التُّرابِ... أو رُبَّما كانتِ الذَّرَّاتُ هِيَ الْقَلِقَةَ على رَدْمِهِ فَزَلَقَتْ نَحْوَ الْفَمِ الْمَنْفَرِجِ تَتْرَى بِدُونِ اسْتِئْذان... وهاهو عَمُّنا السَّعِيدُ كَرَّةً أُخْرَى مَعَ الرَّادِمِينَ. يَبْدُو أَنَّ الْمَخْلُوقَ الطَّيِّبَ، مِنْ إخْلاصِهِ، ما يَدَعُ مَيِّتاً إلاَّ وشَيَّعَهُ وكَأَنَّ طِيبَتَهُ جَعَلَتْهُ يَسْتَشْعِرُ نَحْوَهُ دَيْناً لا بُدَّ أَنْ يُسَدِّدَهُ، وكَأَنَّ الْمَيِّتَ يَبادِلُ الْعَمَّ الشُّعُورَ بِالدَّيْنِ، أَوْ هُوَ يُجازِيهِ على إخْلاصِهِ، فَلا يُعْتِقُهُ إلاَّ بَعْدَ أَنْ يُفَرِّجَهُ على بَعْضِ تَمْثِيلِيَّاتِ الْغَيْب...

وبَيْنَما الْخَلْقُ بَيْنَ تَكْبِيرٍ وتَهْلِيلٍ، تُفارِقُ أَنامِلُهُمْ شُطَفَ الْكَفَنِ بِرِفْقٍ، غَيْرَ مُسْتَعْجِلَةٍ، كَما لَوْ أَنَّ قُوَّةً مِغْناطِيسِيَّةً تَشُدُّهُمْ إلى الْمَكانِ، إلى الْجَسَدِ الْهامِدِ مَعَ أَنَّهُمْ مِنْهُ مُتَهَيِّبُونَ، إذا حافِظَةُ نُقُودٍ تَهْوِي مِنْ "مَكْتُوبِ"[73] بَعْضِ الْحُضُورِ إلى الْفَجِّ الْعَمِيقِ، وسَواءٌ أكانَ بِها كَثِيرٌ أَوْ

[73] "المكتوب" هو "الجيب" بلهجة الجزائر العاصمة.

قَلِيلٌ، فَقَدْ كانَتْ جُمْلَةَ راتِبِهِ. ما انْتَبَهَ أَحَدٌ لِرُعُونَةِ الْحافِظَةِ الشَّقِيَّةِ وأُسْبِلَ عَلَى الْمُغَيَّبِ السِّتَارُ الأَخِيرُ وتَفَرَّقَ الْقَوْمُ...

وطَوَّلَ أَوْ قَصَّرَ وإذا صاحِبُ الدّزْدامِ[74] يَنْتَبِهُ إلى مالِهِ قَدْ غَبَّرَ فاسْتَطْلَعَ زَوْجَهُ فأَنْكَرَتْ مِنْ شَأْنِهِ كُلَّ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ. فَأُسْقِطَ في يَدِ الرَّجُلِ وما كان مِنْهُ سِوَى أَنِ انْقَلَبَ إلى ذَوِي الْفَقِيدِ يَدْعُوهُمْ إلى فَتْحِ اللَّحْدِ نَوْبَةً أَخْرَى عَسَى أَنْ يَلْفِظَ ما قَبَضَ... لَيْسَ لِشَيْءٍ فالْمالُ "وَسَخُ" الدُّنْيا كَمَا يُقالُ والقَبْرُ هُوَ الصَّحِيحُ الْحَقُّ. ولَكِنَّ ذَلِكَ"الْوَسَخَ" بِالآخِرِ مَعاشُ أَطْفالِهِ في ذَلِكَ الْحَوْلِ الطَّوِيلِ الْقَصِيرِ، الْقَصِيرِ الطَّوِيلِ. فَغَضَّ الْقَوْمُ عَنِ "الْكَبِيرَةِ الشَّائنَةِ" ونَفَذَتْ حُجَّةُ الأَفْوَاهِ الصَّغِيرَةِ إلى شُغُفِ قُلُوبِهِمْ النَّافِرَةِ فكَشَفُوا عَنِ الرَّاحِلِ في رَمْسِهِ وما أَوْشَكُوا. ويا لَهَلَعِ اللَّحْظَةِ إذْ أَلْفَوْه مُسْتَلْقِياً على ظَهْرِهِ كَأَنَّهُ يَنامُ قَرِيراً وعَلى صَدْرِهِ تَقْبَعُ الصُّرَّةُ مُتَرَبِّصَةً... إيْ باللهِ، بَدا لِلْقَوْمِ أَنَّها تُعاكِسُهُمْ وأَنَّهُ قَدِ ارْتَسَمَ عَلَيْها خُطُوطُ وَجْهٍ ماكِرَةٍ.

الْمَعْقُولُ أَنَّ الصُّرَّةَ وَقَعَتْ مِنَ الرَّجُلِ بَيْنَ الْكَفَنِ والتُّرابِ، أَمْ كَيْفَ غابَتْ عَنْ كُلِّ الْحاضِرِينَ لَحْظَةَ وُقُوعِها، فَمَا شَهِدَها إنْسانٌ ؟

على أَيَّةِ حالٍ، اِسْتَرْجَعَ صاحِبُ الْمِلْكِ مِلْكَهُ وسُدَّتْ ثَغْرَةُ الْقَبْرِ، وأُغْلِقَتْ بَوَّابَةُ الآخِرَةِ ـ ولَوْ إلى حِينٍ ـ وانْكَفَأَ كُلٌّ إلى دُنْياهُ.

---

[74] الدّزدام: حافِظَة النُّقود.

وطَفِقَتْ كُبَّةُ الشَّهْرِ تَنْسَلِخُ فَانْقَرَضَ مِنْها نِصْفٌ أَكَلَهُ جُرْذا الزَّمَنِ بِنَهَمٍ ـ وذانِكَ اثْنانِ لا يَشْبَعانِ ـ وإذا أَنْحاءُ الْحَيِّ تُرْتَجُّ لِصَوْتِ النَّاعِي يُعْلِنُ في الأَهْلِ والْخِلاَّنِ بِأَنَّ صاحِبَكُمْ ذا الصُّرَّةِ في الْقَبْرِ قَدْ قُبِضَ وأَنْ هَلُمُّوا إلى تَوْدِيعِهِ مُسْرِعِينَ!... اُسْتُرُوا أَخاكُمْ يَسْتُرْكُمُ اللهُ!

وقَبْلَ أَنْ يُمْسِك، أَرْدَفَ العمُّ السَّعِيدُ:

ـ نَفِدَ الرَّجُلُ وما نَفِدَ مالُه!

الجزائر العاصمة في 10 يوليه 1999م

هاجَرُ فِي فِرَنْسَا[75]

مِمّا رُوِيَ عَلَيْنا في الْمَسْجِدِ أنّ الشُّرْطَى حَبَسَتْ بَعْضَ الْمُسْلِمِين، وكانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وصَغِيرَةٌ بالِغَةُ الْمَرَضِ.

بَيْدَ أَنَّ الْقاضِيَ اشْتَطَّ فَحَجَزَ عَلَى الرَّجُلِ كُلَّ ما يَمْلِكُ ـ وكانَ مُقْتِراً ـ فَمَا خَلَّفَ لِصَاحِبَتِهِ مِثْقالَ ذَرَّةٍ تُصَرِّفُ بِها أُمُورَها أَوْ تُسْعِفُ بِها ابْنَتَهَا.

وقد كانَتِ الْمَرْأَةُ مَقْطُوعَةً في فِرَنْسا كَمَا غُصْنٍ بِلا شَجَرَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَا تَسْتَنِدُ إِلَيْهِ مِنَ الأَهْلِ أَوِ الأَحْبَابِ. فَجَلَسَتْ في بَيْتِها تَرْمُقُ ذَلِكَ الْجَسَدَ الصَّغِيرَ يَتَعَذَّبُ، تَتَفَطَّرُ كَبِدُها وما تَجِدُ لَهُ حِيلَةً. ثُمَّ إِنَّها شَخَصَتْ بِبَصَرِها إلى السَّماء، ودعتْ مَوْلاهَا بِكُلِّ جَوَارِحِها، كَأَنَّمَا العالَمُ حَوْلَها قَدْ بَهَتَ فَغَدَا شَفَّافاً كَالدُّخَّانِ الْمُتَبَخِّرِ، وكَأَنَّ عقارِبَ السَّاعَةِ قَدْ شُلَّتْ، لأَنَّ كُتْلَةً مِنَ الطّاقَةِ المِغْناطِيسِيَّةِ قَدْ عَلَّقَتْ فُؤَادَهَا إلى سُدْرَةِ الْمُنْتَهَى فَتَفَوَّهَتْ:

[75] برواية عثمان مانات. (حوالي 45 عاما). سُجِّلَ في باريس عام 2007.

ـ يا رَبَّ الأَرْبابِ، يَاأَللهُ، يا مَنْ أَنْجَيْتَ هاجَرَ وابْنَها إسْماعِيلَ في وادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ يُدْعَى بَكَّةَ فَرزَقْتَهُما بِغَيْثٍ مِنَ الْماءِ زَمَّ زَمْ، أَنْجِنِي وابْنَتِي في بِلادِ الْجِنّ، السَّاطِعَةِ شَوارِعُها بِبَهْرَجٍ فاتِنٍ غَمَّ غَمْ.

قالُوا: فَمَا إنْ أَتَمَّتْ دُعاءَها ونَكَسَتْ بِرَأْسِها كَأَنَّها مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ في مَعْبَدِ بَنِي إسْرَائِيلَ، إذا بِقَرْعٍ عَلَى الْبَابِ. فَقامَتْ مُتَسائلَةً فَإذَا طَبِيبٌ عَلَى الْعَتَبَةْ يَسْتَعْجِلُها الرَّدّ:

ـ أَيْنَ الْبُنَيَّة؟

أَجابَتْ شِبْهَ سَكْرَى:

ـ هِيَ هُناكَ.

فَاتَّجَه إلَيْها دُونَ انْتِظارٍ وتَفَحَّصَها حَتَّى عَرَفَ دَاءَها. عِنْدَئذٍ، سَقَاهَا ما يُخَفِّفُ عَنْها الأَلَمَ وخاطَبَ الْوَالِدَةَ:

ـ أَحْضِرِيهَا إلى عِيادَتِي غَداً، مَعَ أَوَّلِ ساعَةٍ.

أَجَابَتْهُ خَجِلَةً:

ـ أَخْشَى أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيَّ ذَلِكَ.

سَأَلَ دَهِشاً:

ـ وَلِماذَا؟

أَجَابَتْ مُضْطَرِبَةَ اللَّحْظِ، تَفِرُّ بِهِ يَمِيناً وشِمالاً:

ـ لَيْسَ لِي ما أَدْفَعُ بِهِ حُقُوقَك.

اِسْتَمَرَّ:

ـ ما دُمْتِ لا تَمْلِكِينَ ما يَلْزَمُنِي، لِمَ دَعَوْتِنِي بِالهاتِف إذاً؟

دُهِشَتْ:

ـ سَيِّدِي... ما دَعَوْتُكَ قطُّ.

أَلَحَّ الطَّبِيبُ مُسْتَغْرِباً:

ـ بلْ دَعَوْتِنِي ولِذَلِكَ أَتَيْتُ.

وسُرْعانَ ما أخْرَجَ لَها وَرَقَةً خطَّ عَلَيْها بِكِتابَةٍ عَجْلَى:

ـ أَلَيْسَ هَذَا عُنْوَانَكِ ورَقَمَ عِمارَتِكِ؟

ـ بَلَى، هُوَ عُنْوَانِي ومَعَ ذَلِكَ، أُؤَكِّدُ لكَ أَنَّنِي ما دَعَوْتُكَ... عِلاوَةً على فَقْرِي، أَنا أَجْهَلُ حَضْرَتَكَ لا مُؤاخَذَة، فَكَيْفَ عَسَى أَنْ أَدْعُوَكَ؟

زَادَ عُجْبُ الطَّبِيبِ وتَفَوَّهَ:

ـ ما حكايتُكِ؟

فَرَوَتْ عَلَيْهِ قِصَّتَهَا وهُوَ يَسْتَمِعُ بِصَمْتٍ حَتَّى إذَا فَرَغَتْ، قالَ:

ـ وَمَعَ ذَلِكَ، فهَاتِي صَغِيرَتَكِ إلى عِيادَتِي غَداً.

وأَوْصَى مُساعِدَهُ بِهِمَا وبِأَنْ يُولِيَهُما عِنايَةً خاصَّةً ولا يَسْأَلَهُمَا شَيْئاً.

والْحَقِيقَةُ أَنَّ إحْدَى جاراتِ الْمَرْأَةِ، مَرِضَتْ ابْنَتُها في ظَرْفٍ وَاحِدٍ مَعَ صَغِيرَتِنَا، فَدَعَتْ الطَّبِيبَ على أَنَّ اللهَ بَدَّلَ طَرِيقَهُ فَأَخْطَأَ الْبابَ فكَانَ غَلَطاً فِيهِ صَوَابٌ.

(بارِيس، 2008م)

نُورُ الْبَدْرِ[76]

زَعَمُوا أَنَّ غُلاماً مِنَ الْغُلْمانِ أُصِيبَ بِشَيْءٍ غَرِيبٍ. إذا اكْتَمَلَ الْبَدْرُ، صَحَا مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ، فَعَجَزَ عَنْ تَحْرِيكِ أَدْنَى شَعْرَةٍ مِنْ جَسَدِهِ وقَدْ شُلَّتْ أَعْضاؤُهُ جُمْلَةً.

بَيْدَ أَنَّهُ، مَعَ الزَّمَنِ، تَعَلَّمَ الْمُقاوَمَةَ فكانَ يَبْذُلُ جَهْداً رَهِيباً كَيْ لا يَغْلِبَهُ سُباتٌ قاتِلٌ ثُمَّ يُجْبِرُ نَفْسَهُ على الْحِراكِ بِرَفْعِ إِصْبعٍ فَيَدٍ فَسائِرِ بَدَنِهِ.

وكَبُرَ الْغُلامُ فَأَضْحَى شابّاً يافعاً، وإذا بِهِ يَعْزِمُ، في لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيالِي الْبَدْرِيَّةِ، أَلاَّ يُقاوِمَ مُخَمِّناً:

ـ إنَّما تِلْكَ سِنُونَ وأَنا أقاوِمُ. وقَدْ تَعَوَّدَتُ الأَمْرَ الآنَ. فَما عَسَى أَنْ يُصِيبَنِي لَوْ أَنا هَدَأْتُ؟

وصَبَرَ ولَكِنَّ دَقَّاتِ قَلْبِهِ تَسارَعَتْ وهَلَعَ فَؤادُهُ فعادَ إلى الْمُقاوَمةِ لَمْ يُطِلْ. على أَنَّهُ جاهَدَ نَفْسَهُ في الْمَرَّةِ الْمُوالِيَةِ، وثَبَتَ لِلْمُقاوَمَةِ بِكُلِّ بَسالَةٍ حَتَّى بَزَّها مُنْتَصِراً. عِنْدَئِذٍ، وهُوَ مُغْمَضُ الْعَيْنَيْنِ، شَعَرَ بِأَنَّ شَيْئاً قَدْ

---

[76] سُجِّلت عام 2007م.

تَسَلَّلَ إلى غُرْفَتِه، على أَنَّهُ لَمْ يَتَبَيَّنْهُ فَطَارَ قَلْبُهُ ولَكِنَّهُ أَسْلَمَ أَمْرَهُ للهِ داعِياً:

ـ يَا رَبُّ لا تَخْذُلْنِي.

عِنْدَئِذٍ، كَشَفَ اللهُ لَهُ الْحِجَابَ فَرَأَى نُوراً يَجْتازُ حُجْرَتَهُ بِسُرْعَةٍ، وتَبَيَّنَ لَهُ فِي النُّورِ كَالأَسَدِ يَرْكَبُهُ مَلَكٌ يَطِيرانِ، وسَمِعَ الْمَلَكَ يَقُولُ كَلِمَتَيْنِ وَحِيدَتَيْنِ:

ـ الآنَ انْتَهَى.

ثُمَّ رَأَى السَّبُعَ يَهْجُمُ على الشَّيْءِ ذاكَ ويَخْرُج مِنَ النَّافِذَةِ الَّتِي كانَ شِقُّها مَفْتُوحاً إِذِ الْمَوْسِمُ صَيْفٌ. ومِنْ يَوْمها شُفِيَ الْفَتَى نِهائِيّاً.

(بارِيس، 2008م)

فِي زَنَقاتِ تِلَمْسانَ[77]

فِي عاصِمَةِ بَنِي عَبْدِ الْواد، فِي مَحَلَّةِ أَبِي يَحْيَى يَغْمُراسِنَ، كانَ لِزَنَقاتِ الأَرْبَعِينِيّاتِ رَوْنَقٌ خاصٌّ. كانَتْ تِلَمْسانُ آنذاكَ رائِعَةً بِالنَّكْهَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ الْعَتِيقَةِ وكانَ يَحْمِلُ شَذاها عِطْراً أَصِيلاً يُنْعِشُ الْقُلُوبَ.

وكانَ يَزِيدُها رَوْنَقاً على رَوْنَقِها، هَؤُلاءِ الصِّبْيَةُ الْمَرَدَةُ الّذِينَ ما عرفتُ بَعْدُ هلْ إنْساً كانُوا أمْ هُمْ مِنَ الْجانِّ.

عَفارِيتُ يَنُورُونَ فِي أَرْوِقَتِها، يَسِيلُونَ بَيْنَ مَمَرّاتِها، يُفْشُونَ فِيها الْبَشاشَةَ رُغْمَ عُبُوسِ الْحَياةِ ويَقْلِبُونَها رَأْساً على عَقِبٍ بِحِيَلِهِمِ الذَّكِيَّةِ وحَرَكاتِهِمْ الشَّيْطانِيَّةِ.

أَنْتُمْ أَيُّها الشُّيُوخُ الّذينَ تَقْرَأُونَنِي، عَلَّ فِيكُمْ مَنْ قَدْ عَرف نَفْسَهُ فِي بَعْضٍ مِنْ تِلْكَ الأَطْوَارِ... تَكْتَسُونَ الْيَوْمَ حُلَّةً مِنَ الْوَقارِ والْبَجالَةِ ولَكِنَّ ذاكِرَتَكُمْ عَسَى أَنْ تُمَثِّلَ لَكُمْ بَعْضَ صُوَرٍ مِنْ تِلْكَ الْعَفْرَتَةِ الّتِي كُنْتُمْ تَحْذِقُونَها وتَبْرَعُونَ فِيها أَيَّما بَراعَةٍ!

---

[77] من ذكريات السّيّد مصطفى إينال عن طفولته في مدينة تلمسان.

لا تَخْشَوْا شَيْئاً، لَنْ أَفْضَحَكُمْ عِنْدَ أَحْفادِكُمْ فَلَكُمْ عَلَيْهِمْ كُلُّ الاِحْتِرامِ والطَّاعَةِ وغَيْرُ ذلِكَ باطِل؟!... وبَيْنِي وبَيْنَكُمْ، إنَّهُ لأُنْسٌ كانَ وغابَ مِنْ زَنَقاتِ تِلَمْسانَ فَطُوبَى لَكُمْ أَنْ عِشْتُمُوهُ واسْتَلْذَذْتُمْ بِهِ.

ولَوْ أَنِّي لَمْ أَسْتَمْتِعْ وإِيَّاكُمْ بِتِلْكَ الأَيَّامِ، ولَوْ أَنِّي لَمْ أَسِحْ مَعَكُمْ بَيْنَ جَنَباتِ مَدِينَتِكُمْ الْعَصْماءِ، على أَنَّ الْخَيالَ يَنْقُلُنِي إلى طُفُولَتِكُمْ أُلامِسُ بِأَنامِلِي الْمُرْتَعِشَةِ أَطْيافَكُمُ الشَّفافَةَ وكَأَنَّنِي فِيكُمْ ومِنْكُمْ. أَتَمَثَّلُكُمْ بَيْنَ جُدْرانِ الْمُرابِطِينَ وحِيطانِ عبدِ الْمُؤْمِنِ، أَتَخَيَّلُكُمْ وَسَطَ صُرُوحِ بَنِي عُثْمانَ وأَعْمِدَةِ الزِّيانِيِّينَ، في بَهاءٍ ما فَوْقَهُ بَهاءٌ. أُبْصِرُكُمْ تَنْسِلُونَ إلى سُوقِ الْمَدِينَةِ الْبَهِيِّ، وبَيْنَ سِكَّاتِهِ الْمُلْتَوِيَّةِ، تَنْظُرُونَ يَمْنَةً ويَسْرَةً، ثُمَّ يَسْتَقِرُّ عَزْمُكُمْ على صاحِبِ الدُّلاعِ. دُلاعٌ أَخْضَرُ أَحْمَرُ زَرْكَشَتْهُ أَيادٍ خارِقَةٌ يَسِيلُ لَهُ اللُّعابُ بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ إِلَيْهِ. كُلُّ حَبَّةٍ مِنْهُ بِلَوْنِ الْجَنَّةِ مِنَ الظَّاهِرِ وبِلَوْنِ الْقَلْبِ الْمُفْعَمِ بِالْعِشْقِ مِنَ الْباطِنِ.

يا لَها مِنْ حَبَّات!... وكَأَنَّ بائِعَها قَدْ أَدْرَكَ أَنَّ فاكِهَتَهُ إِنَّما هِيَ مِنْ نِعَمِ الْفِرْدَوْسِ فَرَتَّبَها على طاوِلَتِهِ في شَكْلِ هَرَمٍ مَقْلُوبٍ فَجاءَتْ رَأْسُهُ إلى الأَرْضِ وقاعِدَتُهُ إلى السَّماءِ. كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنِ اتِّساعِ الْعَيْشِ في الْجَنَّةِ وضِيقِهِ على الأَرْضِ، أَوْ كَأَنَّهُ حَيَّةٌ فاغِرَةٌ فاها نَحْوَ السَّماءِ تُنادِي:

ـ هَيَّا يا حَبَّاتِ الْجَنَّةِ... اُدْخُلِي في لَهاتِي، غُورِي في أَحْشائِي... هَلْ مِنْ مَزِيد؟

اللَّهُمَّ اِجْعَلِ الْحَبَّاتِ يَكْثُرْنَ في تِلَمْسانَ "مَحْرُوسَةِ الآلِهَةِ"! اللَّهُمَّ اِجْعَلْ فاكِهَةَ الْفِرْدَوْسِ تَزْدَهِرُ في كُلِّ قُرْنَةٍ مِنَ الْمَشْوَرِ!

أَوْ كَأَنَّ الْبائِعَ الأُمِّيَّ يَبْغي أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ فَلْسَفَةٍ غَرِيبَةٍ، غامِضَةٍ في ارْتِقاءِ الإِنْسانِ أَسْبابَ السَّماءِ دَوْماً في عُرُوجٍ واتِّساعٍ...

ما أَدْرِي ما التَّعْلِيلُ بِالضَّبْطِ إِلاَّ أَنَّ الدُّلاعاتِ كَذَلِكَ مُرَتَّبَةً زادَتْ إِغْراءً وفِتْنَةً فَسُحِرْتُمْ بِها ـ أَنْتُمْ أَيُّها الْعَفارِيتُ ـ وحَلَفْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا نِظامَ الأَشْياءِ. وكَوَهَجِ النَّقْعِ، مَرَرْتُمْ جَنْبَ الدُّلاعاتِ الْجَمِيلَةِ، جَنْبَ الْبائِعِ الْفَكِهِ بِتَرْتِيبِهِ، الزَّاهِي بِبِضاعَتِهِ، وكَأَنَّكُمْ لا تُبالُونَ جَعَلْتُمْ تَتَحَسَّسُونَ الْحَبَّاتِ أَيَّهُنَّ تَسْتَأْهِلُ لَمَساتِكُمْ، تَتَبادَلُونَ الْمُلاحَظاتِ والأَفْكارَ في الْجَوْدَةِ والنَّوْعِيَّةِ وقَدْ عُلِّقَتْ رُوحُ الْبائِعِ الْمِسْكِينِ هَلَعاً لِقَرارِكُمْ. ثُمَّ في لَمْحِ الْبَصَرِ ولا أَدْرِي مَتَى بِالضَّبْطِ، لَوَى أَحَدُكُمْ على الدُّلاعاتِ النَّضِرَةِ وبِحَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ لَمْ يُسَجِّلْها أَحَدٌ، جَذَبَ تِلْكَ الَّتِي تُمْسِكُ الأَساسَ فَتَهَدَّمَ الْبِناءُ وانْسَلَخَتِ الْحَبَّاتُ مُتَدَحْرِجاتٍ على الطَّرِيقِ الْواحِدَةَ تِلْوَ الأُخْرَى، مَجْنُوناتٍ، مَهْوُوساتٍ، تَتَقاذَفُها أَقْدامُ الْمارَّةِ كَما لَوْ كانَتْ في مَلْعَبِ كُرَةٍ، وتَمُوتُ الابْتِسامَةُ على وَجْهِ الْبائِعِ الْمِسْكِينِ وقَدْ وَجَمَ...

إِنِّي أَعْلَمُ خَباياكُمْ يا شُيُوخَنا الْكِرامَ. وإِنَّنِي لأَتَمَثَّلُ وَجَناتِكُمْ تَحْمَرُّ حِشْمَةً وخَوْفَ أَنْ يَكْتَشِفَ أَحْفادُكُمْ شَطارَتَكُمْ فَيَكُفُّوا عَنْ بِرِّكُمْ ويَعُوقُوكُمْ، أَوْ يَفْعَلُوا مِثْلَكُمْ ويُقَلِّدُوكُمْ، ولَكِنْ لا تَخْشَوْا شَيْئاً، لَنْ أَفْضَحَكُمْ بِما أَنِّي أُعِزُّكُمْ...

ومَعَ ذَلِكَ فَما يَزالُ في جُعْبَتِي أَشْياءُ مِنْ ماضِيكُمْ. لَحْظَتَها كُنْتُمْ تُبْصِرُونَ الْحَبَّاتِ يَتَراقَصْنَ في السُّوقِ، كُنْتُمْ تَمْتَلِئُونَ كَيْداً وتَفِيضُونَ مَكْراً بَلْ وتَتَهَوَّرُونَ شَطَطاً فَتُعْلِنُونَ أَنْ تِلْكَ لَيْسَتْ إِلاَّ الْبِدايَةَ. ثُمَّ تَتَمَلَّصُونَ

مِنْ قَبْضَتَيْ الْخَضَّارِ وتَغْرَقُونَ في إِحْدَى الزَّنَقاتِ الْمُتَشَعِّبَةِ فيَتَوارى أَكْثَرُكُمْ خَلْفَ بَعْضِ الْعَرَصاتِ الْقَدِيمَةِ الّتِي ما تَزالُ واقِفَةً، تَرْفَعُ "جَوْهَرَةَ الْمَغْرِب" على هاماتِها عالِيَةً ثابِتَةً، ويَقْبَعُ أَحَدُكُمْ في رُكْنٍ مُتَسَتِّرٍ يُمْسِكُ بَيْنَ الإِبْهامِ والْبَنانِ خَيْطاً رَفِيعاً طَوِيلاً بَيْنَما يَتَوَجَّهُ أَخُوهُ إلى دُكَّانَةِ الْخَفافِجِيِّ وبِيَدِهِ إِبْرَةٌ مُسْتَتِرَةٌ، فَبِحَرَكَةٍ عَشْوائِيَّةٍ تَبْدُو بَرِيئَةً يَجُسُّ الإِسْفَنْجاتِ ويَزِنُها مُعَلِّقاً:

ـ آهٍ ما أَحْلاها، ما أَطْيَبَها!

ثُمَّ، في خِفَّةٍ، يَرْشُقُ الإِبْرَةَ في الْخَفافَةِ الّتي بَيْنَ يَدَيْهِ ويَجْذِبُ صاحِبُهُ الْمُخْتَفِي على الْخَيْطِ فَتَطِيرُ الإِسْفَنْجَةُ في السَّماءِ كَأَنَّها مَحْمُولَةٌ فَوْقَ جَناحَيْ طَيْرٍ لا مَرْئِيٍّ، أَوْ كَأَنَّ بَعْضَ الْكائناتِ الْعَجِيبَةِ يَنْفُخْنَ فِيها شَهِيقاً زَفِيراً فَتَرْتَفِعُ الْفَطِيرَةُ في الْجَوِّ مُتَطايِرَةً، مُرْتَعِشَةً. ويا لَفَضاعَتِكُمْ وشَقائِكُمْ! تَتَطَلَّعُونَ في الْخَفافِجِيِّ الْمَغْبُونِ ـ مُتَمَزِّقِي الأَشْداقِ ضَحِكاً ـ يَسْتَعِيذُ اللهَ مِنَ الشَّياطِينِ والْجِنِّ صارِخاً:

ـ يا عِبادَ الرَّحْمنِ... شُوفُوا الْجِنُونْ، شُوفُوا الْجِنُونْ!

***

تَتَطارَدُ أَيّامُكُمْ مُتَشابِهَةً على وَتِيرَةٍ مِنَ اللَّهْوِ والْمَرَحِ. وبَيْنَما تَمْلأُ الرَّتابَةُ والْكَآبَةُ دارَ "السْبِيطارْ"، بَلْ وتَتَعَدَّى حُدُودَها إلى تُخُومِ الْمَنْصُورَةِ وأَغادِيرَ، تَخْفِقُ في عُرُوقِكُمْ نَبَضاتُ الزَّهْوِ والْفَرَحِ، ولا تَخْلُو ساعاتُكُمْ وأَيّامُكُمْ مِنْ أَلاعِيبِ الْهُزْءِ والسُّخْرِيَةِ. يا لَمُفارَقَةِ الْحَياةِ! ويا لَتَضارُبٍ لا يُحْسِنُ وِئامَهُ سِوى أَطْفالٍ على شاكِلَتِكُمْ! أُولاءِ الّذِينَ يَعْرِفُونَ كَيْفَ

يَسْكُبُونَ، بِبَراءَتِهِمْ، أَلْواناً مُتَأَلِّقَةً في رُبْدَةِ الأَيَّامِ ويَجْعَلُونَ الأَسْماعَ تُصْغِي إلى أَنْغام الْحَياةِ وشَذْوِها الطَّرُوبِ مَهْماً عَسُرَتْ خُطُوبُها وتَعَقَّدَتْ خُيُوطُها وتَشابَكَتْ ظُرُوفُها.

مَهْماً يَكُنْ! هاهِي ذِي الأَيَّامُ تَتَسابَقُ إلى الْمَوْتِ، يَدْفَعُ بَعْضُها بَعْضاً ثَقِيلاً مُغْبَرّاً. أَمَّا تِلَمْسانُ، فَتَنْطَوِي بِها السَّاعاتُ سَلِسَةً لَذِيذَةً لِمَنْ يُحْسِنُ النَّظَرَ إلى الأَشْباحِ الْبَهْلَوانَةِ في حُجُبِها تَشْطَحُ، وقاتِلَةً كالِحَةً لِمَنْ يَرْزَأُ تَحْتَ شَظَفِ الْعَيْشِ لا يَسْتَقِيمُ عُودُهُ ولا تَبْسَمُ عَيْناهُ لِخُطُوطِ الْفَجْرِ.

تَتَزاحَمُ الأَيَّامُ ويَحِلُّ سَيِّدُنا رَمَضانُ، وفي مَدِينَةِ سَيِّدِي أَبِي مَدْيَنَ شُعَيْبٍ، لَمْ يَكُنْ يوجَدُ يَوْمَئِذٍ مُكَبِّراتُ صَوْتٍ تَحْمِلُ نِداءَ الْمُؤَذِّنِ إلى الدِّيارِ، ولا تَلافِيزُ تَنُوبُ عَنْهُ في الْحَثِّ على الصَّلاةِ والْفَلاحِ، ولا غَيْرُها مِنْ هَتِهِ الأَجْهِزَةِ الْحَدِيثَةِ الّتِي أَخْطَأَتْ مَهَمَّتَها وأَضْحَتْ، بَدَلاً مِنْ بَثِّ السُّرْعَةِ في خُطَى الْمُؤْمِنِينَ إلى الْمَساجِدِ وآداءِ الْمَناسِكِ تَخْفِرُهُمُ الْمَلائِكَةُ، تُثَبِّطُهُمْ عَنِ الْمَواعِيدِ مَعَ الإلٰه.

آنَذاكَ، كانَ أَهْلُ تِلَمْسانَ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ تَواضَعُوا على عُرْفٍ جَمِيلٍ فَحْواهُ أَنْ يُكَبِّرَ أَطْفالُ الْحَيِّ الّذي بِهِ الْمَسْجِدُ الْكَبِيرُ، عِنْدَ الْمَغْرِبِ، تِلْوَ الشَّيْخِ مُباشَرَةً، فإذا سَمِعَهُمْ أَطْفالُ الْحَيِّ الْمُجاوِرِ حَدَّ حَدَّ، كَبَّرُوا كَذَلِكَ وهَكَذا دَوالَيْكُمْ حَتَّى يُخْبَرَ كُلُّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الأَتْقِياءُ بِمَوْعِدِ الأَصِيلِ فَيُفْطِرُوا على بَرَكَةِ اللهِ، مُتَقَبَّلٌ مِنْهُمْ الصِّيامُ مِنَ الأَعْلَى الأَجَلِّ بِإِذْنِهِ تَعالَى.

كَأَنَّ أَهْلَ تِلَمْسانَ الْقُدَماءَ أَدْرَكُوا، بِتَقْلِيدِهِمْ هاذاكَ، الإِصْرَ الْوَثِيقَ بَيْنَ الْمَسْجِدِ والطِّفْلِ... أَلْفَوْا الْمَسْجِدَ طَهارَةً والطِّفْلَ بَراءَةً... الْمَسْجِدَ مَحَبَّةً والطِّفْلَ أَيْضاً... الْمَسْجِدَ تَواضُعاً وخُشُوعاً والطِّفْلَ مِثْلَهُ أَيْضاً، فَلَمْ يَرَوْا مِنْ ضَيْرٍ في سَكْبِ الطِّفْلِ في الْمَسْجِدِ والْمَسْجِدَ في الطِّفْلِ.

أَمَّا أَنْتُمْ يا أَعِزَّائِي، فَلَعَلَّكُمْ كُنْتُمْ مِنْ طِينَةٍ غَيْرِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْها صِبْيانُ الإِنْسانِيَّةِ... أَمْ كَيْفَ تُوحِي لَكُمْ شَقاوَتُكُمْ أَنْ تَصْنَعُوا ما صَنَعْتُمْ؟ كَيْفَ تَبُثُّ فِيكُمْ فَضاعَتُكُمْ أَنْ تَفْسَخُوا على مُتَعَبِّدِي "مَحْرُوسَةِ الآلِهَةِ" صِيامَهُمْ؟ بِضْعُ دَقائِقَ قَبْلَ الْمَغْرِبِ الْمُكْتَمِلِ... مُجَرَّدُ لَحَظاتٍ رَهِيفَةٍ مَعْدُودَةٍ... ولَمَّا يَتَحَلَّقُ التِّلَمْسانِيُّونَ حَوْلَ مَوائِدِهِمْ الْمَنْصُوبَةِ حَرِيرَةً وبَسْطِيلَةً وأَلَذَّ أَنْواعِ الْمَأْكُولاتِ في الْمَطْبَخِ الأَنْدَلُسِيِّ الْفاخِرِ، يَنْتَظِرُونَ بِصَبْرٍ فارِغٍ ساعَةَ الْعِتْقِ، إذا بِكُمْ تَطَؤُونَ خَشَبَةَ الْمَسْرَحِ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ، وتَخْلَعُونَ عَنِ الشَّيْطانِ بَذْلَتَهُ تَتَقَمَّصُونَها بِسُرْعَةٍ، وتُكَبِّرُونَ في حَيِّكُمْ دَقِيقَةً أَوِ اثْنَتَيْنِ أَوْ رُبَّما ثَلاثاً قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَيَتَهافَتُ الْمُؤْمِنُونَ الصَّائِمُونَ على مَلاعِقِهِمْ، يَحْتَسُونَ مُحْتَواها بِلَهْفَةِ الْمُغْرَمِ وشَوْقِ الْمَحْرُومِ، يَكادُونَ يَبْتَلِعُونَ صَحْفاتِهِمْ جُمْلَةً. ويا لَغُصَّةٍ مُهْلِكَةٍ يَرْبَدُّ لَها الْمُحَيَّا وتَجْحَظُ لَها الْعَيْنانِ إِذْ يَتَبادَرُ إلى أَسْماعِهِمْ صَدى أَذانٍ رَسْمِيٍّ صَحِيحٍ وتَسْرِيحٍ أَكِيدٍ!... يا لَفَعْلَتِكُمْ الَّتِي فَعَلْتُمُوها!... ولَكِنْ حَمْداً للهِ أَنْ ثَمَّةَ رَبٌّ رَحِيمٌ غَفُورٌ وَحْدَهُ يُصَرِّفُ الأَحْكامَ.

***

ثُمَّ تَنْسَلِخُ الشُّهُورُ ويَلِجُ قَمَرٌ في قَمَرٍ ويَحْضُرُ عِيدُ النَّصارَى... عَسَى أَنْ يَكُونَ عِيدَ الصُّعُودِ... لا أَدْرِي بَالضَّبْطِ فأَنْتُمْ أَبداً لَمْ تَفْهَمُوا شَيْئاً في تِلْكَ الْمَواسِمِ الْغَرِيبَةِ عَنْ عاداتِكُمْ وثَقَافَةِ آبائكُمْ. يجيءُ الْعِيدُ إذاً ويَتَظاهَرُ الْقِسِّيسُ مُتبَخْتِراً في قُفْطانِهِ الْمُوَشَّى وَخَلْفَهُ غِلْمانُ كَنِيسَتِهِ ومَعْشَرُ كَهَنُوتِهِ. ويَصْطَفُّ مُسْلِمُو تِلَمْسانَ على جانِبَيْ الطَّرِيقِ مُتفَرِّجِينَ. وتَقِفُونَ أَنْتُمْ أَطْفالَنا مَعَ الْواقِفِينَ. ثُمَّ تَتَخَمَّرُ في أَذْهانِكُمْ فِكْرَةٌ عَجِيبَةٌ وتَغْدُونَ تَتَساءَلُونَ في شَأْنِ الرَّاهِبِ هَلْ يَرْتَدِي تَحْتَ غَفَّارَتِهِ تُبّاناً أَمْ لا يَرْتَدِي؟ ويَحْتَدُّ بَيْنَكُمُ الْجِدالُ ويَتَفاقَمُ اللَّغَطُ ثُمَّ هاأَنْتُمْ تَتَراهَنُونَ وتَدْفَعُونَ بِأَصْغَرِكُمْ يَأْتِكُمْ بِالْخَبَرِ الْيَقِينِ. فَتَناوَلَ الصَّغِيرُ قَضِيباً، وبَعْدَ أَنْ خَرَقَ الصَّفَّ، دَنا مِنَ اللَّهُوتِيِّ وبِكُلِّ ظَرْفٍ، رَفَعَ قُفْطانَهُ لِيَنْظُرَ وما كانَ مِنْكُمْ سِوَى أَنِ انْفَجَرْتُمْ ضاحِكِينَ، وعلى أَعْقابِكُمْ مُنْقَلِبِينَ، تَنْحَجِبُونَ كَفِصِّ الْمِلْحِ يَذُوبُ بِأَسْرَعِ وَقْتٍ بَيْنَما أَكَلَ أَخُوكُمُ الْمَغْبُونُ "سَوْطَةً" ما يَزالُ يَذْكُرُها إلى الْيَوْمِ.

(حمّام قرقور، 1999م)

خَرّاطة

أجْمَلُ ما في خَرَّاطَةَ سَدُّها الْعَظِيمُ. أَوْ لَعَلَّها جِبالُها الْمُخْتَنِقَةُ في ضِيق. أَوْ رُبَّما أَجْمَلُ مِنْ هَذا وذاكَ مناظِرُها الْخَلاَّبَةُ بِدُونِ اعْتِدال... لا أدري في الْواقعِ، فاعْذُرُونِي من فَضْلِكُمْ! تلك حَيْرَةُ الطّرب أخذتْ بمَجامِعِ عَقْلِي وما الْعاشِقُ بِمَعْذُول...

إلاَّ أنَّ جمالَ سَدِّها عَرَضِيٌّ فانٍ لأنَّهُ أَشَدُّ ما يَبْزُغُ في وَقْتِ الأَصِيل؛ عِنْدَما تَنْتَشِرُ حُمْرَةُ الْغُرُوبِ على خُضْرَةِ الْمِياهِ فَتَنْكَشِفَ على سَطْحِهِ بُقَعٌ فاتِرَةُ اللَّوْنِ وأَخْرَى أَغْمَقُ مُشَلْشَلَةٌ كُلُّها بِالذَّهَب.

ولا أُخْفِي عَلَيْكُمُ أنَّ مِياهَ السَّدِّ، مَهْماً تَبْهَرُنِي وتَشُدُّنِي. إلاَّ أنَّها، في الْحِينِ ذاتِهِ، تُخِيفُنِي، تُرْعِبُنِي لأَنَّها بِالآخِرِ دَوَّامَةٌ قَوِيَّةٌ تَحْمِلُ الْمَوْتَ في كُلِّ شِبْرٍ مِنْ أَجْزَائِها؛ مَوْتٌ بِدُونِ قَبْرٍ، أنا الّتي أُوثِرُهُ عَلى الأَرْضِ، في فِراشِي، كَأَجْبَنِ النَّاس!

جِبالُها أَيْضاً آيَةٌ في الْحُسْنِ، فَذَّةٌ، أَخَّاذَةٌ، رائعَةٌ بِأَلْوَانِها الْمَمْتَزِجَةِ، الْمَتَداخلَةِ، تَتَلاعَبُ بِها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ ونَسَماتُ الأَثِيرِ فَتَتَبَدَّلُ كَقَوْسِ

قُزَح. زادَها رَوْنَقاً أَشْجارُ السَّرْوِ الدَّائِمَةُ الْخُضْرَةِ الّتي نَبَتَتْ عَلى قِمَمِها، دَكْناءَ كَالْبُرْقُعِ يُخْفِي صُخُورَها.

وبِها شَلاَّلٌ يَشُدُّ الأَنْفاسَ، تَتَقَطَّعُ لَدَيْهِ الشَّهقاتُ افْتِتاناً بِرُؤْيَةِ لُجَيْنِهِ يَتَدَفَّقُ في صَخَبٍ، تُرافِقُهُ مُوسِيقا كَحِسِّ الْبِدَرِ لَمَّا تُغَطِّي سَبائِكُهُ سَفْحَ الْوَادِي السَّحِيق.

ومع ذلك فإنّ نَفْسِي تَسْتَدِيرُ مائِلَةً عَنْ ذَلِكَ الرَّسْمِ الإِلَهِيِّ الْكَامِلِ، لأَنَّ لَوْحاً تَذْكارِيّاً ضُرِبَ عالِياً عَلى صَدْرِ أَحَدِ الأَطْوَادِ الذَّاهِبَةِ أَوْتادُها عَمِيقاً في الأَرْضِ، الثَّابِتَةِ قِلاعُها أَكِيداً في خَرَّاطَةَ، قَدْ نُقِشَتْ عَلَيْهِ حُرُوفٌ مِنَ الصَّخْرِ: هُنَا سَقَطَ خَمْسَةٌ وأَرْبَعُونَ أَلْفاً مِنَ الشُّهَدَاءِ في الثَّامِنِ مِنْ مَايُو خَمْسَةٍ وأَرْبَعِينَ تِسْعِمِئَةٍ وأَلْفٍ (1945م).

تَنْظُرُ عَيْنايَ في شِعابِ الْمَكانِ وأَتَخَيَّلُ عِظَامَ الْمَوْتَى نَخِرَةً تَتَنَاثَرُ هُنَا وهُنَاكَ تَحْتَ الْغِشاوَةِ الرَّقِيقَةِ مِنَ الْعُشْبِ، وأَنَّهُ يَكْفِي نَبْشُها بِظُفْرِ السَّبَّابَةِ حَتَّى تَعُودَ إلى الظُّهُورِ مُنادِيَةً بِالْحَقِّ، مُطالِبَةً بِمُجازَاةِ سَفَّاحِينَ ما يَزَالُونَ يَسْعَوْنَ طُلَقاءَ، بَلْ وتُقَدَّمُ لَهُمُ الشَّعائِرُ تَكْرِيماً لَتارِيخِهِم الْعامِرِ بِفِعالٍ غُمِرَتْ ولَمْ تُغْمَرْ، لأَنَّ الإِجْرامَ في حَقِّ الشُّعُوبِ دَلالاتُهُ تَتَفاوَتُ ولأَنَّ الْمَوْتَ بَيْنَ بَنِي آدَمَ فِيهِ تَفاضُل... يَبْدُو أَنَّهُ بَيْنَهُمْ خِلافٌ، لِبَعْضِهِمْ أَلِيمٌ ولِبَعْضِهِم الآخَرِ دَأَبٌ يُعادُ مُسَلْسَلُهُ بِاسْتِمْرار...

يَتَقَزَّزُ بَدَنِي وأَفِرُّ مِنَ الرُّؤْيَا باحِثَةً عَنْ شَيْءٍ آخَرَ يَسْتَهْوِي النَّظَرَ ويُغْرِي بِالْوُجُودِ... أَجَلْ، أَفِرُّ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَنْقُوشَةِ في الصَّخْرِ إلى شَيْءٍ ما يُمْتِعُ الْبَصَرَ. كلاَّ ما أَهْرُبُ مِنْ رِيحِ الشُّهَداءِ بَيْنَ الْفِجاج، وهُمْ

فِي مَحالِّهِمْ ذلك منَ الْهِضابِ، في قِطْعَةٍ مِن الْفِرْدَوْس. لَكِنَّ الشُّهَداءَ في الْجَنَّةِ (أَحْياءٌ يُرْزَقُونَ)، وهُمْ في خَرَّاطَةَ، أَشْلاءٌ لَمْ تُسَقْ قُبُورَها فَدُسْتُ عَلَيْها. في الْجَنَّةِ شُهَدَاءُ يَنْعَمُونَ بِظِلِّ بارِئِهِمْ لأَنَّهُمْ شَرَوْهُ أَنْفُسَهُمْ، وفي خَرَّاطَةَ مَدْفَنٌ كَأَنَّهُ الْقَلِيبُ لأَنَّ رائِحَةَ الْمَواقِدِ تَحْرِقُ الْجُثَثَ، ما تَزالُ تُسَمِّمُ الأَجْوَاءَ ولَوْ سَتَرَها عِطْرُ الصَّنَوْبَرِ ومُخْتَلِفِ الشَّجَر.

أَفِرُّ مِنَ اللَّوْحِ في الْحَجَرِ لأَنَّهُ تَذْكارٌ ثَقِيلٌ عَلى الْفُؤادِ والْخاطِرِ. كلاَّ ما أَفِرُّ مِنْ ماضِيَّ لأَنَّ "مَنْ لا ماضِيَ لَهُ، لا مُسْتَقْبَلَ لَهُ" كَمَا يَقُولُ الْمَثَلُ الصِّينِيُّ، والصِّينُ شَعْبٌ حَكِيمٌ مُنْذُ الأَزَل. إِنَّمَا أَفِرُّ مِنْ ماضٍ لَمْ يَتِمَّ؛ مِنْ كِتَابٍ طُوِيَتْ دَفَّتاهُ قَبْلَ أَنْ يُفْرَغَ مِنْ تَأْلِيفِهِ فَتَشَبَّثْتُ بِحاضِرِي لَمَّا تَشاءَمْتُ مِنْ مُسْتَقْبَلٍ غَيْرِ مَضْمُونٍ. تَشَبَّثْتُ بِحاضِرِي أُعانِدُ الأَيَّامَ الّتي تَتَدافَعُني، تَتَداسَرُنِي مِنْ خَلْف. أَخْشَى مِنَ الأَيَّامِ الّتي تَجْذِبُنِي، تُجَرْجِرُنِي مِنْ عَقائِصِ شَعْرِي إلى مَجْهُولٍ لا أَسْتَسِيغُهُ لأَنَّنِي لا أَتَصَوَّرُهُ. كَيْفَ أَهْفُو إلى مُسْتَقْبَلٍ لَمْ يَتِمَّ تارِيخُهُ؟

أَتَشَبَّثُ بِحاضِرِي ولَوْ لِلَحْظَةٍ... ولَوْ رَغْماً عَنِّي... لأَنَّ في حَاضِرِي شَيْئاً يَمْحُو الْكَوَابِيسَ كَأَنَّهُ حُلْمٌ لَذِيذٌ مَعَ أَنَّهُ حَقِيقِيٌّ. في خَرَّاطَةَ وَاقِعٌ مُرٌّ وَوَاقِعٌ حُلْوٌ. في خَرَّاطَةَ مَاضٍ أَسْوَدُ أَحْمَرُ، وَحاضِرٌ بِكُلِّ الأَلْوَانِ مُزَرْكَشٌ جَمِيلٌ. وفي خَرَّاطَةَ أَشْياءُ لَمْ تُقَلْ فَتَرَكْتُها إلى ما لا يَسْتَحِقُّ التَّفْكِير لأَنَّ تِلْكَ مَوْضَةَ الْعَصْر وأنا ابْنَةُ عَصْرِي مُتَفَتِّحَةٌ تَقَدُّمِيَّةٌ.

أَجْهَلُ ماهِيَةَ هَذا الشَّيْءَ ولَكِنِّي أَشْعُرُ بِهِ قَرِيباً، وَشِيكاً... يَحْدُونِي، يَخْفِرُنِي مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ... ما عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذا السِّحْرُ الّذِي يَجْذِبُنِي

إلى أَرْضِ خَرَّاطَةَ، ويَشُدُّنِي إِلَيْها كَالْمِغْناطِيس؟ أَنْتَظِرُ في كُلِّ سانِحَةٍ أَنْ يَنْكَشِفَ بَيْنَ يَدَيَّ فَتَتِمَّ الْمُتْعَةُ.

هل حَدَسْتَ يا قارِئِي العَزِيزَ؟ لا أَظُنُّكَ قد فَعَلْتَ اللَّهُمَّ سِوَى إذا كُنْتَ قَدْ زُرْتَ بِلادَ خَرَّاطَةَ مِثْلِي، عِنْدئذٍ، فأنتَ السَّعِيدُ!

أَجَلْتُ النَّظَرَ حَوْلِي فإذا بِي غَيْرُ وَحِيدَةٍ أَتَوَجَّسُ شَيْئاً ما!... السَّيَّاراتُ أَيْضاً قَدْ تَسَلْسَلَتْ خَلْفِي وعلى جانِبَيَّ في طابُورٍ طَوِيلٍ شَكْلُها شَكْلُ مَنْ يَنْتَظِرُ الْجَمارِكَ... بل واتَّكَأَ بَعْضُ الرُّكَّابِ على بابِ سَيَّارَتِهِ أو حَطَّ قَدَماً على السُّورِ الْوَطِيءِ الْمُشْرِفِ على الْجُرْفِ يَتَفَرَّجُ على الْواجِهَةِ الْمُقابِلَةِ ويُدَقِّقُ النَّظَرَ بَيْنَ الصُّخورِ والأَشْجارِ. أمَّا ذَلِكَ فَقَدْ آثَرَ الْمُكُوثَ داخِلَ سَيَّارَتِهِ، يَداهُ عَلى مِقْوَدِها، على أُهْبَةِ الانْطِلاقِ بِمُجَرَّدِ الإحْساسِ بِالْخَطَرِ. إلاَّ أَنَّ فُضُولَهُ مَنَعَ دُونَهُ ودُونَ إغْلاقِ الْبابِ فَوَضَعَ رِجْلاً على الأَسْفَلْتِ يُصارِعُ نَفْساً تُرِيدُ الْوُلُوجَ.

فَجْأَةً! لَمَحْتُ الْوُجُوهَ تَنْبَسِطُ بِابْتِساماتٍ عَرِيضَةٍ، وسَمِعْتُ الصِّبْيَةَ يَضِجُّونَ بِضَحْكاتٍ فَرِحَةٍ ويَضْرِبُونَ أَيْدِيَهُمُ الصَّغِيرَةَ بِابْتِهاجٍ وانْفِعالٍ. فَأَدْرَكْتُ أَنَّ الّذي كُنْتُ أَتَوَقَّعُ حُدُوثَهُ قَدْ حَلَّ، ونَظَرْتُ إلى حَيْثُ تَنْظُرُ النَّاسُ، فَإذا بِعَشَراتِ الْقِرَدَةِ تَنْبَلِجُ إِلَيْنا سافِرَةً مِنَ الْغاباتِ الْمُخْتَبِئَةِ وَراءَ الْهَضَباتِ، وشَيْئاً فَشَيْئاً، تَتَسَلَّقُ الْفِجاجَ عابِرَةً نَحْوَنا الأَسْوارَ.

مِنْها الصَّغِيرَةُ جِدّاً بِشَكْلٍ مُضْحِكٍ، تُحَرِّكُ رَأْسَها بِسُرْعَةٍ نَحْوَ كُلِّ الْجِهاتِ ثُمَّ تُجْفِلُ مِنَّا بِخِفَّةٍ إلى أَعْماقِ الْكافِ. ومِنْها الْمُتَوَسِّطَةُ تَقِفُ عَنْ

قُرْبٍ مُتَرَدِّدَةً بَيْنَ الاقْتِرابِ والابْتِعادِ، مُقَلِّبَةً الأَمْرَ عَلَى وُجُوهِهِ، ذاكِرَةً عِظاتِ حُكَمائِها، مُسْتَعْرِضَةً تَقارِيرَهُمْ في عَلاقاتِها بِالأُدَماء...

نَدْعُوها بِإشاراتٍ مِنْ أَيْدِينا ولَكِنَّ أَعْيُنَها الْواسِعَةَ تَنْظُرُ إِلَيْنَا في شُرُودٍ أَحْياناً، ومُحَدِّقَةً أُخْرَى، جاسَّةً نَبْضَنا، سابِرَةً نِيّاتِنا أَنَحْنُ أَهْل للثِّقَةِ أَمْ لَسْنا... هُناكَ عَلى بُعْدِ أَمْتارٍ، عَبَّأَتْ أُنْثَى صَغِيرَها على ظَهْرِها، تَقْطَعُ الطَّرِيقَ الْمُعَبَّدَ بِسُرْعَةٍ وتَتَسَلَّقُ الْجُرْفَ بِنَشاطٍ وَتَتَفَرَّجُ عَلَيْنا مِنْهُ بِأَمانٍ، مُلَقِّنَةً ابْنَها أَنَّ اللهَ قَدْ خَلَقَ أَجْناساً أُخْرَى غَيْرَها، تَتَشَاطَرُها رِحابَ الأَرْض، تُدِيرُ عَلاقاتِهم بِها قَوَانِينُ جِيرَةٍ ومع ذَلِكَ فَيَنْبَغِي الاِحْتِياطُ لِها لأَنَّ "مَنْ خافَ سَلِمَ"!

ولأَوَّلِ مَرَّةٍ، بَدَوْنا نَحْنُ الْحَيَوَانَاتِ في حَدِيقَةٍ مَحْبُوسِينَ، والْقِرَدَةُ هُمُ السَّوَّاحُ يَتَفَرَّجُونَ عَلَيْنا: بَعْضُهُمْ اسْتِجْماماً وبَعْضُهُمْ اهْتِماماً.

لِلْقِرَدَةِ الكَبِيرَةِ قاماتُ الرِّجَالِ. وَقَفَتْ إزاءَ سَيَّاراتِنا لا تَخْشَى شَيْئاً، بَلِ الْتَصَقَتْ بِها، شَأْنُها شَأْنُ مَوَظَّفِي الْجَمَارِكِ، تَنْظُرُ إِلَيْنا بِاعْتَدادٍ ثُمَّ تَمُدُّ إِلَيْنا أَيْدِيَها طَالِبَةً مِنَّا الْمُكُوسَ ومَراسِيمَ الْعُبُورِ...

إِنَّ أَحداً لا يَمُرُّ مِنْ مُنْعَرجاتِ خَرَّاطَةَ إِلاَّ ودَفَعَ الْجِزْيَةَ لِجَمارِكِ الْقِرَدِةِ. ثُمَّ إِنَّ أَحداً لا يُفَكِّرُ في التَّوَجُّهِ إلى كِيفانِها ولوْ عابِرَ سَبِيلٍ إِلاَّ وتَحَصَّنَ بِزَادٍ فِيهِ سَهْمٌ وَافِرٌ لِحيَوانات الْجِبالِ.

في الْوَاقِعِ، جَمارِكُ خَرَّاطَةَ لَيْسَتْ بِالصَّعْبَةِ الْمَدَلَّلَةِ. وإِنَّها لَتَأْكُلُ أَيَّ شَيْءٍ وأَيُّ شَيْءٍ يُرْضِيها. كأَنَّ شَعْبَ الْقِرَدَةِ يَسِيرُ على قَوْلِنَا الْمَأْثُورِ: "الْحَجَرَةُ مِنْ يَدِ الْحَبِيبِ تُفَّاحَةٌ"! ومَعَ ذَلِكَ، فَإِنِّي أَشُكُّ أَنْ تَقْبَلَ تِلْكَ

الْقِرَدَةُ الْعَظِيمَةُ حجَرَةً ضَرِيبَةَ عُبُورٍ. بل أتوَقَّعُها مُنْتَقِمَةً للإهانَةِ بِأَنْ تَقذِفَهُ إلى رأْسِ مُمازِحِها فَتَشُجَّهُ. أَلَيْس قَوْمُ الْقِرَدَةِ أَهْلَ حُنْقٍ وثأْر؟...

على كُلِّ حالٍ، إنَّ الْجَمارِكَ هؤلاء مِنْ صِنْفٍ خاصٍّ!... فإنْ كانَتِ الدَّوَاوِينُ في كُلِّ الْبِلادِ تَعْرِضُ مَنْظَراً مُؤْسِفاً مُنَفِّراً قَرِفاً فإنَّ جَمارِكَ الْقِرَدَةِ تَسْلِيَةٌ لِنَاظِرِيها.

ومِنَ الْعِبادِ مَنْ يَذْهَبُ إلى خَرَّاطَةَ، دافِعاً الْجِزْيَةَ والْخَرَاجَ، إلاَّ بِدَاسِرِ التَّفَرُّجِ عَلى تِلْكَ الأَقَلِّيَّةِ مِنَ الْمُوَاطِنِينَ في جُمْهُورِيَّتِهِمِ الْمُسْتَقِلَّةِ.

لا ضَيْرَ إنِ اشْتَرَطَ الْقِرَدَةُ مَكْساً لِلْعُبُورِ!... أَلَيْسَ مِنْ حَقِّ تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُسالِمَةِ الْغَذاءُ؟ ثُمَّ إنَّ عَوْلَها بَسِيطٌ رَخِيصٌ يُحِبُّ الأَطْفالُ أَنْ يُقَدِّمُوهُ لَها على شَكْلِ تُفَّاحٍ ومَوْزٍ وفُسْتُقٍ عَبِيدٍ وخُبْزٍ وحَلْوَى وكُلِّ ما هُوَ لَذِيذٌ وتَبْقَى نَكْهَتُهُ مُطَوَّلاً تَحْتَ اللِّسانِ، وعلى طُولِ الْحَنْجَرَةِ إلى الْبُلْعُومِ.

والْحَقُّ أَنَّ الْقِرَدَةَ أَهْلُ فَضْلٍ وصِدْقٍ ويُوفُونَ بِالْعَهْدِ، كَمَا أَنَّهُمْ يَقْنَعُونَ بِالْقَلِيلِ. فَبِمُجَرَّدِ ما تُدْفَعُ لَهُمْ مَراسِيمُ الْمُرُورِ، مَهْماً ضَؤُلَتْ، حَتَّى يَسْمَحُوا لِلسَّيّارَةِ بِالانْطِلاقِ ويَفْسَحُوا لَهَا السَّبِيلَ. وأَمَّا وإنْ عانَدَ صاحِبُها ورَفَضَ الدَّفْعَ، فَإِنَّهُ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ثَلاثاً لا مَرَّ ثُمَّ الْوَيْلُ لَهُ!...

لنْ تُسِيءَ إِلَيْهِ الْقِرَدَةُ بِشَيْءٍ، ولنْ تُعَنِّفَ شَخْصَهُ الْكَرِيمَ، ولَكِنَّها لَنْ تُفْرِجَ لَهُ السَّبِيلَ، ولَتَمْضِي واضِعَةً كَفَّيْها على مُقَدَّمَةِ سَيَّارَتِهِ تَنْظُرُ إِلَيْهِ شَزِرَةً صابِرَةً إلى أَنْ يَدْفَعَ ما عَلَيْهِ. مِثْلُهُ مِثْلُ كُلِّ النَّاسِ. لا غَمْزَ ولا تَلْمِيحَ في دِيوانِ خَرَّاطَةَ... لا عادِيَ ولا مَعْدُوَّ إِيْ بِاللهِ!

مُنْذُ مَتَى سَكَنَتْ تِلْكَ الْقِرَدَةُ الظَّرِيفَةُ جبالَ خَرَّاطَةَ؟ لا أَحَدَ يَعْرِفُ. ورُبَّما سَكَنَتْها مُنْذُ الأَزَلِ، مُنْذُ أَنْ عَرَفَتْ هَذِهِ الْبُقْعَةُ مِنَ الأَرْضِ الْحَياةَ، مُنْذُ أَنْ دَبَّتْ فِيها خَلايا الْكائِنِ الْحَيِّ. وبَيْنِي وبَيْنَكُمْ، لا أَدْرِي مَنِ الأَسْبَقُ إلى الظُّهُورِ عَلى هَتِهِ الأَرْضِ أَهُو الْقِرْدُ أَمِ الإنْسانُ؟!...

إنَّا فِي خَرَّاطَةَ لا نَتَساءَلُ عَمَّنْ أَنْسَلَ الآخَرَ فإنَّ ذَلِكَ سُؤالاً لا يَسُوغُنا تَصَوُّرُهُ. أَيُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَنَا وبَيْنَ شَعْبِ الْقِرَدَةِ صِلَةُ رَحِمٍ؟!... يا لَلْمَهْزَلَةِ! دَعُونِي أَضْحَكْ بَعْضَ ضَحْكٍ ثُمَّ أُوَاصِلِ الْحَدِيثَ مَعَكُمْ. أَوَ يَزْعُمُ بَعْضُهُمْ أَنَّ الإنْسانَ نَزَلَ مِنَ الْقِرْدِ فَتَكُونَ إحْدَى تِلْكَ الْحَيَوَاناتِ الْمُضْحِكَةِ الّتِي أُحِبُّ الْتِقاطَ الصُّوَرِ مَعَها فِي مَخانِقِ الْهِضابِ وأُداعِبُها مُتَبَسِّطَةً، جَدَّتِي وعَمَّتِي؟!... إلى ذَلِكَ الْحَدِّ لَمْ تَبْلُغْ مَوَدَّتُنا فَنَحْنُ قَوْمٌ نُحْسِنُ الْمُعاشَرَةَ ونُقَدِّرُ الْجِوَارَ، على أَنَّ كُلاًّ مِنّا يَنْفَرِدُ بِقَبِيلَتِهِ الّتِي لا يَجُوزُ لَها الاخْتِلاطُ أَبَداً بِأَفْرادِ غَيْرِها. وإنَّهُ لَمَثْلَبَةٌ وعارٌ أَنْ يُزْعَمَ حَتَّى مُجَرَّدُ زَعْمٍ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ قَوْمَيْنا أَدْنَى نَسَبٍ أَوْ قَطْرَةُ دَمٍ.

كلاًّ وأَبدا! إنَّا فِي خَرَّاطَةَ لا نَتَساءَلُ عَمَّنْ أَنْسَلَ الآخَرَ وإنَّا قَدْ خَلَّيْنا ذَلِكَ لأَصْحابِ الْفَلْسَفاتِ والسُّفَسْطائِيَّاتِ ولْيَتَخَبَّطُوا فِي مَجَاسِّ الأُخْطُبُوطِ الّذي افْتَعَلُوا.

لَكِنَّ الْقِرَدَةَ ولا شَكَّ بَقايَا مِنْ الأَدْغالِ الإفْرِيقِيَّةِ الّتِي كانَتْ تَعُمُّ كُلَّ الْقارَّةِ إلى زَمَنٍ قَرِيبٍ قَبْلَ أَنْ تَنْحَسِرَ وتَنْكَمِشَ. أَمَا قُتِلَ الأَسَدُ الأَخِيرُ على أَرْضِ الْجَزائِرِ فِي الثَّلاثِينِيَّاتِ على يَدِ مُعَمِّرٍ فِرَنْسِيٍّ؟ وجَدَّتِي ما تَزالُ

تَذْكُرُ أَنَّ سِباعاً كانَتْ تَحُومُ في قَرْيَتِها مِنْ بِلادِ الْقَبائلِ في الْهِضابِ الْعُلْيا، وأَنَّ الْفَلاَّحِينَ كانُوا يَخْشَوْنَها بِاللَّيْلِ ولَهُمْ عَنْها حِكَايَات.

ورُبَّما أَيْضاً وُجِدَ ذَلِكَ الشَّعْبُ الْمُسالِمُ بِهَتِهِ الْبِقاعِ مِنْ غابِرِ الْخَلِيقَةِ فَحَضَرَ الْحُرُوبَ الّتي كانَتْ بَيْنَ فُرُوعِ الْجِنِّ الْكافِرَةِ وإبْلِيسَ؟... ولَعَلَّها أَيْضاً خُلِقَتْ هُنَا مَعَ غَيْرِها مِنَ الْحَيَوَاناتِ لِتَتَفَرَّجَ عَلى سَيِّدِنا آدَمَ ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ وزَوْجِهِ يُكَوِّنانِ أَنْفُسَهُما ويَبْنِيانِ حَضارَتَهُما ويَرْتَقِيانِ سُلَّمَ التَّطَوُّرِ فَمَيَّزَتْ كَيْفَ يَعْلُو ذَوُو الْعَقْلِ دَرَجاتٍ بَعْدَ أَنْ هَبَطُوا مِنَ الْجَنَّةِ وكَيْفَ اسْتَحَقُّوا الْخِلافَةَ وكَيْفَ غَمَتُوا، بَعْدَ ذَلِكَ، الأَمانَةَ فانْحَدَرُوا إلى أَسْفَلِ الْحَضِيضِ.

عَلى كُلٍّ، مَهْماً تَكُنِ النَّظَرِيَّاتُ، فإنَّ لِقِرَدِةِ خَرَّاطَةَ تارِيخاً أَيضاً يَتَوَاتَرُهُ النَّاسُ؛ فَهَلْ يَتَوَاتَرُهُ الْقِرَدَةُ أَيْضاً عَنْ أَجْدادِهِمْ؟ اللهُ أَعْلَمُ!... تِلْكَ نُقْطَةُ الْتِقاءٍ وتَقاطُعٍ أُخْرَى بَيْنَ الْقِرَدَةِ والإنْسانِ في خَرَّاطَةَ، نُقْطَةُ التَّسْجِيلِ والتَّدْوِينِ والرِّوَايَةِ، نُقْطَةُ الْفِكْرِ والتَّارِيخِ لَمْ نَنْحَنِ عَلَيْها كُلِّيَّةً بَعْدُ؛ فَقُدَّامَنَا أَنْ نَنْحَنِيَ على تارِيخِنا وفِكْرِنا نَحْنُ قَبْلاً؛ ولَمَّا تَحَقَّقَ بِالاِسْتِقْراءِ أَنَّ الإنْسانَ وَحْدَهُ قادِرٌ عَلى حِفْظِ كَلامِ الأَجْدادِ، تَأَكَّدَتْ مَرَّةً أُخْرَى إمْرَتُهُ وأَوْلَوِيَّتُهُ بِالْخِلافَةِ.

إلاَّ أَنَّهُ يُحْكَى عنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، عنِ الْوَقْتِ الّذي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ فِيهِ الْجَزَائرِيُّونَ السَّيَّاراتِ، الْوَقْتِ الّذي كانُوا يُسافِرُونَ فِيهِ على الدَّوَابِّ والْهَائشاتِ ويَقْطَعُونَ الأَمْيالَ على الأَقْدامِ، أَنَّ رَجُلاً بائعَ شاشِيَّاتٍ كانَ يَمْشي مُنْفَرِداً، قافِلاً مِنْ بِلادِ الْقَبائلِ صَوْبَ بَعْضِ الْبَلْداتِ يُصَرِّفُ

سِلْعَتَهُ. ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَ كِيفانَ خَرَّاطَةَ فَجَلَسَ عَلى رَصِيفِ الدَّرْبِ يَسْتَعْفِ بَعْضَ اسْتِعْفاءٍ. وَوَضَعَ شاشِياتِهِ جانِباً فَاسْتَلْقى غَيْرَ بَعِيدٍ، بَيْنَ ذِراعَيْ النَّوْمِ. فَجْأَةً، هاهِيَ ذِي الْقِرَدَةُ تَسْطُو عَلى بِضاعَتِهِ الْمِسْكِينِ وتَخْتَطِفُ مِنْهُ الْشَّاشِياتِ فتَهْرُبُ بِها إلى شِعافِ الأَشْجارِ كَالْبَرْقِ.

حَمْلَقَ فِيها الْبائِعُ فَزِعاً وحاوَلَ بِكُلِّ ما تيَسَّرَ لَهُ مِنَ الطُّرُقِ اسْتِرْدادَ مالِهِ فَما وُفِّقَ فَحارَ في أَمْرِهِ وطالَ تَخْمِينُهُ. كَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ رَأْسِ مالِهِ مَهْماً زَهِدَ ثُمَّ إِنَّ الْفِرارَ قُدَّامَ قَبِيلَةِ قُطَّاعِ الطُّرُقِ هُؤُلاءِ - مَهْماً كَثُرَ عَدَدُهُمْ وانْفَرَدَ هُوَ بِشَخْصِهِ الأَعْزَلِ - هُوَ بِالآخِرِ جُبْنٌ وعارٌ عَلى فَصِيلَةِ بَنِي الإِنْسانِ طُرّاً... أَوَ يُمِدُّ القِرَدَةَ فُرْصَةَ السُّخْرِيَةِ على أَجْيالٍ مِنْ بَنِي جِنْسِهِ، بِطُرافَةٍ يَرْوِيها كِبارُهُمْ على صِغارِهِمْ؟... يا للعارِ! يا لَعَيْبٍ يَطْلِيهِ شارِبَيْهِ فما يَتَبَقَّى لَهُ سِوى حَلْقِها ورُبَّما اللِّحْيَةِ أَيْضاً!!...

لَقَدْ أَنْفَقَ الْمِسْكِينُ كُلَّ مالِهِ فِيما سَلَبَهُ أُولئِكَ السُّرَّاقُ وإِنَّ فِعْلَةَ الْقِرَدَةِ مَعَهُ خَسارَةٌ سَتُثْقِلُ جَيْبَهُ على امْتِدادِ السَّنَةِ. ونَظَرَ الْمَغْبُونُ إلى ساكِنِي الشَّجَرِ يَتَوَسَّلُ فَأَلْفاها قَدْ تَقَلْنَسَتْ شاشِياتِهِ فَبَدا شَكْلُها إلى مَوْقِفِهِ أَكْثَرَ بَلادَةً مِنَ الْمَعْقُولِ.

ومَعَ ذَلِكَ، فإِنَّ هَيْئَتَها الْمُضْحِكَةَ أَوْحَتْ لِلرَّجُلِ بِالْخَلاصِ وفَتَحَتْ لَهُ بابَ الْفَرَجِ بِحِيلَةٍ عَنَّتْ لَهُ فَجْأَةً كَالْمِصْباحِ يُنِيرُ دِهْلِيزاً مُظْلِماً. نزَعَ التَّاجِرُ شاشِيَتَهُ مِنْ عَلى رأْسِهِ وبَصَقَ عَلَيْها ثُمَّ رَماها أَرْضاً بِاشْمِئْزازٍ. وكَما تَوَقَّعْتُمْ طَبْعاً، خَلَعَتْ جَمِيعُ القِرَدَةِ قُلَنْسُوَاتِها عَنْ رؤُوسِها الْمُحْتَرَمَةِ وبَصَقَتْ

عَلَيْها قَبْلَ أَنْ تَرْمِيَها بِنُفورٍ. فَهَرْوَلَ التّاجِرُ إِلَيْها يَتَصَبَّبُ عَرَقاً ثُمَّ جَمَعَ تَلابِيبَهُ وفَرَّ مِنْ تِلْكَ الْبُقْعَةِ الْمَشْؤُومَةِ لا يَلْوِي على شَيْءٍ.

إِنَّ تِلْكَ الْقَبِيلَةَ مِنَ الْقِرَدَةِ كانتْ ولا شَكَّ مُتَخَلِّفَةً ما تَزالُ تَعِيشُ في عَهْدِ السَّبْيِ والْغَزْوِ. أَمَّا أَحْفادُها مِنْ قِرَدَتِنا الّذينَ سُعِدْنا بِالتَّعَرُّفِ إِلَيْهِمْ، فإِنَّهُمْ قَوْمٌ مُتَقَدِّمُونَ مُتَحَضِّرُونَ، عَرَفُوا أَنَّ خَيْرَ الْوَسائلِ لِلْغُنْمِ لَيْسَ بِالسَّطْوِ على الْمَارَّةِ، فَسَلْبِهِمْ قَبْلَ الْفِرارِ إلى أَعْلَى الْقِمَمِ، ولكِنْ بِضَرْبِ الضَّرائبِ على الْمُسافِرِينَ والرُّسُومِ على الْمارَّةِ فَالْوُقُوفِ لَهُمْ وَسْطَ الطُّرُقاتِ يَمْنَعُونَ الْعُبُورَ. تَماماً كَما تَفْعَلُ هَذِهِ الْبُلْدانُ الرَّاقِيَةُ الّتي بَلَغْنا، تَخْتَلِسُ منَ النّاسِ قَانُونِيّاً ثَمَنَ الْمُرُورِ مِنْ طَرِيقِ اللهِ، ثُمَّ تَعُودُ الْقِرَدَةُ إلى مَلاجِئِها وأَوْكارِها، وقَدْ تَمَيَّزَتْ بِمِيزَةِ الْحَضارَةِ الّتي عَلَّمَها إِيَّاها بَنُو الإِنْسان!

مَنْظَرُ تِلْكَ الْحَيَواناتِ اللَّطِيفَةِ زَجَّ بِي في لُجَّةٍ مِنَ التَّفْكِيرِ ما أَدْرَكْتُ لَها مَغْزًى... كَمْ مُدَّةً دامَ هَوَسِي؟... لا يُهِمُّ... إِنَّما الّذي اسْتَخْلَصْتُهُ مِنْ تَخْرِيفِي بَيْنَ وِهادِ خَرَّاطَةَ، أَنَّ بَيْنَ الْقِرَدَةِ والإِنْسانِ فَرْقاً جَوْهَرِيّاً فَحْوَاهُ أَنَّ الْقِرَدَةَ تَعْتاشُ بِما تَأْخُذُهُ مِنَ الْمَارَّةِ، وأَمَّا الإِنْسانُ فاللهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ ما يَفْعَلُهُ بِالأَمْوَالِ الّتي يَجْمَعُها في مُخْتَلِفِ الْمُناسَباتِ. لَعَلَّهُ يَشْتَرِيها أَسْلِحَةً ثُمَّ يُثِيرُ بِها الْحُرُوبَ؟!

(وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ ونَحْنُ نُسَبِّحُ لَكَ ونُقَدِّسُ لَكَ قالَ إنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ.)[78]

باريس في 7 نوفمبر 1999م

الموافق 28 رجب 1420 هـ

[78] سورة البقرة، الآية 30.

عَرَقٌ ناشِفٌ

مَنْ دَاخَلْها زَاهَرْ
ومَنْ خَارَجْها هَارَبْ
ورِيحْها هَمْ
وبَرْدْها سَمْ
وعُمْرُه يا الَحْبِيبْ ما يْجِيكْ مَنْ ثَمْ
(أبيات نَظَمَها شاعر شاوِيٌّ قدِيما عن فرنسا)

هَذَا مُنْتَصَفُ الْقَرْنِ. وهَذِهِ عاصِمَةُ فِرَنْسَا بارِيسُ تَشُدُّ أَنْظارَ الْعالَمِينَ بِأَضْوَائِها وفُنُونِها ومَراقِصِها الصَّاخِبَةِ ومُوسِيقاها الْعَجِيبَةِ، رُغْمَ الظُّرُوفِ الْكالِحَةِ ورَحَى الْحَرْبِ الْهائلَةِ تَطْحَنُ بَيْنَ طَبَقَيْها أَعْناقَ الْخَلِيقَةِ في مَشارِقِ الأَرْضِ ومَغارِبِها.

في حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِ الْمَدِينَةِ الْقَمِيئَةِ، في عُشَّةٍ مِنَ الأَعْشاشِ الّتِي فَرَّخَ فِيها الْبَقُّ ونَوَّرَ الْخُنْفُسُ كَمَا يُنَوِّرُ الْبَرْلَلِّي[79] في حُقُولِ سَطِيفَ

[79] زهرة بريّة صفراء، لذيذة النّكهة، يدعوها العاصِمِيُّون: "خْنونة النبي: مُخاطَ النَّبِيِّ".

والْبُرْجِ، تَحاشَرَ لَفِيفٌ مِنَ الْقَرَوِيِّينَ الْجَزائِرِيِّينَ، هَجُرُوا جِبالَهُمْ الشَّامِخَةَ بِالْهِضابِ، إلى مَدِينَةِ ما وَراءَ الْبَحْرِ، بَعْدَ أَنْ أَلْجَأَهُمْ شَظَفُ الْعَيْشِ إلى الْتِماسِ الْقُوتِ أَوْ ما يَسُدُّ الأَوَدَ في مَصانِعِ فِرَنْسَا ومَعامِلِها.

رَوَى الْعَمُّ عَلِيٌّ أَنَّهُ قَدْ كانَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ قُراهم لا يُعاشِرُ الآخَرِينَ إلاَّ لَماماً. يَنْدُرُ مِنْ صَبِيحَةِ رَبِّنَا إلى عَمَلِهِ ولا يَعُودُ إلاَّ مَعَ ضَوْءِ الْمِصْباحِ الْباهِتِ كَيْ يَتَكَوَّمَ على فَرْشَتِهِ الْوَضِيعَةِ، الّتي تَجْرَحُ الْجَنْبَ ولا تَحْمِي مِنَ الرُّطُوبَةِ، فَيُخْلِدُ إلى نُعاسٍ يَرْجُوهُ خالِياً مِنَ الْكَوَابِيسِ أَوْ هُوَ يَتَناوَمُ قَرِيراً.

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَدْرِي عَنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ شَيْئاً. ولَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُدْرِكُ مِنْ ماضِيهِ أَوْ حاضِرِهِ أَوْ عَمَّا يُطَرِّزُهُ لِمُسْتَقْبَلِهِ مِنْ نَقْشٍ، كَثِيراً ولا قَلِيلاً. إنَّمَا كانَ الرَّجُلُ صامِتاً مُغْلَقاً كَالْقَبْرِ، فَتَهَيَّبَ زُمَلاؤُهُ ذَلِكَ الْعالَمَ الْمُنْحَجِبَ واحْتَرَمُوا صَمْتَهُ.

ذاتَ يَوْمٍ، اِنْكَفَأَ الْعُمَّالُ إلى غُرْفَتِهِم الْقَمِيئَةِ، وهُرِعَ أَحَدُهُمْ إلى مِدْفَأَةِ الْحَطَبِ آنذاكَ يُلْقِي فِيها الشَّقَفَ بَعْدَ أَنْ تَجَلَّدَ مِنْهم الشَّحْمُ واللَّحْمُ وزادَ الْعَظْمُ. فَاغْتَبَطَ جَمْعُهم باسِمَ الثَّغْرِ، مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ، لِذَلِكَ اللَّهَبِ تَتَرَقْرَقُ أَلْسِنَتُهُ بِلَوْنِ الْعَسْجَدِ، ولَهُ أَطِيطٌ كَأَنَّهُ شَجْوُ الْبُلْبُل.

وبَيْنَا الرَّبْعُ يَبْسُطُ يَدَيْهِ إلى الْمِدْفَأَةِ، يَتَضَرَّعُ إلَيْها حَرارَةً وشَفَقَةً ورَأْفَةً، إذا ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ الْغَرِيبُ يَدْفَعُ الْبابَ ويَلِجُ صامِتاً كَعادَتِهِ، مُتَحَجِّرَ الْحَدَقَتَيْنِ، ناتِئَ الصُّورَةِ، مَزْمُومَ الْفَمِ كَأَنْ لا رُوحَ بِهِ، كَأَنَّمَا رَمْسٌ قَدِ انْتَصَبَ على عادَتِهِ.

لا يَذْكُرُ الْعَمُّ عَلِيٌّ كَمْ مِنَ الزَّمَنِ مَضَى. لَعَلَّها مُجَرَّدُ لَحْظَةٍ بَدَتْ دَهْراً. بَيْدَ أَنَّ الرَّجُلَ، ولأَوَّلِ مَرَّةٍ في تارِيخِ الرَّبْعِ، يَنْتَفِضُ كالْفِزَّاعَةِ، وتَسْطَعُ شُعْلَةٌ مِنْ نارٍ في عَيْنَيْهِ، فَتَدِبُّ الدِّماءُ الْفَوَّارَةُ إلى وَجْهِهِ وصُدْغَيْهِ كَأَنَّما جَمْرٌ يَتَوَهَّجُ، وتَنْفَرِجُ شَفَتَاهُ عَنْ صَوْتٍ أَبَحَّ يَلْهَثُ، وإذا بِهِ يَرْتَمِي بِكُلِّ قامَتِهِ الْفارِعَةِ على تِلْكَ الْمِدْفَأَةِ الْمُسْتَدِيرَةِ، صاخِباً، ضابِحاً، لا أَحَدَ يَعِي عَنْهُ بِنْتَ شَفَةٍ، فَفَتَحَ بابَها الْحَدِيدِيَّ مُرْتَعِشَ الأَنامِلِ، ثُمَّ أَوْلَجَ يَدَيْهِ الْكَبِيرَتَيْنِ في النَّارِ الْهاصِرَةِ لا يَكْتَرِثُ لِلَهِيبِها يُذِيبُ لَحْمَ كَفَّيْهِ، كَفَّيْ الْعامِلِ الْكادِحِ، ثُمَّ جَعَلَ يُقَلِّبُ الْجَذْوَاتِ نادِباً، باكِياً، فَمَا أَلْفَى تَحْتَها سِوَى الرَّمادِ. عِنْدَئِذٍ، أَمْسَكَ لَحْظَةً يُدِيرُ فِيهِم حَدَقَتَيْنِ زائغَتَيْنِ كَأَنَّهُ يُقْبَضُ، يابِسَ الشَّفَتَيْنِ مُرْتَخِيَهُمَا، فَرَدَّ كَفَّيْهِ إلى ناظِرَيْهِ يَبْلَعُ رِيقَهُ ما طاقَ، وخَرَجَ مِنَ الْغُرْفَةِ مُنْتَحِباً فَمَا عَادُوا يَرَوْنَه أَوْ يَسْمَعُونَ عَنْهُ خَبَراً.

الْمَغْبُونُ كانَ مُصابُهُ جَلَلاً. إنَّما كانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْغَرِيبُ، ابْنُ هِضابِهِم وقُراهُم، يَعْمَلُ كَالْفَرَدِ الَّذِي أَكَلَ السِّياطُ جَنْبَيْهِ، دُونَ هَمْسٍ أَوْ شَكْوَى. ثُمَّ، إذا خَلَطَ إلى مَبِيتِهِ، خَلَطَ إلَيْهِ وهُوَ خالٍ ساكِنٌ حَتَّى مِنْ دَبِيبِ الْخُنْفُسِ، وَخَبَّأَ ما جَناهُ مِنْ أُجْرَةٍ في تِلْكَ الْمِدْفَأَةِ وهِي مُطْفَأَةٌ، قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ. رُبَّما كانَ يَنْوِي أَنْ يَجْمَعَ صُرَّةً تَمْلأُ الْعَيْنَ، ثُمَّ يَنْكَفِئُ إلى دُوَّارِهِ يَدْفَعُ عَنْ ذَوِيهِ بَعْضَ شَظَفٍ. ولَكِنَّ اللهَ قَدَّرَ وشاءَ، وإذا صاحِبُهم الَّذِي أَوْقَدَ النَّارَ دُونَ أَنْ يَدْرِيَ بِما فِي الْمِدْفَأَةِ مِنْ كَنْزٍ، أَحْرَقَ كُلَّ ذَخِيرَةِ الْمَخْلُوقِ وجَفَّفَ عَرَقَهُ سُدًى فَاخْتَبَلَ الْمِسْكِينُ.

كانَ هَذَا في الْخَمْسِينِيَّاتِ، مَعَ الدَّفْقَةِ الأولى مِنَ الْمُهاجِرِينَ الْجَزائرِيِّينَ، وما تِلْكُمْ سِوَى لَوْحَةٍ مِنْ لَوْحاتِ الشَّقاءِ والْبُؤْسِ الّتِي صَوَّرَتْ سِيَرَ أُولئكَ الْمُبْتَلِينَ.

(باريس، 2004م)

لَعْلَعَةٌ في الْجُبَل[80]

تَسْرُو فاطِمَةَ أُوتْ يَحْيَى
ثِمْحَجَّلْتْ أَمْ اثْنِينَّه
ثَسْبُورْ أَحايَكْ امْعَلَّمْ
اثْقابَلْدْ آرْ ثُوُّرْثْ
نَنَّاسْ تَخِيلْ آ سِيدِي الْجِنِينارْ
أَجَّاغْ أَنَزْذَغْ ثامُرْثْ[81]

[80] برواية زينة شربال عن أمّها زهيرة بهلول. سُجِّلت عام 2008

[81] برواية شريفة كَتَّاب. سُجِّلَتْ عامَ 2003م. وهي أبياتٌ قالَتْها ابْنَةُ "بُومَزْراق" الْمَقْرانِي لمَّا هَجَمَ الْعَسْكَرُ على زاوِيَتِهِ فَأَخْرَجُوا نِساءَهُ وأَخَذُوهُ إلى الْحَبْسِ. وتَرْجَمَةُ مَعانيها إلى العربيّة:
بَكَتْ فاطِمَةُ بِنِي يَحْيى
الْجَمِيلَةُ مِثْلَ نِينَّهْ (طَيْرٌ صَغِيرٌ)
تَخَمَّرَتْ بِحائِكِ الْحَرِيرْ
قابَلَتِ الْبابَ
قُلْنا لَهُ: دَخِيلَكَ يا سَيِّدِي الْجِنِرالْ!
دَعْنا نَسْكُنِ الْبِلادَ.

عَبَسَتِ الأَرْضُ وارْتَدَتْ ثَوْبَ حِدادٍ حالِكٍ فَأَغْشاها الْقَمَرُ بِبَسْمَتِهِ الْمُنِيرَةِ مُسَرِّياً. وهُما كَذَلِكَ يَتَناجَيَانِ مُتَعانِقَيْنِ على دَرْبِ اللَّيْلِ الصَّاعِدِ إلى السَّمَاءِ، اخْتَرَقَ الصَّمْتَ الرَّهِيبَ بُكَاءُ صَبِيٍّ جائعٍ وقَدْ بَلَغَا مَنْتَصَفَ الْعَقَبَةِ الْمَتعَرِّجَةِ. فَفَزِعَتْ إِلَيْهِ ابْنَةُ عَبَّاشَةَ تَحْمِيهِ مِنْ بَراثِنِ الْخَوْفِ الّذي أَضْحَى يَهُزُّ الْحَجَرَ والْمَدَرَ في كُلِّ جِبالِ "الْبابُور"[82]، وسُرْعانَ ما أَسْعَفَتْهُ بِحَلَمَةِ ثَدْيِها كَيْمَا يَسْتَقِيَ حَلِيباً ساخِناً وعَطْفاً دافِئاً.

فَجْأَةً، تَنَاهَى إِلَيْها صَوْتٌ بدَا لَها أَنَّهُ لِعَذَارَى مِنْها يَدْنُونَ، يُرَدِّدْنَ شَيْئاً كَالْغِنَاءِ في جَوْفِ الظَّلامِ. اِسْترَقَتِ السَّمْعَ وإذا الصَّوْتُ يَقْتَرِبُ شَيْئاً فَشَيْئاً وإذا النَّظْمُ يَتَّضِحُ غايَةً ويَنْتَقِشُ في فُؤادِها وأَعْصابِ قَلْبِها، يَخْتَلِجُ مَعَ كُلِّ نَبْضٍ في صَدْرِها الْمُرْتَعِشِ:

نَشَعْلُوا النَّار

نَفَرْزُوا الْحالَة

نْرَبِّيوْا الصْغارْ

يَعْطِيوْا الدَّالة

فَأَكَبَّتْ عَلى بَعْلِها سِي الْعَيَّاشِي بنِ عَبَّاشَةَ تَسْتَفْوِيهِ عَلى شُكُوكِها فَانْتَصَبَ في فِراشِهِ قاعِداً، قاطِعاً النَّفَسَ لَحَظاتٍ ثُمَّ قالَ:

---

[82] جِبال في الشّرق الجزائريّ بين وِلاتيْ سطيف وبرج بو عريريج.

ـ ما هو بِشَيْءٍ يا هاذِيكَ... إنَّما هُنَّ بَناتٌ يُلَعْلِعْنَ[83] على عادتِكُنَّ أَمْ تُراكِ نَسِيتِ شَبابَكِ يا ضَوْءَ الْعَيْنِ؟

وَارَبَتْ وبنانٌ أحْمَرُ على شَفَتِها الْعُلْيا: ـ وكَيْفَ يُلَعْلِعْنَ هذا في ذِي السَّاعَةِ الْمَتَأَخِّرَةِ وقَدْ نَفَشَ الْخِنْزِيرُ في الضِّياعِ؟ أَوَّاهُ!...

ثُمَّ إنَّهُما شَرَّعَا النَّافِذَةَ الْمُطِلَّةَ على الْجَبَلِ مَصْدَرِ الْهَزَجِ وأَلْصَقا آذانَهُما بِفَجْوَةِ إطارِهِ الْفارِغِ فإذا الصَّوْتُ يَبْتَعِدُ وإذا الْحَناجِرُ تَخْمِدُ ولَكِنْ هَلْ كانَ ثَمَّةَ أَحَدٌ؟! بَلْ لا أَثَرَ لِشَبَحٍ أَوْ ذِي رُوحٍ تَلْحَقُهُ الْعَيْنُ...! حَتَّى إذا احْمَرَّ الصُّبْحُ خَجَلاً مِنْ جُرْأَةِ أُخْتِهِ الأَرْضِ وأَسْرَعَتْ أُمُّهُما الشَّمْسُ تَطْرُدُ عَشِيقَها الْحَيَّ مِنْ دَشْرَةِ "الرِّقاب"[84]، تُعَرِّيها بِأَصابعِها الْعَشرِ مِنْ ثَوْبِ الْغُبْشَةِ وتُحَلِّيها بِكُسْوَةٍ مُتَوَهِّجَةٍ بِأَلْوَانِ اللَّهَبِ والْعَسْجَدِ، عَسَى أَنْ تَفْتِنَ خُطَّابَ الْهَيْبَةِ وتُفْتَتَنَ، مَالَ الزَّوْجانِ على جِيرانِهِما وأَهْلِ حارَتِهِما يَسْتَشْهِدانِهِمْ عَلَى "الرُّؤْيا" ويَسْتَعْدِيانِهِمْ عَلى ما داهَمَهُما مِنْ سُؤَال فَما كانَ مِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَوْ سَمِعَ.

نَشَعْلُوا النَّار
نَفَرْزُوا الْحالَة
نْرَبِّيوْا الصْغارْ
يَعْطِيوْا الدَّالة

---

[83] اللَّعْلَعة نَوْعٌ مِنَ الْغِناءِ خاصٌّ بِمَنْطِقَةِ الْهضاب. وهُوَ كَذَلِكَ فَرْقَعَةُ الرَّصاصِ أَوِ انْفِجارُ الْجَبَلِ...

[84] قرية في جبال البابور.

كانَ ذَلِكَ عَقِبَ مَجازِرِ الثَّامِنِ مايُو خَمْسَةٍ وأَرْبَعِينَ، وإِذا الأَبْياتُ هاذِيكَ بِشارَةٌ بِثَوْرَةِ التَّحْرِيرِ الْمُؤَزَّرَة.

وإذا كانَ الظُّلْمُ قَدْ طَغَى عَلَى صُدُورٍ في تِلْكَ الْحِقْبَةِ يَرْدِمُ فِيها نَبْعَ الْمَحَبَّةِ، وكَبَسَ على قُلُوبٍ يَخْنُقُ فِيها نَبْضَ الْحَياةِ فَيُمِيتُ وَرْدَةَ الْعِشْقِ الْمُشْرَبَةِ بِحُمْرَة الْحُبِّ والدَّمِ، فإِنَّ الظُّلْمَ على صاحِبِهِ يَدُورُ و"كَمَا تُدِينُ تُدانُ"، وهَذِهِ ابْنَةُ مِئَةٍ ونَيِّفٍ، خَرَمَ الأَجَلُ الْمَحْتُومُ حَتْفَها سَبْعَةَ أَعَوَامٍ بَعْدَ الْعِقْدِ التَّاسِعِ مِنَ الْقَرْنِ الْمَاضِي (1997)، أَوْرَدَتْ أَنَّ زَوْجَ جَدِّها كانَتْ في آلِ الْمُقْراني[85] الْمَغاوِيرِ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ إلى رَبْعِها آلِ سماتي وتَتَزَوَّجَ في بَنِي عَمِّها. ثُمَّ إِنَّ ذَوِيها كانُوا يُكْثِرُونَ مِنَ التَّرْحَالِ ويَتَزَوَّدُونَ مِنَ النَّجْعِ مُضاعَفَةً في التَّنَقُّلِ بَيْنَ "بِيبانِ الْحَدِيدِ"[86] وسُهُولِ الْبُرْجِ[87]، اتِّقاءَ أُسُودِ مَجَّانَةَ يُطارِدُونَهُمْ في كُلِّ حَدْبٍ وصَوْبٍ فَأَنْبَتُوا في قُلُوبِهِمُ الْخَبِيثَةِ الْهَلَعَ. أَجَلْ! فَقَدْ كانَ آلُ سماتي "قُومانَ"[88] داهَنُوا فِرَنْسا وأَخْلَصُوا لَهَا الْوُدَّ فَذاعَ في الشِّعابِ صِيتُهُمْ أَنْ عِمامَاتُ أُولَئِكَ الْخِيانَةُ

---

[85] عَشِيرة الأميرِ محمّد المُقْراني صاحب ثورة مجّانة، الّتي ثار فيها على الفرنسيّين عام 1871م، بمعيّة أخيه بُومَزْراق والشّيخ بَلْحدّاد صاحب الزّاوية الرّحمانيّة ونجله إبراهيم.

[86] اسمُ جبال في الشّرق الجزائريّ وقعت بها معركة شهيرة بين الأمير عبد القادر والجيش الفرنسيّ.

[87] مدينة بُرْج بو عريرِيج.

[88] القُومان أو الْقُومُ (من العربيّة: قَوْم) هُمُ القبائل الجزائريّة الّتي ساندت فرنسا، ومنها نشأت لفظة "القُوميّ" العامّيّة، الّتي تعني: "الخائن".

وبَرائِمُهُمْ[89] قِلَّةُ الشَّهامَة وإنَّهُمْ حلَقُوا ذُقُونهمْ مِنَ اللِّحَى بِكُلِّ رِضى فَهَوَّمَ الْحَياءُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حِشْمَةً. وتَرْوِي السِّمَاتِيَّةُ أَنَّهُمْ كانُوا يَنُثُّونَ الأَحْدَاقَ ويَزْرَعُونَ الأَهْدابَ في كُلِّ الثَّنَايَا وعلى الشِّعافِ طُرّاً ـ أو هَكَذا تُخُيِّلَ لَهُمْ ـ تَحَسُّباً لأَغْوَالِ مَجَّانَةَ يُداهِمُونَهُمْ في مَأْمَنِهِمْ الّذي اتَّخَذُوهُ، شَأْن الضَّبُعِ في السَّبْسَبِ، تَتَسَلَّلُ في جُحُورِ الأَرْضِ خَشْيَةَ ابْنِ آدَمَ ثُمَّ تَتَمَلَّصُ حِينَ غفْلَةٍ كَيْ تَضْرِبَ ضَرْبَةَ فُجُورٍ وغُدَرَانٍ. فإذا اطْمَأَنَّتْ أَنْفُسُهُمْ ذاتَ يَوْمٍ لِبَعْضِ الْمَنازِلِ وحَسِبُوا أَنْفُسَهُمْ في مَأْمَنٍ مِنْ سَيْفِ الْحَقِّ، ضَرَبُوا الْخِيَامَ ونَصَبُوا الْقُدُورَ وإذا بِأُسُودِ مَجَّانَةَ، أَكَابِرُ الْمُقْرانِي، الْمُقرانِي الأَكَابِرُ، يُباغِتُونَهُمْ في مَرْتَعِهِمْ الّذي نَفَشُوا فِيهِ كَالدَّوَابِّ تَسْرَحُ، فَانْتَفَضُوا كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ وتَبَدَّدُوا كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ، هَذا يَتَأَبَّطُ ما تَيَسَّرَ، وذاَ يَقْلِبُ الْقِدْرَ على أُثْفِيَتِها شَمَاتَةً وشَنَآناً، قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ شعافَ الْجِبالِ أَوْ بِالأَحْرَى سَرادِبَ الأَرْضِ، ذَيْلُهُ بَيْنَ كُراعَيْهِ كَما أَذَلِّ الْحَيَواناتِ وأَقْذَرِها. أَمَّا جَدَّةُ الزَّاوِيَة، فَما كانَ يَهُمُّها مِنَ الْمَسْأَلَةِ سِوَى أَنْ تَحْفَظَ حُقَّ عَطُوسِها أَلاَّ يَقَعَ مِنْها في غُبْشَةِ اللَّيْلِ، إذْ لِكُلٍّ شَأْنٌ في هَذِهِ الْحَياةِ وتِلْكَ.

وبَلَغَنا أَنَّهُ قَدْ كانَ لها جَدٌّ نَصَبَتْهُ الأَقْدَارُ قائداً على نَوَاحِي زَمُّورَةَ فَأَبْدَعَ فِي أَهْلِها مَنْكَرَاتٍ أَخْجَلَتْ جُيُوشَ "لِيوتِي"[90] أَنْفُسَها ووَجَمَتْ لَها

---

[89] جَمْع "بَرِيمة" وهي خيط صوفيّ أسود يُشدُّ حول العمامة ويعادِل "العِقال" عند إخوتنا الخليجيّين.

[90] Lyautay أحد مارِيشالاتِ فرنسا المتسبّبين في استعمار الجزائر.

الأَبالسَةُ في مَراتِعِها حَولَ مَواقِدِ جَهَنَّمَ. بَيْدَ أَنَّ الظَّالِمَ القِسْطَاسُ لَهُ بِالْمِرْصادِ وقَدْ قَتَلَهُ أَحَدُ رجالِها شَرَّ قِتْلَةٍ. وقِيلَ إِنَّهُ قَدْ كانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَبْناءَ ما فَتِئُوا يَتَرَدَّدُونَ على مَكْتَبِ الْمُفَوَّضِ الْفِرَنْسِيِّ يَسْتَخْلِفُونَهُ وَظِيفَةَ وَالِدِهِمْ. فإذا انْبَرَى يَسْبِرُ أَغْوَارَهُمْ ويَتَبَيَّنُ لَوْنَ سَرِيرَتِهِمْ مُسْتَطْلِعاً:

- وماذا سَيَكُونُ تَصَرُّفُكُمْ ؟

أجابُوا مُعْتَدِّينَ بِأَنْفُسِهِمْ، نافِخِينَ الصُّدُورَ كَدِيكَةِ الْمِكْسِيكِ في باحاتِ الْقِتالِ:

- سَنَفْعَلُ فِيهِمْ كَذا وكَذا!

غَيْرَ أَنَّهُ عَنْهُمْ أَشاحَ بِوَجْهِهِ، يَبْرِمُ طَرَفاً مِنَ شارِبَيْهِ الأَحْمَرَيْنِ بِإِصْبِعَيْنِ نَحِيفَيْنِ طَوِيلَيْنِ أَبْيَضَيْنِ قَدْ بُرِدَ ظُفْرَاهُما بِإِتْقانٍ كَما لَوْ كانَا مِنْ كَفِّ غادَةٍ شَرْقِيَّةٍ في بَعْضِ لَوْحاتِ دُولاكْرُوا[91]، وارْتَسَمَتْ بَسْمَةٌ غَرِيبَةٌ على ثَغْرِهِ الرَّقِيقِ، حَتَّى نَطَقَ إِلَيْهِ أَصْغَرُهُمْ كَأَنَّهُ أَفْعَى تُصَفِّرُ:

- أَفْعَلُ ما تُمْلِيهِ عَلَيَّ سِيادَتُكُمْ يا مِيسْيُو!

فَبَرَقَتْ عَيْنا الْعَسْكَرِيِّ وسُرْعانَ ما أَمْضَى لَهُ وَثِيقَةَ التَّعْيِينِ فَما زالَ يَتَفَنَّنُ في تَعْذِيبِ آلِ زَمُّورَةَ[92] والتَّنْكِيلِ بِكُلِّ مَنِ اشْتَمَّ فِيهِ رائِحَةً يَسْتَنْكِفُ مِنْها خَيْشُومُهُ الْمَتَعالِي في قُبْحٍ كَما الْكَلْبِ يَتَحَسَّسُ الْهَواءَ فَوْقَهُ وهُوَ رابِضٌ حَذْوَ الْقُماماتِ. أَوْرَدَتِ الرَّاوِيَةُ أَنَّهُ كان يُغْرِقُ فَرِيسَتَهُ في

---

[91] رسّام فرنسيّ اشتهر بلوحاته الاستشراقيّة.

[92] قرية في ولاية بُرج بو عريريج.

مُسْتَنْقَعِ الْفَضلاتِ ومُخْرَجاتِ الإنْسانِ ـ أَعَزَّ اللهُ القارِئَ ـ إذْ إنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرُ جَوٍّ الْعُفُونَةِ مُتَمَرَّغاً، فِيهِ نَشَأَ وعَلَيْهِ جُبِلَ؛ وقَدْ يَدُسُّ رأْسَ أَحَدِهِمْ في مِزْوَدِ الْفُلْفُلِ الْحارِّ حَتَّى يَخْتَنِقَ وقدْ يَعْبَثُ بِذاكَ التَّعِيسِ أُرْجُوحَةً حَتَّى يَرْتَطِمَ بِجِدارٍ رُشِقَ مَسامِيرَ حادَّةً وهَلُمَّ شُرُوراً وأَهْوَالاً مِنْ كُلِّ الضُّرُوبِ. وتمادَى الأَرْعَنُ في اسْتِبْدادِهِ حَتَّى إنَّهُ كانَ يُسابِقُ العَرِيسَ إلى عَرُوسِهِ فَيَفُضُّ بَكارَتَها على غِرارِ أَسْيادِهِ مِسْيُو الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ وقانُونِ "التَّفخِيذِ"[93] ولَئِنْ كانَ الْمَغْلُوبُ مُولَعاً بِتَقْلِيدِ الْغالِبِ، فإنَّهُ عِنْدَنا مُولَعٌ بِتَقْلِيدِ السَّفِيهِ مِنْهُ الدَّنِيءِ. عِنْدَئذٍ، انْتَفَضَ بَعْضُ مَنْ بَقِيَتْ فِيهِ نَخْوَةٌ وغَلَى الدَّمُ فِي عُرُوقِهِ فَطَعَنَهُ وهُوَ يُفْطِرُ على الإسْفَنْجِ بَدَلَ الْعَرِيسِ إنْ شاءَ اللهُ أَكَلَ سُمّاً يَرْهَجُ مَصارِينَهُ.

بَيْدَ أَنَّ سِلْسِلَةَ أُولَئِكَ الْخَوَنَةِ اسْتَمَرَّتْ وما تَزَالُ إلى يَوْمِنا هَذا... وتِلْكُمْ فتاة في العشرين كانَتْ تُؤْنِسُ والِدَها ويُؤْنِسُها في وَحْشَةِ هاذِيكَ الأَيَّامِ فَوَثِقَتْ بِها النَّاسُ. على أَنَّها كانَتْ تَشِي بِالثُّوَّارِ والْخَلْقُ عَنْها غافِلٌ حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَ عَمِّها وأَخِيهِ نِزاعٌ ـ وكَثِيراً ما يَدْخُلُ الشَّيْطانُ بَيْنَ اللَّحْمِ والظُّفْرِ ـ ولَكِنَّ تِلْكَ ابْتَهَلَتْها فُرْصَةً فَوَّتَتْ بِها على الْمارِدِ الصَّنْعَةَ حَتَّى اغْتَمَّ قَهْراً. وكانَ بَعْضُ الأَقارِبِ الأَبْعَدِينَ قَدْ زارَ الرَّجُلَ فَأَقْراهُ بِنِصْفِ تِيسٍ وتَرَكَ الْعَجُزَ مُعَلَّقاً. وإذا بِها تُحْضِرُ لَهُ الْعَسْكَرَ بِأَنَّهُ يُطْعِمُ الْخارِجِينَ عَلَى الْقانُونِ مِنْ وَرَاءِ الْعَدالَةِ فَسَجَنُوهُ وعَذَّبُوهُ ثُمَّ قَتَلُوهُ بَعْدَ أَنْ سَمَلُوا

---

[93] L'impôt de cuissage

عَيْنَيْهِ. وكانَ الشَّهِيدُ بَرّاً بِوالِدَتِهِ حَتَّى مَلأَ عِطاف قَلْبِها فغَدَتْ بِهِ تُبْصِرُ ولا تُبْصِرُ. تبارَكَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الّذِي أَشْفَقَ عَلَيْها وتَوَفَّى رُوحَها قَبْلَ أَنْ تُفْجَعَ فِي فِلْذَةِ كَبِدِها. مَهْماً يَكُنْ، فَإِنَّ الشُّكُوكَ نَبَتَتْ تَحْتَ قَدَمَيْها ونَسَجَتْ أَنامِلُ الظُّنُونِ حَوْلَها "حائكاً" مِنَ اللَّغَطِ إلى أنْ صادَفَتْ صَبِيّاً يَقْتَلِعُ الْعُشْبَ مِنْ جانِبِ الطَّرِيقِ فَهَمَّتْ بِمَنْعِهِ فَثَبَتَ لَها فَهَدَّدَتْهُ بِمُسَدَّسٍ كانَتْ تُخْفِيهِ تَحْتَها فَوَشَى بِها مِنْ ساعَتِهِ فَذُبِحَتْ ووَالِدَها وعُلِّقا مِنْ أَقْدامِهِما إلى شَجَرَةٍ في طَرِيقِ بُوعَنْداس[94]. وبَعْدَ أَنْ عَجِبَ النَّاسُ مِنَ الْمِسْبَحَةِ لا تُفارِقُ يَدَها، أَضْحَوْا يَضْحَكُونَ لَمَّا رَأَوْها مُعَلَّقَةً في دُبُرِها.

باريس في: 27 مايو 2008

[94] قرية في ولاية سَطِيف.

الرُّؤْيا[95]

ـ هَذا هُوَ الْكُولونِيل زَرْقِين؟... أهذا الكُولُونِيل زَرْقِين؟... انْطِقِي... قُولِي يا ابْنَةَ الْ! ...

كُنْت أُحاوِل أن أنظُر إلى الصُّورة الشّمسيّة بَيْن أَصابِعِ الضّابِط، مِن خِلال الْكَدْمات الّتي كانت تُغطِّي وجْهِي وعَيْنَيّ، بَيْد أنّ شَفَتَيَّ الْمُتَوَرِّمَتَيْنِ، عَجَزَتَا عَنِ الْحِرَاكِ وقد أَغْرَقَتْهُما الدّماء المتسرّبة منهُما ساخنة كَأَنَّهُما ضَرْعا ضَأْن. جرَرْتُ لِسانِي بِجَهْدٍ وحاوَلْتُ، بَيْنَ الْوَجَعِ والأنِينِ، أن أَرُدَّ عَنِّي كَلَبَهُمْ، وكانَتْ كُلُّ لَفْظَةٍ تُكَلِّفَنِي مَشَقَّةً هائِلَةً:

ـ ما أدرِي... لا أعرِفُ الرّجُلَ... قُلْتُ لَكُمْ لا أَدْرِي!

أمْضى العسكرُ يُعذِّبُونَنِي في الْمَكْتَبِ الثّانِي أربعَ ساعات متوالِياتٍ. كانُوا قَدْ قَبَضُوا عَلَى بَعْضِ رِفاقِي في جَبْهَةِ التَّحْرِيرِ ثُمَّ أَلْحَقُونِي بِهِمْ كَيْ تَكْتَمِلَ الْحَلَقَةُ، وإذا بِهِمْ يَسْتَهِلُّونَ مَعِي الْحِصَّةَ على السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ لَيْلاً، على غِرارِ التَّلْقِينِ الْقَدِيمِ: سُؤال وضَرْبٍ، غايَةَ مَنْتَصَفِ اللَّيْل. فإذا

[95] برواية فاطمة الزّهْراء جدّيدي (60 عاما). سُجِّلَتْ عامَ 1999م.

عَجَزُوا مَعِي ـ وكُنْتُ فِعْلاً أَجْهَلُ الرَّجُلَ على الصُّورَةِ ـ أَطْلَقُوا سَراحِي وأَفْسَحُوا بَيْنِي وبَيْنَ الطَّرِيقِ الْمُظْلِمَةِ.

رُغْمَ ضَعْفِ ساقَيَّ الْمُلْتَوِيَتَيْنِ والصُّدَّاعِ الأَلِيمِ الَّذِي كانَ يَلْعَبُ بِرَأْسِي لُعْبَةَ الْقَمَرِ حَوْلَ كَوْكَبِ الأَرْضِ ويُرْقِصُنِي رِقْصَةَ الدَّرَاوِيشِ في قُنْيَةَ، هَرْوَلْتُ إلى حارَةِ الْبُلَيْدَةِ حَيْثُ دَارُنا، يَسْتَحِثُّنِي خَوْفٌ هائل، لأَنَّ السَّاعَةَ ساعَةُ مَنْعِ تَجَوُّل وقَدْ فَعَلَها الْفِرَنْسِيُّونَ فِيَّ شَماتَةً حَتَّى أَهْلَكَ على يَدِ إِخْوانِهِمْ أَوْ مِنْ فُوَّهَاتِ الْمُجاهِدِينَ... الْوَيْلُ لِمَنْ أَرَى ذَنَبَةَ أَنْفِهِ بَعْدَ تِلْكَ السّاعةِ فإنّه لا شَكَّ مُنْتَحِرٌ يُصَوِّبُ صَدْرَهُ لِبُنْدُقِيّاتِ الْفِرَنْسِيسِ والْعَرَبِ على السَّوَاءِ. أولئك كانُوا يُطْلِقُونَ رَصاصَهُمْ على كُلِّ ما يَتَحَرَّكُ بِدُونِ تَمْيِيزٍ؛ فإذا أُعْلِنَ الْحَظْرُ، عَصَبُوا عُقُولَهُمْ في مَحارِمَ ثُمَّ أَوْدَعُوا الرُّزَمَ بُطُونَ الصَّنادِيقِ والأَقْفِقَةِ كَيْما يَسْتَخْرِجُوها إلاّ صَباحاً؛ فَأَنَّى لَهُمْ أَنْ يُفَكِّرُوا أَوْ يُخَمِّنُوا في الْعَدُوِّ والصَّدِيق، في الْحَقِّ والْباطِلِ؟

الْمُهِمُّ أَنَّنِي بَلَغْتُ الرَّحْبَةَ ـ وهِيَ مَيْدانٌ قُرْبَ الْجامِعِ كانَتِ النَّاسُ تَتَرَقَّبُ فِيهِ مَوْعِدَ الصَّلاةِ ـ، فإذا جَنَحْتُ بِكَتِفِي الْيُمْنَى مَعَ الثَّنِيَّةِ صَوْبَ الْحارَةِ، ـ وقد كانت الْحارَةُ أَقْدَمَ حَيٍّ في سَيِّدِي عُقْبَةَ، وبِها زاوِيَةٌ يُقْرِئُ بِها الشَّيْخُ السِّي بَلُّوطَةُ في النَّهارِ الْقُرْآنَ ولِسانَهُ قَبْلَ أَنْ يُسْدِلَ اللَّيْلُ سُتُرَهُ فَيُغْلِقَها ـ إذا بابُ زَاوِيَةِ سَيِّدِي عُقْبَةَ يُفْتَحُ فَأَدْهَشَنِي أَنْ يَنْدُرَ ابْنُ آدَمَ في ذَلِكَ الْوَقْتِ الْمُحَرَّمِ ولِلَحْظَةٍ نَسِيتُ خَوْفِي مُهْتَمَّةً بِالْحَرْتَقَةِ. فَعَنَّ لِي شَخْصٌ إلى الْقِصَرِ يَمِيلُ، قَدْ تَلَفَّعَ في بُرْنُسٍ قَدِيمٍ، عَلَيْهِ شاشٌ ولِحْيَةٌ بَيْضاءُ وفِي كَفِّهِ خَيْزُرانَةٌ. لَمْ يُكَلِّمْنِي الْمَخْلُوقُ ولا رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَيَّ فَزَادَتْ

دَهْشَتِي ولَبِثْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ كَمَنْ غابَ عَنْ وَعْيِهِ وفارَقَ فُؤادُهُ الرُّوحِيُّ مادَّةَ جَسَدِهِ. فَرَأَيْتُهُ يَمْشِي الْهُوَيْنَى، قاصِداً الْجامِعَ في هُدُوءٍ، كَأَنْ لا حَظْرَ ولا هَتْكَ لِمَمْنُوعٍ تَنْفَعِلُ لَهُ الأَعْصابُ. إنّ بَيْنَ الرَّحْبَةِ والْجامِعِ قُرابَةَ الْخَمْسِينَ أَوْ السِّتِّينَ مِتْراً، عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ ظَلَّ يَخْطُو على مَهْلٍ، تُجَلِّلُهُ طُمَأْنِينَةٌ خالِصَةٌ حَتَّى اسْتَنارَ وَجْهُهُ بل كِيانُهُ أَجْمَعُ، فَتَطَلَّعْتُ فِيهِ مَلِيحاً ـ وكُنْتُ مِنْ قَبْلُ أَبْكِي وأَرْتَعِشُ مُتَصَوِّرَةً الْمَوْتَ ماثِلاً لي بَيْنَ السَّيْفِ والنِّطْعِ، أَوْ بِالأَحْرَى بَيْنَ الْعَرَبِ والْفِرَنْسِيسِ ـ فإذا بِي أَسْنُدُ ظَهْرِي إلى جِدارِ الْخُمْرَةِ في ارْتِخاءٍ، أَتْبَعُهُ بِنَظَرِي، غَيْرَ خائِفَةٍ ولا مُرَوَّعَة. ظَلَلْتُ أَسْبَحُ في تِلْكَ اللُّجَةِ النَّوْرانِيَّةِ ثَوانِيَ يَعْلَمُ اللهُ وَحْدَهُ عَدَّها بَيْدَ أَنَّها، مِنْ لَذَّتِها، قدْ خَرَجَتْ عَلى الزَّمَنِ الّذِي حَبَسَهُ الْبَشَرُ بَيْنَ عَقارِبِ ساعاتِهِمْ.

وأخيراً، خَلُصَ الشَّخْصُ إلى بابَ الْبِئْرِ الْمغْلَقِ في تِلْكَ السَّاعة، فَإذا بِهِ يَنْفَتِحُ وَحْدَهُ... ما انْفَكَّتْ أُذُنِي تَحْمِلُ زَرْيَطَةَ هاذاكَ الْبابِ الْعَتِيقِ... ووَلَجهُ الرَّجُلُ فَانْقَفَلَ وَحْدَهُ كَمَا الأَوَّل. عِنْدَئذٍ، كأَنَّ كائناً سُفْلِيّاً طَلَعَ فَجْأَةً مِنْ هاذاك الْعالَمِ وخَرَطَنِي بِكَفٍّ مُوجِعٍ، بَعْدَ أَنْ غابَ الْعَسَّاسُ النَّوْرانِيُّ وامَّحَى الْحاجِزُ الْغَيْبِيُّ. هاهوُ ذَا يُرْقِصُ حَوْلَ وَجْهِي شُمُوعَهُ الْحَمْراءَ ومِصْباحَيْ عَيْنَيْهِ الْخَبِيثَتَيْنِ، ظَمِئاً لِدَمِي، قَرِماً لِفُؤادِي. فَصَرَخْتُ صَرْخَةً فَرِيدَةً وانْطَلَقْتُ أَرْكُضُ على مَدَى مِئَتَيْ مِتْرٍ تَقْرِيباً، لا أَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، إنَّما أَرْجُو بُعاداً عَنْ ذَلِكَ التَّابِعِ الأَسْوَدِ الْمُلْتَصِقِ بِقَفايَ، يُلامِسُ خَصْلاَتِ شَعْرِي الْمُتَشَوِّكَةِ، وكَذَلِكَ حَتَّى وقَعْتُ قُدّامَ بابِ

دارِنا وقَدْ أَدْرَكَتُ أَنَّ الشَّبَحَ الأَبْيَضَ الّذِي شاهَدْتُ قُرْبَ الْبِئْرِ غَيْرُ آدَمِيٍّ.

كانَتْ دارُنا تُقابِلُ الْبِئْرَ، وكانَتْ أُمِّي والْحَنَّاشِيُّ، اللهُ يَرْحَمُهُ، يَنْتَظِرانِ خَبَرِي وَراءَ الْبابِ على أَحَرَّ مِنَ الْجمْرِ، فَفَتَحاهُ وجَبَذانِي بِعُنْفٍ وطَفِقا يَضْرِبانِي حَتَّى أَفَقْتُ فَرَوَيْتُ عَلَيْهِمَا الرُّؤْيا فَهَدَّأا مِنْ رُوعِي قائلَيْنِ:

ـ إنَّما ذَلِكَ سَيِّدِي عُقْبَةُ بْنُ نافِعٍ الْفِهْرِيُّ ظَهَرَ لَكِ يُخْبِرُكِ أنْ لا تَخافِي وسِيرِي في أَمانٍ.

ها أنا ذِي أَرْوِي عَلَيْكِ الْقِصَّةَ بَعْدَ أَرْبعِينَ عاماً ودُمُوعِي كما تَرَيْنَ ساجِمَةٌ مِدْرارَةٌ، مِنْ أَثَرِها الْبالِغِ في نَفْسِي قد انتقشَتْ في خَلَدِي للأبدِ. على أَنِّي لَمْ أَرْعَوِ عَنِ خِدْمَةِ الثَّوْرَةِ، رُغْمَ هَوْلِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وظَلَلْتُ أُؤَدِّي دَوْرَ الْفِدَائِيَّةِ، في سَيِّدِي عُقْبَةَ، غايَةَ 1962م. كُنْتُ أَصْنَعُ لِلْجَيْشِ في جِبَالِ الأَوْرَاسِ، قُفَّازاتٍ صُوفِيَّةً بِالْمِسَلاَّتِ، حَتَّى بادَرَتْنِي امْرَأَةُ حَرْكِيٍّ، ذاتَ يَوْمٍ، وقَدْ لاحَظَتْ صُنْعِي:

ـ فإنِّي أُرِيدُ مِثْلَهَا لِزَوْجِي.

لَكِنَّ وَالِدِي ـ تَغَمَّدَ اللهُ رُوحَهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ ـ هَدَّدَنِي:

ـ عَلَيْكِ دُعاءُ الشَّرِّ مِنْ قُدَّامِكِ ومِنْ وَرائكِ إذا ما صَنَعْتِ لِلْحَرْكِيِّ اللَّبَّاساتِ... بَعْدَئذٍ يُسَخِّنُ يَدَيْهِ ويَنْدُرُ يَقْتُلُ إخْوَانَكِ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟... إيْ واللهِ...

وكانَ زَوْجِي في تِلْكَ الأَيَّامِ، قَدْ رَجَعَ مِنْ فِرَنْسا لِعُطْلَةٍ فَأَجَبْتُها:

ـ ما أَقْدِرُ... يداي تُؤْلِمانِي.

فَما طَوَّلَ الْعَسْكَرُ ولا قصَّرُوا وما هُنَّ سِوَى ثَلاثَةِ أَيَّامٍ حَتَّى شَرَّفُونِي في بَيْتِنا واقْتادُونِي سائِلِينَ:

ـ ولِمَنْ تَصْنَعِينَ الْقَفافِيزَ؟

وَارَبْتُ:

ـ ما أَصْنَعُ الْقَفافِيزَ لأحَدٍ. إنَّما هُما زَوْجَانِ نَسَجْتُهُما لِي فَقَطْ.

وكانَتِ الْعُلْبَةُ، بِحَمْدِ اللهِ، قَدْ عُبِّئَتْ إلى الْجَبْهَةِ بَعْدَ أَنْ حَمَلْناها أَنا وأُمِّي إلى حارَةِ "أَوْلادِ عَمْرو" وسَلَّمْناها إلى الْمَسْؤُولِ "الْقُوَّارِ" إضافَةً إلى الْكَعْكِ الّذِي كُنّا نُعِدُّهُ لَهُمْ، فَما عَثَرُوا على دَلِيلٍ ضِدِّي. وكانوا قَدْ عَذَّبُوا الْقُوَّارَ هَذا شطَطاً، الْحَقَّ، وخَدَمَ كَثِيراً.

وكَأَنَّ الثَّلاثَةَ أَيَّامِ تِلْكَ قد أصابَتْ من أَنْفُسِهِمْ اسْتِحْساناً فَجَعَلُوا، كُلَّما انْسَلَخَ مِنْها عَدَدٌ، يُرْسِلُونَ لِي سَيّارَةَ جِيبْ تَقِفُ قُدَّامَ الدَّارِ فَيُرْكِبُونَنِي مَعُهُمْ مَكْراً حَتَّى يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّنِي عَمِيلَةُ فِرَنْسا ثُمّ بَدَا لَهُمْ أَنْ يَنْقُلُونِي ضِمْنَ ثَلاثِينَ بِنْتاً إلى الْمُسْتَشْفَى مُحْتَجِّينَ:

ـ عَزَمْنا على تَعْلِيمِكُنَّ... ستَدْرُسْنَ هُنا وتَتَعَلَّمْنَ حِرْفَةً تُفِيدُكُنَّ بَدَلَ الْكَلامِ الْفارِغِ.

وكانَ هَدَفُهُمْ أَنْ يُشِيعُوا في الْخَلْقِ أَنَّهُمْ يُسْدُونَ خَيْراً للشَّعْبِ ويُعامِلُونَهُ بِالْحُسْنَى. كنت أَبْلُغُ حينَئذٍ عِشْرِينَ عاما. فإذا تَعَلَّمْتُ الْقِراءَةَ، عَيّنُونِي مُساعِدَةَ مُمَرِّضَةٍ في الْمُسْتَشْفَى على أنّنِي كُنْتُ أُكَلَّفُ بِغَسْلِ

النَّجاسَةِ أَكْثَرَ مِنَ التَّمْرِيضِ، والْمَثَلُ الشَّعْبِيُّ يَقُولُ: "الشِّيعَةُ[96] لِي واللَّحم لِلصَّيَّاد" فَابْتَهَلْتُها فُرْصَةً وجَعَلْتُ أَلْبَسُ سِرْوالاً تَحْتَ فُسْتانِي أُخْفِي فِيهِ الْقُطْنَ والأَدْوِيَّةَ وأُخْرِجُ كُلَّ ذَلِكَ إلى دارِ "أَوْلادِ عَمْرو".

ثُمَّ إِنَّهُمْ ارْتابُوا فِي أَمْرِي فاتَّهَمُونِي فَأَنْكَرْتُ فَجَعَلُوا يَقْتادُونَنِي إلى مَكْتَبِهِمْ كُلَّ مَساءٍ فَتَتَوَسَّطُ والِدَتِي بِمُوَظَّفَتِي الْفِرَنْسِيَّةِ فَتُقْبِلُ الصَّباحَ تُخْرِجُنِي، نافِيَةً أَنْ يُنْسَبَ إِلَيَّ أَدْنَى باطِلٍ.

(بارِيس، ديسمبر 2007م)

---

[96] الشَّارَةُ.

فِي الْـمِتِّيجَةِ[97]

لَمْ أَكُنْ آنذاكَ أَتَجاوَزُ الثَّمانِيَ سَنَواتٍ. لأَجْلِ ذَلِكَ، كُنْتُ أَتَتَبَّعُ وِدْيانَ الْعِنَبِ أَعُدُّ الرِّجالَ. إيْ لَمْ أَكُنْ أَتَجاوَزُ الثَّمانِي سَنَواتٍ ولَكِنَّ الصُّورَةَ مُنْقُوشَةُ الْخُطُوطِ فِي خَلَدِي إلى الأَبَدِ. كانُوا يُصَفِّفُونَ خَمْسَةَ رِجالٍ، يَلُونَهُمْ أَرْبعةٌ ثُمَّ ثَلاثَةٌ ثُمَّ اثْنانِ فَواحِدٌ، فَيَحْزِمُونَ بَعْضَهُمْ إلى بَعْضٍ قَبْلَ أَنْ يَرْبِطُوا الْمِحْراثَ إلى ظُهُورِهِمْ فَيَجْذِبُونَهُ دَقَّةً واحِدَةً يَحْرُثُونَ الأَرْضَ بَدَلَ الثِّيرانِ. إنَّما كانَ الْمُعَمِّرُونَ يَسْتَعِيضُونَ عَنِ الْحَيَوَاناتِ بِالرِّجالِ.

رُغْمَ أَنِّي كُنْتُ صَغِيرَةً لا أَفْهَمُ الْقاعِدَةَ جَيِّداً، لَكِنِّي أَجْزِمُ أَنَّ الأَقْدامَ السُّودَ هَؤلاءِ قَدْ صَنَعُوا شَرّاً ما صَنَعَهُ أَحَدٌ فِي الْجَزائر. وبُورْجُو وجِيرْمانْ[98] هذان، كانا يَتَفَقَّدانِ أَراضِيَهُما بِوسَاطَةِ الطَّائرَةِ ويَسْتَعْمِلانِ الْمَساجِينَ الْجَزائرِيِّينَ كَما وَصَفْتُ فِي فِلاحَةِ أَراضِيهِما.

يَبْدُو أَنَّهُمَا كانَا يَدْفَعانَ الرَّشْوَةَ لِلْحاكِمِ أَوْ ما أَدْرِي مَنْ فكانُوا يَبِيعُونَهُما الْمَساجِينَ عَبِيداً فَمَنْ ماتَ أَلْقَوْهُ ومَنْ حَيِيَ اسْتَغَلُّوهُ إلى آخرِ رَمَقٍ. كانَ

---

[97] برواية فاطمة الزَّهْراء جدِّيدي (60 عاما). سُجِّلَتْ عامَ 1999م.

[98] Borgeot et Germain

أُولئكَ الْمَغابِينُ مَشْدُودِينَ بِالأَحْزِمَةِ مِنَ الأَكْتافِ ويَنامُونَ في الْمُسْتَوْدَعاتِ[99] على التِّبْنِ ووَرَقِ الدَّالِيَةِ، مَرْبُوطِينَ بِالسَّلاسِلِ، مُمَزَّقِي الثِّيابِ، جائِعِينَ. وكانَ الْمُفَوَّضُ أَو مُسْتَخْدَمُ الْمَزْرَعَةِ[100] يَتْبَعُهُمْ حَتَّى لا يَتَوَقَّفُوا وكانَ يَضْرِبُهُمْ بِقَسْوَةٍ. كُنْتُ أَرَى أَبِي يَصْحُو على قَرْعِ النَّاقُوسِ، السَّادِسَةَ صَباحاً، فَيَجْعَلُ وَرَقاً مُقَوَّى على رِجْلَيْهِ كَسائِرِ إِخْوَانِهِ ويَنْزِلُونَ إلى الِمتِّيجَةِ[101] يَجْنُونَ تُوتَ الأَرْضِ وفُسْتُقَ الْعَبِيدِ فَنَنْظُرُ الْخَيْرَ ولا نَلْمَسُهُ ومَنْ غَلَبَهُ الْجُوعُ وسَرَقَ شَيْئاً فَإِيَّاهُ. كُنْتُ أَبْلُغُ مِنَ السِّنِّ ثَمانِيَةً ولَنْ أَنْسَى أَبداً. كانُوا يَنْصِبُونَ الْخِنْزِيرَ والْبُقُولَ والْخُبْزَ يَسْتَطْعِمُونَ ونَحْنُ نَنْظُرُ لا يَجُوزُ لأَنامِلِنا الْوَسِخاتِ الْخَشِناتِ أَنْ تَطالَ وَرَقَ الشَّجَرِ. كانَ والِدِي يَقْتَطِعُ كارْتُوناً فَيَرْبِطُهُ بِالرَّافِيا مَوْضِعَ الْحِذاءِ ويَخْرُجُ يَعْمَلُ في الثَّلْجِ. يَنْظُرُ ورِفاقُهُ إلى الْبُرْتُقالِ والرُّمَّانِ والْخَوْخِ ولا يَلْمَسُونَ شَيْئاً. كانُوا يَشْرَعُونَ الْعَمَلَ السَّاعَةَ السَّادِسَةَ صَباحاً غايَةَ الثَّانِيَةَ عَشَرَ ثُمَّ مِنَ الثَّالِثَةَ عَشَرَ إلى الثَّامِنَةَ عَشَرَ مَساءً. لَنْ أَغْفِرَ لَهُمْ ما فَعَلُوهُ أَبداً... أَبَداً ما عِشْتُ. كُنْتُ أَرَى بَعْضَهُمْ يَدُوخُ مِنَ الْقائِلَةِ فَيَقَعُ أَرْضاً وهُمْ يَضْرِبُونَ بِالسِّياطِ وكانَ الْمُفَوَّضُ فِرَنْسِيّاً خالِقاً ثَمَّةَ يَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ مِثْلَنا ولكِنَّ قَلْبَهُ صَلْدٌ جامِد. تَصَوَّرِي أَنّا ما كُنَّا نَأْكُلُ الْبَطاطا قَطُّ، وأَذْكُرُ أَخِي بَلْقاسِمَ

---

[99] Hangard

[100] Le commis

[101] سُهُولٌ غرب الجزائر العاصمة.

قَمِنَ ذاتَ يَوْمٍ وتَجَرَّأَ على يَقْطِينَةٍ خَطَفَها فَرَبَطَها على ظَهْرِهِ وأَخَذَ يَحْبُو على الأَرْضِ. لِماذا يَحْبُو؟ حَتَّى لا يَجِدُوا أَثَرَ رِجْلَيْهِ في التُّرابِ صَباحاً، وإلاَّ حَمَلُوهُ وقاسُوا قَدَمَهُ على الْعَلامَةِ فإذا ناسَبَتْ، وَقَعَ الْعَذابُ على أَبِيهِ. كانَ في سِنِّهِ اثْنَا عَشَرَ عاماً تَقْرِيباً.

كانَتِ النَّاسُ في ذَلِكَ الْوَقْتِ تُعْطِيكِ عَيْنَهَا إذا طَلَبْتِها لأَجْلِ أَنْ تَفُوزَ الثَّوْرَةُ. سَكَنَّا ثَمانِيَ سَنَواتٍ في الشَّراقَةِ[102] ونَحْنُ ذَرارٍ فَكُنَّا نَنْزِلُ إلى جَرِّ الْبَحْرِ نَرْسُمُ الْعَلَمَ الْجَزائِرِيَّ ولا نَفْهَمُ مَعْناهُ فإذا رَأَيْنا الْفِرَنْسِيَّ مُقْبِلاً، أَفْسَدْناهُ بِأَيْدِينا قَبْلَ أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَيْهِ لأَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّهُ لا يُحِبُّهُ. كُنَّا نَفْهَمُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ الْجَزائِرَ لِلْجَزائِرِيِّينَ.

جُنَيْنَةُ بُورْجُو هَتِهِ حَيْثُ كانَ يَعْمَلُ أَبِي، كانَ بِها مِنْ كُلِّ صِنْفِ الأَشْجارِ الّتِي خَلَقَ اللهُ على الأَرْضِ. حَتَّى السَّوَاقِي كانَتْ بِالزَّلِّيج. كُنْتِ تُحِسِّينَهَا جَنَّةً على الأَرْضِ ونَحْنُ بَيْنَ أَيْدِي الشَّياطِينِ.

(باريس، ديسمبر 2007م)

[102] من ضواحي الجزائر العاصمة.

الثَّوْرَةُ في فِرَنْسا[103]

في الْواقِعِ، لَمْ يَكُنْ حَبْسُ فَانْسِينَ[104] حَبْساً، بَلْ كانَ مُجَرَّدَ مَحْشَدٍ يُودِعُونَهُ السُّجَناءَ السِّياسِيِّينَ إيداعاً. فإذا كانَ عامُ 1958م، جَعَلُونا نَحْنُ الْقُدامَى، في قاعاتٍ أَسِرَّتُها بَعْضٌ عَلى بَعْضٍ. وكانُوا يَمُرُّونَ عَلَيْنا بِبُرْمٍ عَظِيمَةٍ فِيها حَسَاءُ جِلْبانٍ يابِسٍ[105]، مِنْ رَداءَتِهِ يَرْتَعِشُ ارْتِعاشاً. وكانَ بَعْضُ الإخْوَانِ تَحْتِي ما يَفْتَأُ يُخاطِبُنِي، كُلَّما مَرُّوا:

ـ أُنْظُرْ يا السَّعِيدُ "الْحَيَّةَ" هلْ تَرْتَعِشُ، فَلَئِنْ كانَتْ تَرْتَعِشُ فلا داعِيَ لإيقاظِي.

كُنْتُ في ذَلِكَ الزَّمانِ، أَرْفَعُ يَدَيَّ إلى السَّماءِ كُلَّ صَباحٍ، وأَدْعُو حارّاً:

ـ اِنْزَعْ لِي عَيْناً، يارَبُّ، واتْرُكْ لِي عَيْناً وأَرَى الْجَزائِرَ مُسْتَقِلَّةً ذاتَ يَوْمٍ.

---

[103] بِرواية السَّعيد جدِّيدي (73 عاما). سُجِّل عام 1999م.

[104] Vincennes

[105] Poix-cassés

فكانَ هَذا الّذِي تَحْتِي يَقُولُ لِي:
ـ إنَّما بَدأْتَ تُجَنُّ يا السَّعِيدُ.
فَكُنْتُ أُجِيبُ:
ـ كَلاَّ. لَيْسَتِ الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةَ هَبَلٍ. وإنَّما أُحِبُّ أَنْ أَرَى اسْتِقْلالَ الْجَزائِرِ يا إبْراهِيمُ أَخِي.
وكُنْتُ أَصْمُتُ شارِداً عَنِ الْمكانِ إلى مَرْتَعِ طُفُولَتِي، لَمَّا انْخَرَطْتُ في الْكَشَّافَةِ ـ وأَنا صَغِيرٌ ـ لأَنَّ لِباسَها أَعْجَبَنِي وفِيها كُنَّا نُغَنِّي:
مِنْ جِبالِنا طَلَعَ صَوْتُ الأَحْرارْ يُنادِينا لِلاِسْتِقْلالِ
ولَكِنَّا ما كُنَّا نَفْهَمُها فَكُنَّا إذا سَأَلْنا الأُسْتاذَ قال:
ـ إذا كَبُرْتُمْ فَهِمْتُمْ.
كُنَّا نَدْفَعُ أُجْرَةً بَسِيطَةً ثُمَّ نَتَناوَلُ خِرْقَةً خَضْراءَ ونَسِيرُ في الطُّرُقاتِ مُغَنِّينَ غايَتَها حَظَرَتْ عَلَيْنا فَرَنْسا بعْدَ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ. وما فَهِمْتُ مَعْنَى النَّشِيدِ إلاَّ وأَنا مُجاهِدٌ في الثَّوْرَةِ.
ومِنْ ضِمْنِ مَنْ كانَ مَعَنا ثَمَّةَ في فانْسِينَ، الْبَشِيرُ بُومَعْزَةَ. وكانَتِ الثَّوْرَةُ، في مَبْدَئِها، مِيصالِيَّةً كُلِّيّاً، عَلى الأَقَلِّ طِيلَةَ السِّتَّةِ أَشْهُرٍ الأُولَى. وكانَ مِيصالِيٌّ هَذا في قَصْرِ[106] دِي شانْتِيِّي الّذِي يَحْوِي جَمِيعَ تارِيخِ الْجَزائِر.

[106] De Chantilly

ثُمّ إنَّ الثَّوْرَةَ نَشِبَتْ بَيْنَنَا نَحْنُ الْوَطَنِيِّينَ وانْقَسَمْنَا إلى حِزْبَيْنِ مِصالِيٍّ وجَبْهَوِيٍّ. وطالَما أَنَّ حَدِيثاً يَجْلِبُ حَدِيثاً، فَإِنَّ صُورَةَ أَحَدِ الْجَبْهَوِيِّينَ تَحْضُرُنِي هُنا، وقَدْ أَمْسَكَ مُسَدَّساً صامِتاً وأَرْدَى مِيصالِيّاً أَمامِي قَبْلَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيَّ سائلاً ونظَرُهُ يَثْقُبُ مِنِّي الرُّوحَ بَعْدَ الْجَسَد:

- أَوَ يَسْتأَهِلُ؟

نَفَخْتُ لا أَتَحَكَّمُ فِي بَناتِ شَفَتَيَّ وقَدْ ذَهَبَ بِهِما الارْتِعاشُ كَلَّ مَذْهِبٍ:

- يَسْتَأْهِلُ.

فَتَنَحَّى عَنِّي وكانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَيِّتٍ أَراهُ بِعَيْنِيَّ. كُنْتُ فِي ذَلِكَ الزَّمانِ مَسْؤُولاً عَنْ مَنْطِقَتَيْ "الطُّرُق الأَرْبَعِ جُونْفِيلْيِيه"[107]. وكانتا في ذَلِكَ الزَّمانِ مَحْيُوفَتَيْنِ جِدّاً، قَدِ اسْتَحْكَمَ بِهِما الْعَوَزُ، فَغَطَّتْهُما الْبُيُوتُ الْقَصْدِيرِيَّةُ كَأَنَّما الْفُطْرُ يَبْرُقُ بَعْدَ وَابِلِ مَطَرٍ. كُنَّا نَخْتَفِي فِي تِلْكَ الزَّنْقاتِ فَلا تَجِدُ الشُّرْطَى إِلَيْنا سَبِيلاً. وكُنَّا قَدْ قَسَّمْنا ذَلِكَ الْحَيَّ الْعَظِيمَ إلى قِسْماتٍ مِنْها ما أَسْمَيْناهُ "الْقاهِرَةَ" و"صَوْتَ الْعَرَب" كَما أَنَّنا اسْتَحْدَثْنَا رُمُوزاً وأَسْماءَ مُسْتَعارَةً للإخْوانِ. فَكُنْتُ، عَلى سَبِيلِ الْمِثالِ، أُدْعَى: "اكْرُوتشِّيف". وكَذَلِكَ ابْتَكَرْنا لُغَةً نَتَكَلَّمُ بِها لا أَحَدَ يَفْهَمُها سِوانا تَجَنُّباً لِلْحَرْكَى الّذِينَ كانُوا يَتَجَسَّسُونَ عَلَيْنا. مِنْ ذَلِكَ: "- رَوَّحْتْ ابِّيَّكْ بُوسامْ" بِمَعْنَى: "اِذْهَبْ إلى ذَلِكَ الْمَكان."

[107] Les Quatre Chemins et Asnières Gennevilliers

وكانَ أَحَدُ السَّطائفِيَّةِ هُوَ الّذِي ابْتَكَرَ هَذِهِ اللُّغَةَ. كانَتْ حالَتُنا حالَةَ الْقِرَدَةِ وعلى ذَلِكَ ثُرْنا.

فإذا كانَ اللَّيْلُ، تحَرَّكْتُ فِي "طُرُقِ كُولُومْبَ الأَرْبَعَةِ"[108] إلى أَنْ هاجَمَتْنا La DST وهُمْ شُرَطٌ مَتَخَصِّصُونَ في هَذا الشَّيْءِ لا غَيْرُ. رُغْمَ ذَلِكَ فإنَّهُمْ كانُوا يجْهَلُونَ الْمَكانَ وما زِلْتُ إلى حَدِّ السَّاعَةِ أَجْهَلُ كَيْفَ عَثَرُوا عَلى مَوْضِعِ شُغْلِي. على أَنَّهُمْ، لَمَّا طَلَبُوا الرُّجُوعَ إلى مَكْتَبِهِمْ في بارِيسَ، تاهُوا لَوْلا أَنْ دَلَلْتُهُمْ أَنا عَلَيْهِ.

كانُوا في ذَلِكَ الْوَقْتِ يجْعَلُونَ رِجْلَيْ الرَّجُلِ في الإسْمَنْتِ حَتَّى إذا جَفَّ أَلْقَوْهُ في نهْرِ السِّينِ[109] حَيّاً أَوْ يَضْرِبُونَهُ إلى الرَّأْسِ فإذا غُشِيَ عَلَيهِ أَلْقَوْهُ في شِكارَةٍ وحَزمُوها قَبْلَ أَنْ يُلْقُوهُ.

فإذا امْتَطَيْتُ السَّيَّارَةَ، أَطْلَلْتُ تحْتَ الْمَقاعِدِ أُفَتِّشُ عَنِ الأَكْياسِ عَسَى أَنْ أَفِرَّ لَوْ قُدِّرَ لِي. بَيْدَ أَنَّهُمْ أَفاقُوا إلَيَّ وَإذا أَحَدُهُمْ يُعَلِّقُ:

ـ Dis donc il est malin lui ! ... عَسَى أَنْ تَبْحَثَ عَنِ الشَّكائر؟

أَكَّدْتُ:

ـ أَجَلْ! هُوَ ذَاكَ.

اِسْتَمَرَّ:

---

[108] Quatre Chemins de Colomb

[109] La Seine

ـ فإنَّا لا نُرِيدُكَ أَنْتَ بِالذَّاتِ بَلْ مُسَيِّرَكَ.
تَرَفَّعْتُ بِاشْمِئْزازٍ واعْتِدادٍ:
ـ كَيْفَ يَكُونُ أَكْبَرُ مِنِّي وأَنا الرَّجُلُ الْقَوِيُّ الْكَبِيرُ؟
نَفَخَ:
ـ اِسْمَعْ. لا تَتَمَهْبَلْ عَلَيْنا حَيْثُ إِنَّكَ تَفْهَمُ جَيِّداً ما نَبْغِيهِ.
أَجَبْتُ بِبَساطَةٍ:
ـ ما أَعْرِفُ أَحداً.

وكانَ رَئِيسُ الْمُوَظَّفِينَ[110] السَّيِّدُ قُوسِيرGoussaire الّذِي أَعْمَلُ عِنْدَهُ، قَدْ نَفَعَنِي كَثِيراً. كانَ يَمِيلُ إِلى الْجَزائِرِيِّينَ بَعْضَ مَيْلٍ فَإِذا بَحَثُوا مَعَهُ، شَهِدَ لِي بِالاسْتِقامَةِ فَخاطَبَنِي الْمُفَتِّشُ مُعَلِّقاً:

ـ Dites donc votre chef vous aime bien ! ... إِنَّ الْمَسْؤُولَ عَنْكَ يُحِبُّكَ على ما يَبْدُو.

قارَضْتُ:

ـ C'est la preuve que je suis un type bien. هَذَا بُرْهانٌ عَلى أَنَّنِي رَجُلٌ جَيِّدٌ.

الْمُهِمُّ أَنَّهُمْ نَقَلُونِي مِنْ ثَمَّةَ إِلى النِّيابَةِ حَيْثُ قَضَيْتُ اللَّيْلَ. والْمُضْحِكُ فِي الأَمْرِ أَنَّنِي كُنْتُ دَلِيلَهُمْ على الطَّرِيقِ إِذا ما تَوَدَّرُوا لَيْلاً. فإِذا بَلَغْنا مَكْتَبَهُمْ، أَكْرَمُونِي بِسَنْدَوِيتشٍ، امْتِناناً وشُكْراناً. لَمْ يَكُنْ أَبَداً مِنْ عادَتِهِمْ

[110] Le chef du personnel

أَنْ يُعْطُوا طَعاماً لأَحَدٍ بِيْدَ أَنَّي، لَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُخْرِجُونَ خارِطَةَ بارِيسَ ويَتَجادَلُونَ، سَأَلْتُهُمْ:

ـ لَعَلَّكُمْ تَجْهَلُونَ طَرِيقَ "الدَّار"؟

نَفَخُوا بِصَوْتٍ واحِدٍ، وقَدْ جَحَظَتْ حَدَقاتُهُمْ حَيْرَةً:

ـ إيْ بِالله!

تَفَوَّهْتُ بِبَساطَةٍ:

ـ فَسِيرُوا على بَرَكَةِ اللهِ أَنا أُشِرْ عَلَيْكُمْ.

اِسْتَفْهَمَ بَعْضُهُمْ:

ـ وكَيْفَ تَعْرِفُ الطَّرِيقَ أَنْتَ؟

قُلْتُ:

ـ هَذِهِ حَوْمَتِي.

فَلَطَمَ رَأْسَهُ قائلاً:

ـ أَجَلْ، أَجَلْ، نَسِيتُ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ بَحَثُونِي وَأَمْسَكْتُ حَتَّى إذا بَزَغَ نُورُ الصَّباحِ ومَسَحَ ذَلِكَ اللَّيْلَ الْكالِحَ، نَقَلُونِي إلى فانْسِينَ[111]، إلى بَعْضِ الْمُسْتَوْدَعاتِ يُلْقُونَ فِيها النَّاسَ كَمَا تُلْقَى النُّفاياتُ في مَواضِعِ إفْراغِ الْقُمامَةِ. لا مِرْحاضَ بِها ولا مَجْرًى ولا ماء. الْحاصِل "واحَدْ الْحالَة!" كانُوا يَنْبُذُونَ إلَيْنا كارْتُوناتٍ نَفْتَرِشُها والْمَطَرُ عَلَيْنا هاطِلٌ. أنا واحِدٌ أَصابَنِي السُّعالُ أَوِ الالْتِهابُ

[111] Vincennes

الرِّئَوِيُّ[112] ما أَدْرِي... بَعْدَ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ، رَدُّونِي إلى افْرِينْ[113] حَيْثُ صادَفْتُ الْبَشِيرَ بُومَعْزَةَ وقدْ جَمَعَتْنا زَنْزانَةٌ واحِدَة. فَتَعاوَنَّا عَلى تَدْرِيسِ الْعَرَبِيَّةِ قُرابَةَ السِّتَّةِ أَشْهُرٍ لَوْلا أنْ ظَهَرَ لَهُمْ أَنْ يَنْفُونِي مِنْ بارِيسَ وضَوَاحِيها بِصِفَةٍ قَطْعِيَّةٍ وقدْ تَقَلْنَسْتُ بِقُلَنْسُوَّةِ النَّقِيبِ وأَضْحَيْتُ أَتَحَدَّثُ بِاسْمِ الْمَساجِينِ وأَطْلُبُ طَعاماً أَطْيَبَ وظُرُوفاً أَلْيَقَ.

كانَ دُخُولِي الأُوَّلُ إلى فِرَنْسا في يُونْيَه عام 1951م. دَخَلْتُها سائحاً ثُمَّ أَصبْتُ وَظِيفَةً بِسُرْعَةٍ فَمَكَثْتُ فِيها إلى يَوْمِنا هَذا.

خَرَجْتُ مِنْ سَيِّدِي عُقْبَةَ[114] سَنَةَ 1945م بَعْدَ وَفاةِ أُمِّي وكانَ أَبِي قَدْ تَوَفَّاهُ الأَجَلُ الْمَحْتُومُ قَبْلَ ذَلِكَ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ.

كانَ النَّاظِرُ إِلَيَّ آنذاكَ، يَرْثِي لِحالِي ويَمْتَنِعُ عَنِ النَّعْمَةِ يَسْتَطْعِمُها. شابٌّ ابْنُ سِتَّةَ عَشَرَ رَبِيعاً (وُلِدْتُ عامَ 1929م) قَرِفٌ، زَرِيُّ الْحالِ، قَدْ أَعْمَلَ فِيهِ الْيُتْمُ عَمَلَهُ ولَفَظَهُ إلى الدُّرُوبِ يَتَسَكَّعُ لَوْلا أَنْ أَبْصَرَ بِي أَحَدُهُمْ فامْتَعَضَ لِمَنْظَرِي وَبادَرَنِي:

ـ أَما دَرَيْتَ يا مِسْكِينُ أَنَّ لَكَ ابْنَ عَمٍّ في الْعاصِمَةِ؟ تَعالَ مَعِي أَصْحَبْكَ إِلَيْهِ... لنْ أَتَخَلَّى عَنْكَ حَتَّى أُوصِلَكَ إلى فَمِ بابِهِ.

---

[112] Bronchite

[113] Fresnes

[114] قَرْيَةٌ في وِلايَةِ بَسْكَرَةَ، بِها ضَرِيحُ سَيِّدِنا عُقْبة بن نافع الفهريّ وغيره من التّابعين الأَجلاّء رَحِمهم اللهُ.

حاجَجْتُ:

ـ أَمَّا أَنا فَما أَعْرِفُهُ.

قال:

ـ لا تَخْشَ شَيْئاً أَنا أَعْرِفُهُ.

ومَعَ أَنَّهُ قَدْ كانَ لِي إِخْوَةٌ مِنْ أَبِي وأَخْوَالٌ في سَيِّدِي عُقْبَةَ ولَكِنَّ أَحَداً لَمْ يَكْتَرِثْ لِحالِي، فَاسْتَمَرَّ الرَّجُلُ:

ـ هَيِّئْ دَراهِمَ السَّفَرِ.

هَمَسْتُ بِصَوْتٍ رَتِيبٍ كَما لَوْ كُنْتُ أُحَدِّثُ مَعْتُوهاً غابَتْ عَنْهُ مَسْأَلَةٌ بَدِيهِيَّةٌ:

ـ لَيْسَ لِي.

فَأَجابَنِي كَمَنْ أَفاقَ إِلى ما فِي ذِهْنِي مِنْ تَعْلِيقٍ فَنَفَخَ مَلْسُوعاً:

ـ تَدَبَّرْ شَأْنَكَ.

فَجَعَلْتُ أَبِيعُ الأَشْياءَ الّتِي خَلَّفَتِ الْعَجُوزُ: الْقَصْعَةَ والْمِهْرَاسَ والْمَلاعِقَ حَتَّى جَمَعْتُ ثَمَنَ الْقِطارِ مِنْ بَسْكَرَةَ إِلى الْعاصِمَةِ. بَعْدَ يَوْمَيْنِ مِنَ السَّفَرِ، بَلَغْتُ دارَ ابْنِ عَمِّي فَأَلْفَيْتُ الْجَوَّ ثَقِيلاً. ومَعَ أَنَّ زَوْجَهُ مِنْ سَيِّدِي عُقْبَةَ أَيْضاً، بَيْدَ أَنَّها كانَتْ تُؤَكِّلُ أَبْناءَها خُفْيَةً عَنِّي. رَأَيْتُها بِعَيْنِي هَتِهِ فَاحْتَمَلْتُ نَفْسِي مِنْ عِنْدِهِما إِلى الْمَجْهُولِ. تِلْكَ أَيَّامٌ عَصِيباتٌ أَمْضَيْتُها في الْعاصِمَةِ وقَدْ قَبَضَ عَلَيَّ الْفَقْرُ الأَكْحَلُ بِمَخالِبَ ماضِيَةٍ كَما الْعِفْرِيتِ الْمارِدِ يُنْشِبُ أَظافِرَهُ في بَدَنِ الْمُؤْمِنِ.

كانَ ثَمَّةَ مَحْجَرَةٌ تُدْعى مَحْجَرَةَ السَّيِّدَةِ جُوبِير[115] لا أَدْرِي اسْمَها الآنَ، فَوْقَ حَيٍّ اكْلِيما دُو افْرُونْس[116]، يَجْلِبُونَ مِنْها الْحَصْباءَ في النَّهارِ. ولأَنَّي كُنْتُ ارْتَدِي سِرْوالاً مُمَزَّقاً ونَعْلَيْ الْحَلْفاءِ فَقَدْ كُنْتُ أَسْتَحِي مِنْ هَيْئَتِي وَأَخْتَفِي في تِلْكَ الْمَحْجَرَةِ بِالنَّهارِ فإذا سَتَرَتِ الْغُلْسَةُ، هَوَّدْتُ إلى الأَحْياءِ الْفِرَنْسِيَّةِ أُفَتِّشُ في مَزابِلِ الرُّومِ عَنْ بَقايا أَكْلٍ وطَعامٍ. أَشَدُّ ما كُنْتُ أَخْشاهُ أَنْ يَعْلَمَ بِخَبَرِي ناسُ سَيِّدِي عُقْبَةَ فَيَضْحَكُوا مِنِّي أَوْ يَتَشَفَّوْا.

كانَ ثَمَّةَ رَجُلٌ اسْمُهُ الْعِيدَ بُومَعْزَةَ أَصْلُهُ مِنْ نَوَاحِي بَسْكَرَةَ. سَمِعَ بِي هامِلاً فَانْطَلَقَ يَسْتَطْلِعُ ابْنَ عَمِّي فَأَنْكَرَ مَكانِي فَاسْتَمَرَّ يَسْأَلُ مِنْ مَوْقِعٍ إلى مَوْقِعٍ حَتَّى أُشِيرَ عَلَيْهِ:

ـ إنَّهُ في الْمَضْرِبِ الْفُلانِيِّ.

ذاتَ صَباحٍ، لَمَحْتُ سَيِّداً ذا هَيْئَةٍ جَمِيلَةٍ مُقْبِلاً صَوْبَ الْمَحْجَرَةِ يَسِيرُ مُنْفَرِداً. أَجْفَلْتُ مِنْهُ ولَكِنَّهُ جَعَلَ يَدُورُ في الْمَكانِ، يَلاعِبُ التُّرابَ، مُغَنِّياً عَنْ سَيِّدِي عُقْبَةَ أو مُرَتِّلاً الْقُرْآنَ حَتَّى يَجْذِبَنِي. فإذا تَشَجَّعْتُ، كَلَّمَنِي بِاسْمِي سائلاً:

ـ لِمَ هَرَبْتَ مِنْ دارِ ابْنِ عَمِّكَ؟

قُلْتُ:

---

[115] Carrière Madame Jobert

[116] Climat de France

ـ لَوْ رَأَيْتُ مِنْهُ الْخَيْرَ لَما فَرَرْتُ ولَوْ كانَ لِي عَمَلٌ لَما تَدَحْرَجْتُ إلى هَذَا الدَّرَكِ الّذِي تَرَى.

فَاصْطَحَبَنِي إلى بَيْتِهِ وكانَ أَبْتَرَ لا وَرِيثَ لَهُ فَخاطَبَ زَوْجَهُ:

ـ هَذا وَلَدُنا انْطِلاقاً مِنَ الْيَوْمِ فَاعْتَنِي بِهِ وانْتَبِهِي... إنَّهُ فِلْذةُ كَبِدِكِ.

لَقَدْ صَنَع هذانِ لِي خَيْراً لَنْ أَنْساهُ. ما زِلْتُ أَذْكُرُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ إذْ حَمَلَتْ جَفْنَةَ ماءٍ وصابُوناً أَغْتَسِلُ فَما خَرَجْتُ مِنْ ذَلِكَ الْحَمَّامِ حَتَّى وَجَدْتُ كُسْوَةً جَدِيدَةً تَنْتَظِرُنِي. وإذا السَّيِّدُ يُبادِرُنِي:

ـ لا تَحْمِلْ هَمّاً. سَأَتَدَبَّرُ لَكَ عَمَلاً.

لَكِنَّ الشَّيْطانَ لَعِبَ بِعَقْلِي وكُنْتُ غِرّاً لَمْ تُحَنِّكْهُ الدُّنْيا، فَأَخَذْتُ فِي مُعَاشَرَةِ أَصْحابِ السُّوءِ، لا سِيَّما أَنَّنِي كُنْتُ أَشْتَغِلُ في مَقْهًى في بابِ الْوادِي صاحِبُها مِنْ سَيِّدِي عُقْبَةَ ومِنْ ثَمَّةَ أُشاهِدُ النَّاسَ تَرْكَبُ الْباخِرَةَ وتَبْتَعِدُ.

كُنْتُ أُشاهِدُ الطَّوَابِيرَ على مِئَتَيْ مِتْرٍ. وكانَتِ السُّلُطاتُ تَشْتَرِطُ آنَذاكَ على الْمُسافِرِينَ فَحْصاً طِبِّيّاً دَرْءاً للأَمْراضِ وكانَ التِّيْفُوسُ مُنْتَشِراً فَخَمَّنْتُ بَيْنِي وبَيْنَ نَفْسِي:

ـ لأَرُوحَنَّ أَنا أَيْضاً فَأَرَ فِرَنْسا هَتِهِ الّتِي تَغْدُو إلَيْها النَّاسُ جَمِيعاً ما تَكُونُ؟

ودامَ اخْتِراقُ الْبَحْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ. لَمْ تَكُنْ في الْواقِعِ باخِرَةً تِلْكَ الَّتي امْتَطَيْتُها بَلْ سَفِينَةَ شَحْنٍ[117] يَنْقُلُ فِيهِ الْفِرَنْسِيُّونَ الزَّوَائلَ والْبَقَرَ إلى فِرَنْسا.

لَمْ يَكُنْ بِفِرَنْسا، عامَ 1951م حَرَكَةٌ سِياسِيَّةٌ واضِحَةٌ بَلْ مُجَرَّدُ قَلاقِلَ سُفْلِيَّةٍ لَمْ تَنْتَبِهْ إِلَيْها الشُّرْطَةُ فَما إنْ حلَّ عامَ 1954م حَتَّى ظَهَرَ الْجَمِيعُ مِيصالِيّاً.

كانَتِ الدِّيارُ الْقَصْديرِيَّةُ تُغَطِّي "طُرُقِ آنْيِيرِ الأَرْبَعة"[118] هَتِهِ، وتَخْرُجُ إلى آرْجُونْتُويْ[119] مُرُوراً بِنانْتِيرْ وجُونْفِيلِيْه[120]. وما كانَ يَقْطُنُها غَيْرُ الْجَزائِرِيِّينَ وعائلاتِهِمْ. ما مِنْ سَيَّارَةٍ تَمُرُّ مِنْ هُناكَ، فإذا جُنَّ اللَّيْلُ، اِنْقَطَعَ عَنْها الشُّرْطَةُ رَهْبَةً والْعَرَبُ كُلُّها مُسَلَّحَةٌ. فَكُنَّا نَجْتَمِعُ بِها والنِّساءُ يُزَغْرِدْنَ إذا شَعَرْنَ بِشَيْءٍ مُرِيب.

لَوْلا تِلْكَ الْبُيُوتُ الْقَذِرَةُ لَما قَدَرْنا عَلَيْهِمْ الْحَقِيقَةُ. أَمَّا أَنا فَكُنْتُ رَئِيسَ قِسْمَةٍ. أَجْمَعُ الأَمْوَالَ وأَجْعَلُها في كِيسٍ أَسَوَدَ ثُمَّ أُودِعُها الْقُنْصُلِيَّةَ التُّونِسِيَّةَ الَّتي تُبْلِغُها الإخْوانَ الْجَزائِرِيِّينَ في تُونِسَ فَيَبْتاعُونَ لَنا السِّلاحَ ويُرْسِلُونَهُ إِلَيْنا عَنْ طَرِيقِ الْمَغْرِبِ الأَقْصَى.

---

[117] Cargo

[118] Quatre Chemins d'Asnières

[119] Argenteuil

[120] Nanterre et Gennevilliers

ذاتَ خَطْرَةٍ، كانَتْ لِي سَيَّارَةُ "رُونُو أَرْبَعَةِ أَحْصِنَةٍ"[121] وكانَتْ عِنْدَنا ثَلاثَةُ أَكْياسٍ مَمْزُوجَةٌ دَراهِمَ ومَنْشُوراتٍ، قَدْ أَخْفَيْناها تَحْتَ سَرِيرٍ، حَصَرْناهُ إلى الْحائطِ، رَيْثَما أَنْقُلُها إلى سانْ دُونِيسْ[122]. فإذا أَفَقْنا صَباحاً، أَلْفَيْنا الدَّارَ مُطَوَّقَةً بِالْحَرْكَى وكانُوا أَشَدَّ مِنَ الْفِرَنْسِيِّينَ قَسْوَةً وظُلْماً حَتَّى اطَّرَدَتْ فِيهِمْ كَلِمَةُ: "مُحَمَّد يَعِيب مُحَمَّدا". الْمُهِمُّ أَنَّا رَفَعْنا السِّتارَ فَرَأَيْناهُمْ مُحْدِقِينَ وكُنَّا أَرْبَعَةً: ثَلاثَةٌ مِنْ سَيِّدِي عُقْبَةَ وَواحِدٌ مِنْ سَطِيف. فَبادَرْتُ أَحَدَهُمْ قائلاً:

ـ اِسْمَعْ. تَدَبَّرْ شَأْنَكَ واشْغَلْهُمْ على أَلاَّ يَدْخُلُوا الْحُجْرَةَ.

فَلا طَوَّلَ ولا قَصَّرَ وإذا بِهِ يَتَناوَلُ مِذْياعَ الْمُدَوِّرَة[123] الَّذِي كانَ عِنْدَنا زَمنَئذٍ فَحَرَّكَ أُسْطُوانَةً لِعِيسَى الْجَرْمُونِيِّ فَما إنْ سَمِعُوه حَتَّى تَسَلَّلُوا إِلَيْنا فتَصالَبْنَا مُخْفِينَ وَجَلَنا فَجالَسُونا في الْمَطْبَخِ زَمَناً ثُمَّ انْكَفَأُوا مِنْ ثَمَّةَ لَمْ يُفَتِّشُونا. فاغْتَنَمْتُها فُرْصَةً واحْتَمَلْتُ الأَكْياسَ في ذَلِكَ النَّهارِ إلى سانْ دُونِيس فَما إنْ بَلَغْتُ "الطُّرُقَ الأَرْبَعَةَ" بالأَحْصِنَةِ الأَرْبَعَةِ حَتَّى نَدَرَتْ سَيَّارَةُ شُرْطَى مِنْ بَعْضِ الثَّنايا بِكُلِّ سُرْعَةٍ فَصَدَمَتْ لِي الْجَناحَ فَشَحُبْتُ دَفْعَةً واحِدَةً وفُجِعْتُ غايَة. فَإذا رَأَوْنِي مُصْفَرّاً كَذَلِكَ، حَسِبُوا بِيَ ضُرّاً فَاصْفَرُّوا هُمْ أَيْضاً وخَرَجُوا إلَيَّ مِنْ سَيَّارَتِهِمْ وجَعَلُوا يَتَلَمَّسُونَنِي:

---

[121] Renaud Quatre Chevaux

[122] Saint-Denis

[123] Manivelle

- ?ça va ? ça va... عَسَى أَلاَّ يَكُونَ بِكَ بَأْسٌ.

يا لَعَيْبِ الْ « ça va" وأَنا الْخائفُ مِنْهُمْ أَتَرَعْدَدُ لأَنَّني مَنْفِيٌّ من بارِيسَ وسَيَّارَتِي مُعَبَّأَةٌ بِأَكْياسِ الْمَنْشُوراتِ! وجَعَلُوا يَتَوَسَّلُونَ إلَيَّ حَتَّى أُرافِقَهُمْ إلى الْمُسْتَشْفَى ولكِنَّنِي أَبَيْتُ فَسَجَّلُوا اسْمِيَ وذَهَبُوا.

وكانَ ذَلِكَ سَبَبَ الْقَبْضِ عَلَيَّ مَرَّةً أُخْرَى. اِسْتَدْعَوْنِي بَعْدَ أَنْ لاحَظُوا أَنَّ بِطاقَتِي بِطاقَةَ سِجْنٍ فَحَجَزُوا سَيَّارَتِي ولكِنَّا نَحْمَدُ اللّهَ ونَشْكُرُهُ أَنْ كُنْتُ قَدْ تَخَلَّصْتُ مِنَ الأَكْياسِ. شارَعُونِي أَوَّلَ مَرَّةٍ فكانَ الْحُكْمُ عاماً ثُمَّ شَهْراً ويَوْماً المَرَّةَ الثَّانِيَةَ وكانَ الْمحامِي جزائِرِيّاً يُدْعَى "ابْنَ عَبْدِ اللّهِ". ما زِلْتُ أَتَمَثَّلُهُ يُرَبِّتُ على كَتِفِي مُطَمْئِناً:

- لا تَخَفْ.

الْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ ضِدِّي. إنَّما أَفاقُوا إلَيَّ أَوَّلَ مَرَّةٍ بِبيعَةٍ. كُنْتُ أَقْطُنُ مُنْفَرِداً بَيْنَ الْفِرَنْسِيِّين. لا تُعاشِرُنِي في حَيِّي ذَلِكَ نَفْسٌ عَرَبِيَّةٌ إطْلاقاً. ثُمَّ لاحَظَ الْجِيرانُ الرُّومُ بِأَنَّ الإخْوَانَ يَزُورُونَنِي ساعَةً على ساعَةٍ فَارْتابُوا واسْتَدْعَوِا الشُّرْطَى وكانَ الّذِي كانَ.

مِمَّا أَذْكُرُهُ أَنَّنِي خَرَجْتُ إلى مُوزِيل[124] في الشَّرْقِ، مَوْسِمَ يَنايِرَ والْجَوُّ بارِدٌ. قَصَدْتُ نَسِيباً لَنا هُوَ أَيْضاً مَنْفِيٌّ أَخْتَفِي عِنْدَهُ أَيَّاماً. أَلْفَيْتُ الْبَرْدَ فِعْلاً قارِساً عِنْدَهُمْ حَتَّى إنَّهُمْ قَدْ أَخْفَوْا رُؤُوسَهُمْ وُوُجُوهَهُمْ فَلا تَبِينُ إلاَّ عُيُونُهُمْ. كانَ عَرَبُنا يَعْمَلُونَ في مَصْنَعِ آجُرٍ يَدْعُونَهُ "مَصْنَعَ الطِّينِ"،

---

[124] Moselle

وكانُوا يَشْتَغِلُونَ بِأَرْجُلِهِمْ كَما تُعْجَنُ الْخُمْرَةُ في بِلادِنا، فكانُوا يُمِدُّونَهُمْ بِأَحْذِيَةٍ تَبْلُغُ الأَفْخاذَ فَيَخْلِطُونَ الوَحْلَةَ.

لَمَّا بَلَغْتُ الْمَصْنَعَ أَنْتَظِرُ مُصْطَفَى نَسِيبِي إذا النَّاسُ خارِجةٌ مُلَثَّمَةٌ مِنْ رَأْسِها إلى أَخْمَصَيْها، فإذا نَدَرَ هُوَ، عَرَفَنِي ولَمْ أَعْرِفْهُ فَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ:

ـ مُصْطَفَى أَرِنِي الْمَحَطَّةَ أَرْجِعْ. واللهِ لا بَقِيتُ مَعَكُمْ دَقِيقَةً زِيادَة. حَبْسُ بارِيسَ ولا هَتِهِ الْبِلاد... أَنْتُمْ أَعْتَهُ مِنَ الْعَبِيدِ هُنا.

فَنُقِلْتُ إلى حَبْسِ فانْسِينَ أَوَّلاً ومِنْ ثَمَّةَ إلى حَبْسِ لا سانْتِي[125] ثُمَّ إلى افْرِينْ حَيْثُ لَقِيتُ الْبَشِيرَ بُومَعْزَةَ مِنْ جَدِيدٍ. كُنَّا في الْحَبْسِ نَتَحادَثُ عَبْرَ قَنَواتِ الْمَدافِئِ الْغازِيَّةِ[126] حَيْثُ نُلْصِقُ أَفْواهَنا إلى أَنابِيبِها ونَتَكَلَّمُ. كُنَّا نَقْرَعُها أَوَّلاً فَإذا انْتَبَهَ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ تَكَلَّمْنا. وما أَفاقُوا إِلَيْها إلاَّ في آخِرِ مُهْلَةٍ. وكنَّا نَطْبُخُ على الْكانْكِي. فَنُمْسِكُ عُلْبَةَ شَمَّاءٍ نَثْقُبُها، نَغْرِسُ فِيها فَتِيلَةً فَنَمْلأُها بِالْغازِ ونَنْصُبُها على ثَلاثِ حِجارَةٍ ونَطْبُخُ. كُنَّا نَشْتَرِي الْغازَ مِنَ التَّعاوُنِيَّةِ[127] فَإذا احْتَرَقْنا، احْتَرَقْنا نَحْنُ وهُمْ لا يُهِمُّهُمْ مِنْ شَأْنِنا مِثْقالُ ذَرَّةٍ. أَمَّا قَدِيماً فكانُوا يُشْعِلُونَ بِالْكُورْبِيلِ وهِيَ حَجَرة يَصُبُّونَ عَلَيْها الْماءَ فَتَقْدَحُ.

---

[125] La Santé

[126] Chauffage Central

[127] La coopérative

وكانَ الْمَساجِينُ، إذا سَمِعُوا أَنَّ أَحَدَهُمْ سَيُعْدَمُ، يَنْدُرُونَ كُلُّهُمْ يَصْرُخُونَ ويُنْشِدُونَ ويَقْرَأُونَ حَتَّى لا يَسْمَعُوهُمْ يَقْتُلُونَهُ ثُمَّ يُخْرِجُونَهُ في اللَّيْلِ ويَدْفِنُونَهُ حَوْلَ السِّجْنِ.

ثُمَّ إنَّ إضْرابَ 1961م رَانَ عَلى الشَّوَارِعِ وكَتَّفَ السَّواعِدَ فما كُنْتِ تَرَيْنَ جَزائرِيّاً واحِداً يَعْمَلُ. كُنْتُ مُوَظَّفاً آنَذاكَ في مَصْنَعِ "كُولُومْبَ"[128] لِلْبَطَّارِيَّات. وبِما أَنَّ أَكْثَرَ الْعُمَّالِ كانَ جَزَائِرِيّاً فإنَّ الْمَعْمَلَ تَوَقَّفَ عَنِ الدَّوَرَانِ. فَهاجَمَتْنِي الشُّرْطَى في بَيْتِي واقْتادَتْنِي قَهْراً إلى الْمَعْمَلِ، بَعْدَ أَنْ كَبَّلَتْنِي، حَتَّى يُفْتَحَ زَمْناً. فَهَرَبْنا مِنْ عَلى الْجُدْرانِ خائفِينَ لأَنَّ ناسَ الْجَبْهَةِ ما كانُوا يُقَدِّرُونَ مَوْقِفَنا بيْنَ أَيْدِي الشُّرْطِى، على قَوْلِ المَثَلِ الشَّعْبِيِّ: "وَاشْ يْدِيرِ الْمَيِّتْ بِيْنِ يَدِّينْ غَسَّالُه؟".

فَإذا هَلَّ هِلالُ الاسْتِقْلالِ، سَحَبُوا مِنَّا الْبِطاقاتِ الْفِرَنْسِيَّةَ دُونَ أَنْ يَنْفُونَا مِنْ بِلادِهِمْ. أَمَّا الْبُيُوتُ الْقَصْدِيرِيَّةُ فَهُدِّمَ آخِرُها في الثَّمانِينِيّاتِ.

وكُتِبَ لِي أَخِيراً أَنْ أَنْكَفِئَ إلى الْجَزائرِ مَعَ الاِسْتِقْلالِ، مُتَسائلاً أَيَّ شَيْءٍ مَلِيحٍ يُمْكِنُنِي أَنْ أَصْنَعَهُ لِسَيِّدِي عُقْبَةَ. كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أُنْجِزَ لِبَلْدَتِي شَيْئاً عَظِيماً فَتَزْدَهِرَ. قُلْتُ في نَفْسِي:

ـ أَحْسِنْ بِي لَوْ أَنْشَأْتُ بِها "سِينِما"يَتَسَلَّ بِها الْقَوْمُ وقَدِ انْحافُوا شَطَطاً.

---

[128] Colombe

فَتَدَبَّرْتُ مُوَلِّداً لِلْكَهْرباءِ[129] وابْتَعْتُ سَيَّارَةً كَبِيرَةً كانَ يُقالُ لَها في ذَلِكَ الْوَقْتِ "افرانْقاتْ Fringatte" ونَقَلْتُ جِهازَ بَثٍّ سِينِمائِيٍّ ويَمَّمْتُ بِكَنْزِي ذَلِكَ النَّفِيسِ شَطْرَ سَيِّدِي عُقْبَةَ. على أَنَّهُنَّ سَبْعَةَ عَشَرَ عاما فارَقْنَ بَيْنِي وبَيْنَ الدَّشْرَةِ فغُبِّرَتْ عَنِّي السَّبِيلُ وما أَحْسَنْتُ الرُّجُوعَ إِلَيْها وقَدْ تَوَدَّرْتُ في الأَوْراسِ. والطَّرِيفُ أَنِّي كُنْتُ قَدْ جَعَلْتُ عَلَمَيْنِ جَزائِرِيَّيْنِ عَنْ كُلِّ جانِبٍ مِنَ السَّيَّارَةِ فَخْراً وسَعادَةً فَكُنْتُ، كُلَّما جُزْتُ عَنْ شَخْصٍ، بايَعَ لِي يَحْسِبُنِي عَقِيداً. بايَعُونِي أَكْتَعُونَ: الصَّغِيرُ والكَبِيرُ والْمَرْأَةُ والرَّجُلُ وأَنا كَذَلِكَ مُطْلِقٌ الْعِنانَ لِلْعَجَلاتِ كَأَنَّنِي مَلِكٌ نُومِيدِيٌّ يَخْتَرِقُ صُفُوفَ شَعْبِهِ الشَّاوِيِّ الأَشَمِّ حَتَّى بَلَغْتُ سِرْيانَةَ[130] وما أَفَقْتُ.

فإذا أَفَقْتُ، أَلْفَيْتُ الْوَضْعَ بِقَرْيَتِي الْحَبِيبَةِ مُفْجِعاً، قَدْ تَحَكَّمَ بِها الْجَهْلُ ناهِيكَ عَنِ الْخَصاصَةِ. ووَجَدْتُ النَّاسَ يُؤْمِنُونَ بِخُرافاتٍ ما تَزالُ نَفْسِي تَمُجُّها إلى ذِي اللَّحْظَةِ الّتي أَفْتَحُ لَكِ فِيها صَدْرِي وأَلْفِظُ لَكِ فِيها بِمَكْنُوناتِ ذِكْرَياتِي، فَكُنْتُ أَبْتَسِمُ ابْتِسامَةَ مَرارَةٍ وأَنا أَتَطَلَّعُ إلى ما عُبِّئَتْ بِهِ سَيَّارَتِي، وإلى السِّينِما الّتي كُنْتُ أَنْوِي أَنْ أُقِيمَها لِشَعْبٍ يَصْنَعُ تَمْثِيلِيَّاتِهِ بِنَفْسِهِ ثُمَّ يُصَدِّقُ تَفاصِيلَها على أَنَّها حَقِيقَةٌ مُطْلَقَةٌ. ومِنْ أَكْثَرِها رَواجاً، تِلْكَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِقَبْرِ أَبِي مُهاجِرٍ دِينار (بودِينار)، وقَدْ كانَ مَصْنُوعاً

[129] Groupe Electrogène

[130] من ضَواحِي بَسْكَرَةَ.

بِالْخَشَبِ. فكانَتِ النَّاسُ تَأْتِي تَنْزَعُهُ سَرِقَةً ثُمَّ تَقُولُ إنَّ أَبا دِينارٍ يَلْفِظُهُ.
فَإذا سَأَلَ بَعْضُهُمْ:

ـ ولِماذا يَلْفِظُهُ؟

أُجِيبَ بِكُلِّ بَداهَةٍ:

- لأَنَّهُ لا يُحِبُّ السَّقْفَ... لَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ السَّقْفُ... إنَّ سَيِّدِي بُو دِينارٍ يَقُولُ لَكُمْ:

- اِصْنَعُوا لِي شَيْئاً طَيِّباً وإلاَّ لا داعِيَ.

فَلَمَّا صَنَعُوا لَهُ بُنْيانَ الْحَدِيدِ رَضِيَ وما عادَ يَلْفِظُهُ...!! اللَّهُمَّ اُجْبُرْ حالَنا!

بارِيس، مايُو 2008م

كَرامَةُ الْعائلَةِ[131]

هذه ثَوْرَةُ التَّحْرِيرِ قدِ انْدَلَعَتْ وهَذِهِ عائلَةُ الحاجِّ عِيسَى تُمْضِي الأَيَّامَ كَمَا كَتَبَ اللّهُ إلى أنْ يُفَرِّجَ عَلَيْها وعَلى كُلِّ الشَّعْبِ الْجَزَائِرِيِّ وأُمَّةِ مُحَمَّدٍ. ولَقَدْ كانَ لِلْحاجِّ عِيسَى وزَوْجِهِ فاطمةَ الزَّهْراءِ أرْبَعَةُ أَبْناءَ: بِكْرُهُما مُوسَى الْمُحامي وأَخُوهُ الّذِي يَلِيهِ مُصْطَفى الْمُعَلِّمُ وأُخْتُهُما دَلِيلَةُ الطّالِبَةُ فَأَخُوهُمُ الأَصْغَرُ مُحَمَّدٌ.

عائلَةٌ مُحْتَرَمَةٌ تُدْرِكُ قَدْرَها بَيْنَ النَّاسِ وإزاءَ الْواجِبِ وسَعِيدَةٌ غايَةً رُغْمَ ذُبُولِ الْجَيْبِ وتَصْفِيقِ الرَّاحَتَيْنِ لِرَقْصَةِ الرِّيحِ. فَالْحاجُّ عِيسَى فَلاَّحٌ بَسِيطٌ يَزْرَعُ أَرْضَهُ ويُعَيِّشُ عائلَتَهُ كَما يَسَّرَ اللّهُ.

وكانَتْ فاطِمَةُ الزَّهْراءُ تَصْحُو والْفَجْرَ فَتَعْجِنُ الْخُبْزَ وتَطْهُو الْقَهْوَةَ ثُمَّ تُوقِظُ أَبْناءَها يُفْطِرُوا قبلَ أَنْ يَغْدُوَ كُلٌّ إلى شُغْلِهِ فَلا يُؤانِسُها في بَيْتِها المتَطَرِّفِ في هُدُوءِ الْبَرِّيَّةِ سِوَى الصَّغِيرِ مُحَمَّدٍ.

---

[131] بِروايَةِ السَّيِّدة بلَّحمد نبيلة عزيزة. (42 عاما). سُجِّلَتْ عام 2004م.

بَيْدَ أَنَّ مُوسَى هَذا رَبَطَتْهُ علاقاتٌ سِياسِيَّةٌ بِأَشْخاصٍ غُرَباءَ وباتَتْ لَهُ مَعَهُمْ اتِّفاقِيَّاتٌ سِرِّيَّةٌ بل وصارُوا يَزُورُونَهُ في بَيْتِهِ وأَبُوهُ يَنْهاهُ عَنْ ذَلِكَ فَيُهَدِّئُ مُوسَى مِنْ رُوعِهِ مُعَلِّلاً:

ـ لا تَقْلَقَنَّ يا أَبَتِ شَطَطاً. إنَّما أُولئِكَ زُمَلائي في العَمَلِ.

إلى أَنِ اتَّفَقُوا على تَفْجِيرِ مَقْهًى يَرُودُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعَمِّرِينَ. وكانَ مُوسَى هَذا بِحُكْمِ عَمَلِهِ في الْقَضاءِ مُدَبِّرَ الْعَمَلِيَّاتِ ومُحْكِمَ الْخُطَطِ. ونَجَحَتِ الْعَمَلِيَّةُ فالْتاعَ الْفِرَنْسِيُّونَ ونَفَشُوا في الرَّعِيَّةِ الْبَسِيطَةِ كالأَغْوَالِ الْمُتَوَحِّشَةِ يَنْتَقِمُونَ مِنْها انْتِقاماً فَقَتَّلُوا الأَطْفالَ وأَهْلَكُوا الْعُزَّلَ وأَحْرَقُوا الْمَزارِعَ فَهاجَ الشَّعْبُ وانْبَرَى يُدافِعُ عَنْ نَفْسِهِ بِما أَصابَ مِنْ وَسِيلَةٍ وأُتِيحَ لَهُ مِنْ أَداة.

ثُمَّ إنَّ الْجَماعَةَ فَكَّرَتْ:

ـ نَحْنُ الآنَ مَعْرُوفُونَ ولا بَدَّ لَنا أَنْ نُغَيِّرَ سِياسَتَنا... لا نُخْفِي عَلَيْكَ يا أَخانا مُوسَى بِأَنَّنا مُرْتابُونَ مِنْ أَخِيكَ مُصْطَفَى ويَظْهَرُ لَنا أَنَّهُ دَخِيلُ فِرَنْسا. بِتْنا نَتَخَوَّفُ جانِبَهُ.

فَانْكَفَأَ مُوسَى على أَخِيهِ يُعارِكُهُ بِلا هَوادَةٍ ويَشْتُمُهُ لا يَرِيمُ:

ـ أَنْتَ خائِنٌ تَخْدَعُ وَطَنَكَ ولا تَسْتَحِي.

فكانَ مُصْطَفَى يُدافِعُ عَنْ نَفْسِهِ قائلاً:

ـ ما أَنَا بِخائِنٍ. الأَمْرُ وما فِيهِ أَنَّ السِّياسَةَ لا تُهِمُّنِي ومُسالَمَةُ النَّاسِ هِيَ مَحَجَّتِي. ولَطالَما أَمْرِي كما وَصَفْتُ فَقَدِ انْشَغَلْتُ بِعَمَلِي وأَغْضَيْتُ عَنْ دُونِ ذَلِكَ.

عَلى أنَّ مُوسَى ما يَنْفَكُّ يَتَفاقَمُ غَضَبُهُ:

ـ بَلْ هَذِهِ أَرْضُكَ ويَنْبَغي لَكَ أَنْ تُدافِعَ عَنْها. لِزامٌ لَكَ أَنْ تُسْتَشْهَدَ مِنْ أَجْلِها وفي سَبيلِ حُرِّيَّتِها وحَتَّى تَرْفَعَ عَلَمَها ويُرفْرِفَ على السِّماكِ.

عِنْدَئذٍ، يَقْلَقُ الأَبُ مِنْ شِجارِهِما وَيُهَدِّئَ مِنْ نِطاحِهِما ولكِنَّ أَحَداً لَمْ يَكُنْ يَدْرِي بِانْخِراطِ مُوسَى السِّرِيِّ في سِلْكِ الْمُجاهِدِينَ.

ذاتَ يَوْمٍ أَبْصَرَ مُصْطَفَى أَخاهُ مُوسَى في مَقْهًى يُحادِثُ ناساً يَعْرِفُهُمْ فَانْبَرَى يَتَقَفَّى أَثَرَهُ ويَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ مُخَمِّناً:

ـ هَذا الّذِي يُعَيِّبُنِي ويَتَّهِمُنِي بِالْخِيانَةِ تُراهُ هُوَ الّذِي يَتَّبِعُ جَماعَةَ السُّوءِ.

وانْكَفَأَ إلى أَبِيهِ أَطْلَعَهُ على كُلِّ شَيْءٍ. ثُمَّ إنَّ مُصْطَفَى انْطَلَقَ ذاتَ يَوْمٍ يُقابِلُ جَماعَةً سِرِّيَّةً وكانَ دَوْرُهُ أَنْ يَنْشُرَ الأَخْبارَ ويَكْتُبَ الرَّسائلَ ومَقالاتِ الصُّحُفِ بَيْنَما كانَ دَوْرُ مُوسَى أَنْ يُخَطِّطَ لِلْعَمَلِيّاتِ. وشاءَتِ الصُّدَفُ أَنْ يَسْمَعَ مُصْطَفَى صَوْتَ أَخِيهِ داخِلَ الْحُجْرَةِ ويَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ فَسَأَلَ زَمِيلَهُ:

ـ صَوْتُ مَنْ هَذا الّذِي أَسْمَعُهُ مِنَ الدَّاخِلِ؟

أَجابَهُ:

ـ هَذا زَعِيمُنا السِّي مُوسَى. كُلُّ الْمُخَطَّطاتِ نَجَحَتْ بِفَضْلِ ذَكائهِ وسَهَرِهِ طُولَ اللَّيالِي.

لَمْ يُصَدِّقْ مُصْطَفَى ما سَمِعَتْهُ أُذُناهُ فَقال:

ـ هَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُكَلِّمَهُ؟

أَجابَهُ:

ـ كَلاَّ. لِزامٌ أَلاَّ يَراهُ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ الْجَماعَةِ الْخاصَّةِ. ولَكِنَّ يَوْماً سَيَجِيءُ تَراهُ فِيهِ لأَنَّهُ بَطَلُنا الْحَقِيقِيُّ وقَدْ عَوَّلَ هَذِهِ الْمَرَّةَ على تَحْطِيمِ الْمَرْكَزِ الْفِرَنْسِيِّ الّذِي أَبْدَعَ في الشَّعْبِ الأَعْزَلِ شَرّاً. لَقَدْ رَسَمَ مُخَطَّطاً جَهَنَّمِيّاً على أَنَّهُ يَلْتَمِسُ الشَّجِيعَ الّذِي يَتَمَكَّنُ مِنْ تَنْفِيذِهِ.

فَاغْتَنَمَها مُوسَى فُرْصَةً وقال:

ـ فَقُلْ لَهُ بِأَنَّنِي الرَّجُلُ الْقادِرُ على تَنْفِيذِ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ وبِأَنَّنِي على اسْتِعْدادٍ بالتَّضْحِيَّةِ مِنْ أَجْلِ سَعادَةِ الْوَطَنِ.

فَإذا كانَ الْمَساءُ واجْتَمَعَتِ الْجَماعَةُ في دارِ مُوسَى، قِيلَ لَهُ:

ـ فإنَّنا عَثَرْنا على الشَّابِّ الْفِدائِيِّ الّذِي يَتَطَوَّعُ لِلْقِيامِ بِالْعَمَلِيَّةِ. إنَّهُ الْفَتَى الّذِي يَنْشُرُ لَنا الرَّسائِلَ.

لَمْ يَكُنْ يَدْرِي أَنَّ أَخاهُ مُنْخَرِطٌ في فَرِيقِهِ. وسُرْعانَ ما غَيَّرَ مِنْ مَعامَلَةِ مُصْطَفَى وأَمْسَكَ عَنْ مُشاجَرَتِهِ بَلْ وطَفِقَ يَعْتَذِرُ إلَيْهِ مِمَّا بَدَرَ مِنْهُ فَاحْتَرَمَ مُوسَى أَخاهُ وفَرِحَ الأَبُ بِالْوِئامِ الّذِي صارَتْ حُرُوفُهُ تُقْرَأُ بَيْنَ صَفَحاتِ كِتابِهِما، فَشَكَرَ رَبَّهُ. وكانَ مُوسَى رَجُلاً هادِئاً مُحْتَرَماً ما فَضَلَ عَنْ عَمَلِهِ في الْقَضاءِ، أَمْضاهُ في الْقِراءَةِ والْكِتابَةِ. وإذا السِّي الْحاجُّ عِيسَى يَطْلُبُ مِنْ وَلَدَيْهِ مُوسَى ومُصْطَفَى أَنْ يُساعِداهُ في الْفِلاحَةِ بَعْدَ أَنْ تَدَهْوَرَتْ صِحَّتُهُ. فَأَجابَهُ أَصْغَرُهُما:

ـ لِي صالِحٌ مُهِمٌّ جِدّاً لا بُدَّ أَنْ أُنْهِيَهُ فَإذا أَتْمَمْتُهُ يا والِدِي ساعَدْتُكَ في الْفِلاحَةِ.

وَغَدَا إلى شَأْنِهِ يُتِمُّهُ وإذا بِهِ يَقُومُ بِالْعَمَلِيَّةِ داخِلَ مَصْنَعِ السِّلاحِ فَأَبْصَرَ بِهِ الْحارِسُ فَرَماهُ بِالرَّصاصِ. وكانَ الإخْوَانُ يَحْرُسونَهُ مِنْ فَوْقُ فَإذا رَأَوْهُ كَذَلِكَ، انْتَشَلُوا جُثَّتَهُ وحَمَلوهُ يُداوُونَهُ بَيْنَما انْفَجَرَ مَخْزَنُ الأَسْلِحَةِ عِنْدَ الْعَسْكَرِ وإذا فِرَنْسا تَتَّبِعُ أُسْلُوباً جَدِيداً وتَعِدُ مُكافَأَةً ضَخْمَةً لِمَنْ يَدُلُّهُمْ على مُصْطَفَى وكانَ الْحارِسُ قَدْ أَعْطَى أَوْصافَهُ.

وكانَتْ كِلابُ حِراسَةِ فِرَنْسا الْحَرْكَى الّذِينَ انْطَلَقُوا يَخْدَعُونَ إخْوَتَهُمْ ولَكِنَّ الْمَجاهِدِينَ أَفاقُوا إلَيْهِمْ فَأَهْلَكُوا أَغْلَبَهُمْ.

وسَمِعَ مُوسَى بِأَنَّ الشَّابَّ الْفِدائِيَّ قَدْ جُرِحَ فَقَصَدَ الْمَخْبَأَ الّذِي اخْتَفَى بِهِ لِيُشاهِدَهُ عِنْدَئِذٍ عَرَفَ شَقِيقَهُ ورَعاهُ حَتَّى شُفِيَ. ثُمَّ رَجَعَ بِهِ إلى الدَّارِ ونابَ عَنِ الْحاجِّ عِيسَى وقَدْ مَرِضَ مَرَضاً شَدِيداً ما عَتَمَ أَنْ قَضَى عَلَيْهِ.

حَزِنَتِ الزَّهْراءُ عَلَيْهِ شَدِيداً وعاهَدَتْهُ بِأَنْ تَسْهَرَ على أَوْلادِها وتُنْشِئَهُمْ. ثُمَّ أَقْبَلَ الاسْتِقْلالُ وإذا مُوسَى قَدِ اسْتُشْهِدَ في عَمَلِيَّةٍ قامَ بِها بَدَلاً عَنْ أَخِيهِ مُصْطَفَى قَبْلَ ثَلاثِ سَنَواتٍ. فَبَكَاهُ الْفِدائِيُّونَ كُلُّهُمْ وتَزَوَّجَ مُصْطَفَى مِنْ مُمَرِّضَةٍ كانَتْ تُداوِي الْجَرْحَى في الْجَبْهَةِ وكانَ بَيْتُهُمْ مَخْبَأً لِلأَسْلِحَةِ. دَلِيلَةُ أُخْتُهُمْ قامَتْ بِعَمَلِيَّةٍ مَعَ فاطِمَةَ زَوْجِ أَخِيهِمْ واسْتُشْهِدَتْ في إحْدَى الْعَمَلِيَّاتِ. فَحَطَّتِ الْمَسْؤُولِيَّةُ على مُحَمَّدٍ الصَّغِيرِ.

(بارِيس، 2008م)

الحَضارَةُ في دَقائِقَ

كَيْفَ تَظُنُّ أنَّ النَّاسَ يَبْنُونَ حَضاراتِهِمْ؟ أَقْصِدُ: كَيْفَ تَتَصَوَّرُ أَنَّ الأُورُوبِيِّينَ قَدْ خَلَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ لِباسَ الذُّلِّ وارْتَدَوْا قِيافَةَ التَّمَدُّنِ؟... إنِّي أَسْمَعُكَ بَعْدُ تَقُولُ لِي:

ـ إنَّهُمْ حَرَمُونَا كُلَّ عُلُومِنَا ولَقَدْ كانَتْ لَنا أَمْجادٌ اِحْتَكَرُوها و... و...

عَلى أَنّني سَأُوَلِّي عَنْكَ بِوَجْهِي غَيْرَ راضِيَةٍ عَنِ جَوابِكَ وسَأَقُولُ لَكَ:

ـ كلاَّ! إنَّ ذَلِكَ لا يَصْنَعُ حَضارَةً. ولا يَصْنَعُ مَتحضِّرِينَ. أَمَا رَأَيْتَ كَيْفَ أَنَّ إخْوانَكَ الْعَرَبَ قَدْ نَقَلُوا حَرْفِيّاً كَثِيراً مِمَّا في كُتُبِ الإفْرَنْجَةِ مِنَ الْعُلُومِ والْجِرْمانِ فَما غَيَّرَ ذَلِكَ مِنْ وَضْعِهِم الْمُزْرِيِّ قَدْرَ أَنْمُلَةٍ؟ أَما كانَ في الْجامِعاتِ الْغَرْبِيَّةِ وَفْدٌ عَظِيمٌ مِنْ طَلَبَةِ الْعالَمِ الْعَرَبِيِّ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ الْغَرْبِ ويَدْرُسُونَ عَلى أَساتِذَتِهِ ويُذاكِرُونَ في الْكُتُبِ والدَّواوِينِ نَفْسِها الّتي يَتَعَلَّمُ مِنْها أَبْناءُ الإفْرَنْجَةِ؟ ولَكِنْ، هَلْ غَيَّرَ ذَلِكَ شَيْئاً مِنَ الْمُسْتَوى الْمَعِيشِيِّ أَوِ الْفِكْرِيِّ لِبُلْدانِنا؟ أَمْ هَلْ بَدَّلَ ذَلِكَ شِبْراً مِمَّا نَحْنُ فِيهِ مِنْ مَذَلَّةٍ؟ بَلْ إنَّ أَدْمِغَتَنا وعَباقِرَتَنا يُهَجَّرُونَ بِالذَّهَبِ والْفِضَّةِ إلى أَقْطارِ الْغَرْبِ، تُمَهَّدُ لَهُمْ سُبُلُ الْيُسْرِ والرَّفاهِيَّةِ دَلِيلاً على أَنَّ الْغَرْبَ في أَشَدِّ

الْحاجَةِ إلى ذكائِهِمْ وعِلْمِهِمْ مَعَ أَنَّهُمْ عَرَبٌ! فَلأيِّ ما عِلَّةٍ لَمْ يَمْكُثْ هَؤُلاَءِ في بِلادِهِمْ وجَعَلُوا مِنَّا نَحْنُ أَبْناءَ جِلْدَتِهِمْ قُوَّةً نَفَّاذَةً في عالَمِ الْيَوْمِ؟ بَلْ ولأَيِّ ما عِلَّةٍ لَمْ يُوَفِّرُوا لَنَا أَسْبابَ الرَّقاءِ يَوْمَ كانُوا مُقِيمِينَ بَيْنَ ظَهْرانِينا ولا يَزالُون؟

أَنْتَ لا تُحِيرُ جَواباً لأَنَّكَ لا تَمْلِكُهُ. وإنِّي لأَرَى الْحَيْرَةَ في عَيْنَيْكَ تَكادُ تُفْلِتُ إِلَيَّ فَهاكَ الْجَوَابَ يُنْقِضْكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنْ تِيهٍ وشُرُود.

اِعْلَمْ أَنَّ الْحَضارَةَ والرُّقِيَّ لا يَجِيئانِ مِنَ الْعِلْمِ والْعَقْلِ وَحْدَهُما، بَلْ يَتَأَتَّيانِ أَكْثَرَ ما يَتَأَتَّيَانِ مِنَ الأَخْلاق. وأَكْثَرُ فُرَجِ الاتِّصالِ بِمَعالِمِ الاعْتِلاءِ والسُّؤْدُدِ إِنَّما يُدْلَفُ إِلَيْهِما مِنْ حَيْثُ يَنْفُذُ الرَّشادُ وصَلاحُ الْفِكْرِ.

أَراكَ لا تَفْهَمُ عَنِّي فَخُذْ بِهَذا الْمَثَلِ أَضْرِبُهُ لَكَ يَنْفَعْكَ. اِعْلَمْ أَنَّنِي، يَوْمَ كُنْتُ طَالِبَةً في بارِيسَ، بِمَعْهَدِ اللُّغاتِ الشَّرْقِيَّةِ، صادَفَ أَنْ دَخَلْتُ قِسْمِي خَمْسَ دَقائِقَ قَبْلَ مَوْعِدِ الدَّرْسِ. فَأَلْفَيْتُ بِهِ شَيْخاً مُسِنّاً مِنْ هَؤُلاءِ الْمُتَقاعِدِينَ الْفِرَنْسِيِّينَ الّذِينَ بَعْدَ أَنْ يُعْفُوا مِنَ الْوَظِيفَةِ، يَعُودُونَ إلى مَقاعِدِ الْجامِعاتِ يَتَعَلَّمُونَ مُدَّةَ ما تَبَقَّى لَهُمْ مِنَ الْعُمْرِ. وما أَكْثَرَ ما كُنْتُ أُقابِلُ هَؤُلاءِ الْمُسِنِّينَ، نِساءً ورِجالاً، في أَرْوِقَةِ الْمَعْهَدِ وفُصُولِهِ يَدْرُسُونَ مُخْتَلِفَ اللُّغاتِ الشَّرْقِيَةَ! وبَيْنِي وبَيْنَكَ، هَذِهِ بَعْدُ عَلامَةٌ مِنْ عَلاماتِ الرُّقِيِّ والتَّحَضُّرِ تَمَيَّزُوا بِها.

مَهْماً يَكُنْ، دَخَلْتُ الْقِسْمَ كَما قُلْتُ لَكَ وإذا بِالرَّجُلِ الشَّائِبِ مَفْرَقُهُ يَسْأَلُنِي بِلُطْفٍ:

ـ أَنْتِ على مَوْعِدٍ بِحِصَّةٍ هُنا ؟

إجَبْتُ:

ـ إيْ نَعَمْ!

قال:

ـ وعَلَى أَيَّةِ ساعَةٍ ؟

قُلْتُ:

ـ عِنْدَما تَكْمُلُ تَماماً.

نَظَرَ الرَّجُلُ الْمُحْتَرَمُ في ساعَتِهِ ثُمَّ قال:

ـ إنَّ ذَلِكَ بَعْدَ خَمْسِ دَقائِقَ!

ثُمَّ جَمَعَ أَدَوَاتِهِ وَضَعَها في مِحْفاظِهِ اسْتِعْداداً لِلْخُرُوجِ. بَيْدَ أَنَّهُ سُرْعانَ ما الْتَفَتَ إلَيَّ، وبَيْنَما إصْبعانِ يَحُكّانِ مُقَدَّمَةَ رَأْسِهِ، أَرْدَفَ مُفَكِّراً:

ـ ولَكِنْ... يُمْكِنُنا تَغْيِيرُ الْعالَمِ في خَمْسِ دَقائِقَ!

وَانْكَفَأَ إلى مَكانِهِ وأَخْرَجَ أَدَوَاتِهِ مِنْ جَدِيدٍ وجَلَسَ إلى مِنْضَدَةِ الدَّرْسِ بِنَشاطٍ، وطَفِقَ يُراجِعُ دُرُوسَهُ إلى أَنْ وَصَلَ أُسْتاذِي.

بِقِيتُ مُسْتَغْرِبَةً لِتَصَرُّفِهِ مُحْتارَةً. وجَعَلْتُ أُفَكِّرُ في الْمَوْعِظَةِ الّتي أَسْدَاها لِي ذَلِكَ الشَّيْخُ الْفِرَنْسِيُّ. وأَدْرَكْتُ بِيُسْرٍ أَنَّ سَبَبَ تَحَضُّرِ الْغَرْبِ إنَّما يَكْمُنُ في نَظَرِهِمْ إلى الأَشْياءِ، وفي نَمَطِ تَفْكِيرِهِمْ، وفي سَجِيَّةِ الصَّبْرِ على الْعَمَلِ لَدَيْهِمْ، وخَصْلَةِ الْمُواظَبَةِ الّتي فِيهِمْ سَلِيقَةٌ ثابِتَةٌ، وحُسْنِ اسْتِغْلالِهِمْ لِلْوَقْتِ.

باريس في: 31 مايو 1999

إرادَةٌ تَكْسِرُ الحَجَرَ

تِلْكَ فَتاةٌ تَقْطُنُ الْبُيُوتَ الْقَصْدِيرِيَّةَ الّتي كانَتْ تَسُدُّ تُخُومَ الْمَدِينَةِ مِنْ ناحِيَةِ الشَّمَالِ كَالْوَرَمِ الْخَبِيثِ. أَحْياءٌ ثارَتْ بَيْنَ الْعَشِيَّةِ وضُحاها بَعْدَ اسْتِقْلالِ الْوَطَنِ بِشَكْلٍ مُؤَقَّتٍ ثُمَّ ثَبَتَتْ سِنِينَ طَوِيلَةً إلى عَهْدٍ غَيْرِ بَعِيدٍ.

لا تَعْدُو الْبُيُوتُ الْقَصْدِيرِيَّةُ غُرْفَةً فَرِيدَةً مِنَ الصَّفِيحِ، ضَيِّقَةٌ كَعُلْبَةِ الْكِبْرِيتِ؛ قَدْ تَراكَمَ في زَوَايَاها أَثاثٌ وفِراشٌ وكُلُّ عُدَّةِ الدَّارِ، فَلَمْ يَبْقَ سِوَى شِبْرٍ في الْوَسَطِ مُخْتَنِقٍ لِلنَّوْمِ. وإنَّ عائلاتِنا، نحنُ الْعَرَبَ، كَبِيرَةٌ مُتَشَعِّبَةُ الأَفْنان، وإنَّهُ قَدْ كانَ لِلْفَتاةِ أَحَدَ عَشَرَ أَخاً وأَخْتاً هِيَ بِكْرُهُمْ غَيْرُ الأَبَوَيْنِ والْجَدَّةُ.

كانَتْ تَقْضِي سَحابَةَ يَوْمِها في ثانَوِيَّتِها وفي الْمَساءِ، بَدَلَ الاِسْتِراحَةِ مِنْ وَعْثاءِ الْمُواصَلاتِ وجَهْدِ الدَّراسَةِ، تَثُورُ لأَشْغالِ الْبَيْتِ تُدِيرُها، ماسِحَةً شاطِفَة، كاوِيَة طاوِيَة، خائطَةً مُرَقِّعَة، كَأَنْ أَحَدٌ لَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ الْغُرْفَةِ طَوَالَ الْيَوْمِ فَسابَ ونَفَشَتْ فِيهِ الْهَوَامُ، أَوْ كَأَنَّ عائلَتَها الْبَسِيطَةَ لا يَهْنَأُ لَها بَالٌ وتَطْمَئِنُّ لَها نَفْسٌ إلاَّ عِنْدَما تُشَمِّرُ عَنْ ذِراعَيْها وساقَيْها فَتَغْرَقُ

بَيْنَ الْجفانِ والْقِصعِ مُتَقَمِّصَةً دَوْرَها الأَصْلِيَّ الّذي خُلِقَتْ لأَجْلِهِ، دَوْرِ الْخادِمِ، وكَأَنَّهُمْ خَشُوا أَنْ تَنْسَلِخَ مِنْ جِلْدِها على مَقْعَدِ ثانوِيَّتِها ذاكَ!...

ومَهْماً يَكُنْ، فإِنَّ الْفَتاةَ كانَتْ تَرْجِعُ إلى حَيِّها الْقَصْديرِيِّ، وفي كُوخِها تَسْعَى فارِزَةً كُلَّ مَضْرِبٍ مِنْهُ في اسْتِسْلامٍ، لا تُسْمَعُ لَها أَنَّةُ اشْمِئْزازٍ أَوْ ضَجَرٍ.

وبَعْدَ الْعَشاءِ، حِينَ تَغْسِلُ الْفَتاةُ الأَوانِيَ وتُرَتِّبُ الْعُشَّةَ، تَفْرِشُ الْبُسُطَ يَنامُ عَلَيْها أَهْلُها وإِخْوَتُها، ثُمَّ تَتَناوَلُ الصَّبِيَّةُ الْمائِدَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْقاصِفَةَ تَنْصِبُها عَلى فَرْشَتِها بَيْنَ شَخْصَيْنِ، أَوْ في رُكْنٍ ما مِنَ الْحُجْرَةِ الصَّغِيرَةِ نَفَذَ بِجِلْدِهِ مِنَ الزِّحامِ الدَّاهِمِ في ذَلِكَ الْمَوْضِعِ الْمُتَقَلِّصِ، وتَنْبَطِحُ تَحْتَها على بَطْنِها، فَتُوقِدُ شَمْعَةً بَيْنَ قَوائِمِ الْمائِدَةِ حَتَّى لا يُقْلِقَ نُورُها مَنْ هُوَ نائِمٌ وتُكِبُّ على دُرُوسِها تُذاكِرُها إلى ما قَبْلَ الْفَجْرِ بِقَلِيلٍ، تَتَأَهَّبُ لِشهادَةِ الْباكالُورْيا، وقَدْ لا تَنْهَضُ عَنْ مَكْتَبِها ذَلِكَ الْغَرِيبِ إلى ساعَةَ يَدُقُّ جَرَسُ الْثَّانَوِيَّةِ مِنْ جَدِيدٍ.

عَذابٌ مُتَواصِلٌ لَذِيذٌ كُلَّ لَيْلَةٍ، إلى أَنْ حَلَّ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ فاجْتازَتِ الصَّبِيَّةُ الامْتِحانَ، فَفازَتْ بِمَجْمُوعٍ فائِقٍ جِدّاً فَتَحَ لَها بابَ الْجامِعَةِ عَلى مِصْراعَيْهِ، فَوَلَجَتْهُ بِفَخْرٍ واعْتِزازٍ، تُحَيِّيها عُيُونُ الأَساتِذَةِ الْمُعْجَبِينَ، وتَهْتِفُ لَها قُلُوبُ الطَّلَبَةِ الْمُفْعَمَةِ بِحُبِّ الْعِلْمِ والْجِهادِ والتَّحَدِّي.

وتَخَلَّصَتِ الْفَتاةُ مِنَ الْبُؤْسِ الّذي جَثَمَ عَلَى صَدْرِها مِنْ لَحْظَةِ مَوْلِدِها إلى ساعَةِ الْفَرَجِ تِلْكَ، وخَلَّصتْ أَهْلَها بِصَبْرِها ومُثابَرَتِها مِنْ وِزْرِ الْفاقَةِ تَماماً كَما خَلَّصَتْهُمْ مِنْ قَبْلُ مِنَ النَّجاسَةِ ونُسِفَ الْحَيُّ الْقَصْدِيرِيُّ مِنَ

الْمَدَنِيَّةِ[132] ومُسِحَتْ مَعالِمُهُ بَعْدَ سِنِينَ مِنَ الاِسْتِقْلالِ، اِنْتَظَرَ سُكَّانُهُ خِلالَها، بِفارِغِ الصَّبْرِ، ما تَجُودُ بِهِ يَدُ الْحُكُومَةِ.

أُهِيبُ بِكَ أَيُّها الشَّبابُ أَنْ تَكُونَ بِمِثْلِ تِلْكَ الإرادَةِ، وفي تِلْكَ الْبَسالَةِ، تَنْزِفُ في شَرايِينِكَ طاقَةٌ مُفْعَمَةٌ بِالْحَزْمِ والطُّمُوحِ، عِنْدَما تَلِجُ مَشارِيعَ الْحَياةِ الْمُخْتَلِفَةَ وتَخُوضُ مَكارِمَ الْعَزائِمِ.

حَمَّام قرْقور، أَغسطس 1999م

[132] حيٌّ شَعْبِيٌّ في الجزائر العاصمة.

فِي النَّفْعِ[133]

حَدِيثٌ يَجْلِبُ حَدِيثا. وهاأنا أَذْكُرُنِي في بِإِحْدَى الْمَصَحَّاتِ الْفِرَنْسِيَّةِ، إِذْ جَلَسْتُ في قاعَةِ الاِسْتِرْخاءِ فإذا بِي ورَجُلٌ قَدْ عَلَّقَ مِذْياعاً ضَخْماً إلى رَقَبَتِهِ بِحَيْثُ يَتَدَلَّى على بَطْنِهِ وجَعَلَ يَمْشِي بِهِ فَأَخَذْتُهُ مَأْخَذَ الْجُنُونِ. بَيْدَ أَنَّ الأَمْرَ اسْتَمَرَّ كَذَلِكَ أَيَّاماً فاسْتَطْلَعْتُ الْمُمَرِّضَ:

ـ ما لَذَلِكَ الرَّجُلِ يُعَلِّقُ ذَلِكَ الرَّادْيُو إلى عُنُقِهِ رُغْمَ ثِقَلِهِ؟ أَبِهِ جُنُونٌ؟

أَجابَنِي:

ـ كَلاَّ ما ذَلِكَ بِمِذْياعٍ.

سَأَلْتُ:

ـ فَما هُوَ؟

قال:

ـ تِلْكَ مَعِدَتُهُ. يُولِجُونَ له الأَكْلَ في أُنْبُوبٍ فينزل الأَكل إلى الآلة تهضمه ثُمَّ تُلْقِيهِ إلى جوفه.

---

133 شَهادة للسَّيِّد إبراهيم دهيني (69 عاما). سُجِّلَ عامَ 2006م.

فاستغفرت الله وقلت:

ـ فلئن كان أمر هذا كذَا، فأنا بخير وعافية إذاً وليست حالتي بالمُرَوِّعَةِ رغم السَّرطان الّذي ابتلاني.

ثمَّ جعلت أُعين المرضى، أَقُودُهُمْ إلى الْخارِجِ يَتَشَمَّسُونَ أَوْ يتطَلَّعُونَ إلى الطَّبِيعَةِ الْمُعْشَوْشِبَةِ. وصَرَفْتُ في ذَلِكَ زَمَنا حتَّى دَعانِي إلى مَكْتَبِهِ رَئِيسُ الْمَصْلَحَةِ، ذاتَ يَوْمٍ ـ وكانَ عامِراً بِزُمَلائِهِ مِنْ رِجالِ الطِّبِّ ـ وَسَأَلَنِي:

ـ ما لَكَ يا سَيِّدُ دِهِينِي لا نَراكَ تَجْتَمِعُ بِزرافاتِ الْمَغارِبَةِ إذا خَلَطَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ؟ أَلَسْتَ جزائِرِيّاً؟

وكانَ إخْوانُنا كُثُراً في الْمَصَحَّةِ، فَأَجَبْتُهُ:

ـ بَلَى أنا جَزائِرِيٌّ على أَنَّ حَدِيثَ أولئكَ أعْرِفُهُ مَلِيحاً. وحَيْثُ إنِّي رَجُلٌ لَمْ يَتَعَلَّمْ، رَجائِي أن أعاشِرَ مَنْ أَخْطِفُ منْهُ بَعْضَ ما يَنْفَعُنِي. يُعْجِبُنِي أَنْ أَلْتَقِطَ مِنْ عَشِيرِي بَعْضَ خُشارِ عِلْمٍ يَزِيدُنِي وَلا يُنْقِصُنِي.

سَأَلَنِي:

ـ ولِمَ تُساعِدُ الْمَرْضَى، هَذا لَيْسَ عَمَلَكَ؟

قُلْتُ:

ـ لا يَخْفَى عَلَيْكَ يا سَيِّدِي أَنَّنِي مَكَثْتُ مَمْدُوداً على ظَهْرِي أَرْبَعِينَ يَوْماً، تَتَسَلَّلُ الأنابِيبُ مِنْ خَيْشُومِي وسائر جَسَدِي. فَكُنْتُ أُسْعَدُ بِالْمُمَرِّضِ يَدْلِفُ إلَيَّ فَيُجْلِسُنِي أَوْ يُساعِدَنِي على الْحَرَكَةِ. وكَذَلِكَ أُحِبُّ

أَنْ أُدْخِلَ بَعْضَ سَعادَةٍ على أُولئكَ الْمَساكِينِ مِثْلَما انْشَرَحْتُ أَنا بَعْضَ انْشِراحٍ.

قال:

ـ رَأَيْتُ أَنَّكَ لا تَشْكُو أَبدَا مِنَ الطَّعامِ.

قُلْتُ:

ـ لَئِنْ شَكَوْتُ وغَيْرِي، أَوَ تُنْجِزُونَ لِكُلٍّ غَرَضَهُ؟ أَدْرِي أَنَّا هُنا أَرْبَعُمائةٍ وتَحْقِيقُ الأَمانِي في هَذِهِ الْحالَةِ مِنَ الْمُحالِ. ثُمَّ أَنَا ما حَضرْتُ إِل هُنا لأَجْلِ بَطْنِي ولَكِنْ رَجاءَ التَّداوِي فَلَئِنْ أَعْجَبَنِي الطَّعامُ أَكَلْتُ وإِلاَّ أَمْسَكْتُ وشَكَرْتُ اللهَ على كُلِّ حالٍ.

فَقامَ إِلَيَّ السَّيِّدُ صافَحَنِي ـ وكانَ يَهُودِيّاً ـ وقالَ لِي:

ـ سَيِّدُ دَهِينِي، هَذِهِ الْمَصَحَّةُ مَفْتُوحَةٌ لَكَ. مَتَى شِئْتَ أَنْ تَأْتِيَ فَتَعالَ أُسْبُوعاً أَوْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ كَما بَدَا لَكَ، كُلُّ مَصْرُوفٍ على حِسابِنا.

حَدِيثٌ يَجْلِبُ حَدِيثاً وإِنَّما هَذا مَثَلٌ ضَرَبْتُهُ لَكِ كَيْ أُفْهِمَكِ أَنَّ الأُمُورَ مُعامَلاتٌ وحُسْنُ سُلُوكٍ.

باريس، 2008م

شابٌّ أَنُوفٌ

الْمُسْلِمُونَ كَثِيرُونَ فِي فِرَنْسَا بِحَمْدِ اللهِ. والإسْلاَمُ في اتِّساعٍ مُسْتَمِرَّ حَتَّى يَتِمَّ وَعْدُهُ تعَالَى. ومَعَ ذَلِكَ، فَأَنا أَشْعُرُ دَوْماً بِالْغُرْبَةِ وَسَطَ إِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ في هَتِهِ الْبِلاَدِ رُغْمَ طُولِ مُكُوثِي بَيْنَهم. كَمَا أَنِّي أَبَداً أَجِدُهُمْ يَخْتَلِفُونَ اخْتِلافاً شَدِيداً عَنِ الْمُسْلِمِينَ في الْبُلْدَانِ الأَقْدَمِ اتِّصالاً بِهذا الدِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ.

بَلَى! كَثِيرُونَ هُمُ الَّذِينَ انْتَبَهُوا مِثْلِي إلى هَذا الاخْتِلافِ الْمَوْجُودِ بَيْنَ مُسْلِمِي أُورُبَّا ومُسْلِمِي الشَّرْقِ. ومَعَ ذلِكَ فَحُكْمُنَا عَلَيْهِمْ يَشُذُّ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ في كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ.

إنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَدَّعُونَ أَنَّ مُسْلِمِي الشَّمالِ خَيْرٌ وأَفْضَلُ مِنْ مُسْلِمِي الْجَنُوبِ. وأَنَّهُمْ أَصْدَقُ إيماناً وأَخْلَصُ تعَبُّداً. وأَنَّهُمْ يُؤَدُّونَ الصَّلَوَاتِ في أَوْقاتِها ولا يُؤَخِّرُونَ ولا يَزِيدُونَ دَقِيقَةً. وأَنَّهُمْ يُنْجِزُونَ الْفُرُوضَ دُونَ مُراوَغَةٍ أَوْ تَرَدُّدٍ كَمَا هُوَ الْحَالُ في بُلْدانِنا. وكُلُّ هَذا صَحِيحٌ.

ومَعَ ذَلِكَ فَأَنا لا أَسْتَطِيبُ هَذا الإسْلامَ ولا أُثْنِي عَلَيْهِ، مَهْماَ أُعْجِبْتُ بِأُولئِكَ الّذِينَ عَرَفُوا كَيْفَ يَثْبُتُونَ لِسِياسَةِ الْغَرْبِ الّتِي تُنَفِّذُ كُلَّ الْوَسائِلِ

والتَّخْطِيطاتِ، بِاسْمِ الانْدِماجِ، لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الإسْلامِ وجَرِّ هذا الرَّعِيلِ إلى ثَقافَتِها ومُقَوِّماتِها مَهْماً كَلَّفَها الثَّمَنُ. وتَبْغي، إنْ عاجِلاً أَمْ آجِلاً، أَنْ تَطْمِسَ مَعَالِمَ أَجْدادِهِ وتَمْنَعَ ما دُونَهُ ودُونَ تُراثِهِ. فَطُوبَى لِمُسْلِمِي الْغَرْبِ ومُسْلِمِي فِرَنْسا خُصُوصاً إيمانَهُمْ وحُسْنَ جِهادِهِمْ، لا سِيَّما الشَّبابِ مِنْهُمْ سَوَاءٌ أَكانُوا مِنْ أَصْلٍ مُسْلِمٍ أَوْ مُعْتَنِقَةً، عَرَباً أَمْ أَعاجِمَ. ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَلْفَيْتُ هَذا الدِّينَ سَطْحِيّاً لَمْ يَبْلُغِ الْعَصَبَ مِنَ الْقُلُوبِ ناهِيكُمُ الدَّمَ مِنَ الشَّرايِينِ.

كَثِيراً ما بَلَغَ مِنِّي الأَلَمُ مَبْلَغَهُ وشَعَرْتُ بِالْوَحْدَةِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ لَمَّا بَدا إدْراكِي لِهَذا الدِّينِ، في أَغْلَبِ الأَحْيانِ، مُخالِفاً مُنْفَرِداً. ثُمَّ ما لَبِثْتُ أَنْ لَمَسْتُ كُنْهَ الْمُشْكِلَةِ لَمَّا أَصبْتُ الإيمانَ عِنْدَهُمْ بَعِيداً عَنِ الْفِطْرَةِ، يَصْدُرُ عَنِ النَّصُوصِ وإلَيْها يَنْكَفِئُ فِيما قَدِ اخْتَلَطَ عِنْدَنا بِاللَّحْمِ والْجَوارِحِ.

لا أَقْصِدُ أَنَّ مُسْلِمِي فِرَنْسا كاذِبُونَ في اعْتِقادِهِمْ. ولا أعْنِي أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ في الْمَغْرِبِ أَوْ مِصْرَ أَوِ الشَّامِ حَنِيفٌ قِدِّيسٌ، وأَنَّهُ لا مَحالَةَ ذاهِبٌ إلى الْجَنَّةِ. إنَّما الَّذِي أَرْمِي إلَيْهِ هُوَ أَنَّ الإسْلامَ، مَهْماً نَقُصَ لَدَيْنا، إلاَّ أَنَّا تَعَوَّدْناهُ مُنْذُ قُرُونٍ وأَحْقاب، أَوْ هُوَ تَعَوَّدَ عَلَيْنَا فَصارَتْ كَثِيرٌ مِنْ خَصائصِهِ طَبِيعَةً فِينَا. ورُغْمَ كَوْنِهِ بَيْنَ ظَهْرانِينا تَقْلِيداً، إلاَّ أَنَّهُ هُوَ مَرْجِعُنَا أَوَّلاً وأَخِيراً مَتَى أَخْطَأْنا أَوْ عَصَيْنا. اُذْكُرُوا قِصَّةَ "السَّكْرانِ" الَّتِي وَرَدَتْكُمْ في بَعْضِ صَفَحَاتٍ سابِقَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِبَب.

ما عَثَرْتُ عَلَى مِثْلِ ذا السُّلُوكِ، سُلُوكِ السَّكْرانِ، في فِرَنْسا رُغْمَ مُعاشَرَتِي لِكَثِيرٍ مِنْ إخْوَتِي بِهَذِهِ الرُّبُوعِ. إنَّهُ إسْلامُ كُتُبٍ وإسْلامُ شُيُوخٍ

وإسْلامُ أَوَامِرَ ونَوَاهٍ لا غَيْرُ. لا يَكادُ الْمُسْلِمُ، في هَذِهِ الدِّيارِ، يُحَدِّثُكُمْ إلاَّ واسْتَدَلَّ بِحَدِيثٍ أَوْ آيَةٍ، فَاسْتَشْهَدَ بِرَأْيِ ذا الْمُحاضِرِ أَوْ ذاكَ. جَمِيلٌ جِدّاً. بَيْدَ أَنَّهُ، إذا ما افْتَقَدَ النَّصَّ، عَجَزَ عَنِ الإسْلامِ وعَجَزَ عَنْ سُبُلِهِ. فَالإسْلامُ لَدَيْهِ لَيْسَ دِينَ فِطْرَةٍ، ولا دِينَ عَقْلٍ، ولا دِينَ رُوحٍ، ولا دِينَ انْفِعالٍ، ولا دِينَ شُعُورٍ، ولا دِينَ ذاتٍ، ولا دِينَ دُنْيا في الآخِرة، ولا دِينَ آخِرةٍ في الدُّنْيا. هُوَ دِينُ قَوانِينَ يَلْزَمُ تَطْبِيقُها وكَفَى.

إنَّهُ إسْلامٌ يَكادُ يُشْبِهُ تَعَبُّدَ الرُّهْبانِ النَّصارَى في أَدْيِرَتِهِمْ وصَوامِعِهِمْ، يُطالِعُونَ مَخْطُوطاتِ الأَحْبارِ والْحَوارِيِّينَ، مُتَقَوْقِعِينَ بَعِيداً عَنِ النُّورِ، بَيْنَ ظُلُماتِ أَقْبِيَتِهِمْ، راسِبِينَ في دهالِيزِ الْمُجْتَمَعِ، مُزَوَّرِينَ عَنْ كُلِّ واقِعٍ وعَنْ كُلِّ الْكائناتِ الْحَيَّةِ النّابِضَةِ بِشَدْوِ الْقَلْبِ الْحَيِّ بِالرَّحْمَةِ!

الإسْلامُ عِنْدَ إخْوَتِنا في الْغَرْبِ شَيءٌ يُحِبُّونَهُ بِعُنْفٍ، ويَحْتَفِظُونَ بِهِ قَدْرَ ما يُطِيقُونَ، ويَلْهَجُونَ بِهِ بِكُلِّ مُناسَبَةٍ وبِغَيْرِ مُناسَبَةٍ، ويُناضِلُونَ لأَجْلِهِ لَمَّا سَيَّبَهُ كَثِيرٌ مِنْ إخْوَتِنا في الْبِلادِ الإسْلامِيَّةِ، يُناضِلُونَ لأَجْلِهِ أَصْدَقَ نِضالٍ... على أَنَّ شَيئاً ما فِيهِم يَخْتَلِفُ، يَسْتَقِلُّ بِذاتِهِ في التَّفْكِيرِ والْحِسِّ والنَّظَرِ والشَّمِّ بَيْنَهُ وبَيْنَ الْفِطْرَةِ فَراغٌ مُخِيفٌ.

كَأَنَّ الإسْلامَ ثَوْبٌ يَلْبَسُونَهُ ثُمَّ يَنْزَعُونَهُ مَتَى لَمْ يَحْتاجُوا الاتِّقاءَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ. كَأَنَّهُ النَّظَارَاتِ الّتِي يَنْظُرُونَ مِنْ خِلالِها إلى الأَشْياءِ، كُلِّ الأَشْياءِ قَرِيبِها وبَعِيدِها، ولَكِنَّهُ لَيْسَ أَعْيُنَهُمْ الّتِي خَلَقَها اللهُ في وُجُوهِهِمْ.

لا أَقْصِدُ أَنَّ إخْوَتِنا يُنافِقُونَ مَعاذَ اللهِ! ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَّحِدُوا بِهَذا الدِّينِ ولَمْ يَصِيرُوا مَعَهُ كُتْلَةً مُتَراصَّةً مُتَماسِكَةً، سَبِيكَةً مِنَ الذَّهَبِ رَقْراقَةً لا

يَنْفَصِلُ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ. بَلْ هُوَ فَلْسَفَةٌ أَمْسَكُوها في أَكُفٍّ أَيْدِيهِمْ مَفْتُوحَةً فَطارَتْ إلى الرِّيحِ.

أَمَّا نَحْنُ، فَنَعِيشُ فَلْسَفَتَهُ بِبَساطَةٍ، دُونَ تَظاهُرٍ ودُونَ تَكَلُّفٍ. لَكِنَّا في الآنِ ذاتِهِ، وَضَعْنا أَوَامِرَهُ ونَوَاهِيَهُ في دُولابٍ أَغْلَقْناهُ بِمِفْتاحٍ قَدْ أَضْعْناهُ. فَإِنْ عَثَرَ عَلَيْهِ بَعْضُنا مِنْ جَدِيدٍ، فَأَكْثَرُ ما يَكُونُ ذَلِكَ بِالصُّدْفَةِ.

الأَمْرُ بَيْنَنَا مَعْكُوسٌ تَماماً. لا وُجُودَ لِلدِّينِ تَقْرِيباً في حَدِيثِ النَّاسِ. فإِذا تَأَهَّبُوا لِفِعْلِ شَيْءٍ، فَقَلِيلاً ما يُفَكِّرُونَ في الْحَلالِ والْحَرامِ. بَلْ وإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْحَرامِ صارَ عادِياً في نَظَرِهِمْ، بَيْنَما صارَ كَثِيرٌ مِنَ الْحَلالِ حَراماً.

عَدِيدُونَ هُمُ الَّذِينَ لا يُصَلُّونَ، والسُّتْرَةُ ناقِصَةٌ عِنْدَ الْكَثِيراتِ، والْكَذِبُ والْخِداعُ وحَبُّ الدُّنْيا قَدْ تَمَكَّنُوا مِنْهُمْ كَالْمَرَضِ الْعُضالِ. ومَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَتَنَفَّسُونَ الإِسْلامَ، ويَتَكَلَّمُونَ بِالإِسْلامِ، ويَشْعُرُونَ بِالإِسْلامِ وفَلْسَفَتُهُ أَساسُ حَياتِهِمْ لأَنَّهُمْ وُلِدُوا بِها، وَوَرِثُوها في خَلاياهُمْ.

يَبْدُو عَلَيَّ التَّناقُضُ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ بَيْدَ أَنَّهُ لا تَناقُضَ فِيما أَقُولُ. وحَيْثُ إِنَّ التَّعْلِيلاتِ والْحُجَجَ نَفِدَتْ بَيْنَ يَدَيَّ، فَإِلَيْكُمْ بِذِي الْحادِثَةِ الْواقِعِيَّةِ تُقْنِعُكُمْ أَوْ، تُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْقَصْدِ عَلى الأَقَلِّ.

اِسْتَوْقَفَنِي شابٌّ في بَعْضِ الطَّرِيقِ، قُرْبَ بَيْتِي الْبارِيسِيِّ. نَظَرْتُ إِلَيْهِ فَلَمْ أَتَبَيَّنْ فِيهِ شَوَاهِدَ عِلْمٍ وَافِرٍ، أَوْ مَلامِحَ تَدَيُّنٍ زائِدٍ، أَوْ وَهَجَ نُورٍ دافِقٍ، أَوْ آثارَ ذَكَاءٍ بارِزٍ. تَفَرَّسْتُ في هَيْئَتِهِ فَوَجَدْتُهُ شابّاً يُناهِزُ الْعِشْرِينَ، بِصُحْبَةِ رَفِيقَيْنِ.

فتًى طَوِيلٌ، رَهِيفٌ، حادٌّ وأَسْمَرُ. يظْهَرُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنَ الْعائلاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْبَسِيطَةِ. بَلْ مِنَ الشَّبابِ الضَّائعِ تَحْتَ قَناطِرِ أُورُبّا. مِنَ الْمُهاجِرِينَ الّذِينَ فَرُّوا الْوَطَنَ مَقْهُورِينَ يَبْغُونَ مَصِيراً مُخْتَلِفاً فَصادَفُوهُ رُبَّما أَعْتَه.

وَجَدْتُهُ قَلِيلَ الْجَمَالِ بَلْ مُنْعَدِمَهُ. بَسِيطَ الْحَسَبِ بَلْ مَغْمُورَهُ. لا تَظْهَرُ عَلَيْهِ آثارُ اللُّطْفِ أَوِ النَّشْأَةِ الْمُنْتَقاةِ. يَتَكَلَّمُ بِسُرْعَةٍ لَكِنْ بِحَياء. كَمَا أَنَّنِي ما رَأَيْتُ على ثَغْرِهِ طَيْفَ الْبَسْمَةِ قَطُّ وأَظُنُّهُ دائمَ الْوَقارِ حَتَّى لَيَحْسَبُهُ ناظِرُهُ غَضْبانَ مُقَطَّبَ الْجَبِينِ مِنْ شِدَّةٍ وتَعْسِير.

سَأَلَنِي الشَّابُّ بِخِفَّةٍ ودُونَ لَفٍّ فَعَرَفْتُ مِنْ لَهْجَتِهِ أَنَّهُ جَزَائِرِيٌّ وأَنَّهُ مِنَ الْعائلاتِ الْمَتَوَاضِعَةِ في بَلَدِي... سَأَلَنِي بِالْجَزائرِيَّةِ وكَأَنَّهُ قَرَأَ أَصْلِي وقائلاً:

ـ أَتُصَلِّينَ ؟

قُلْتُ بِدَهْشَةٍ:

ـ أَجَلْ!

فَمَالَ إلى كِيسٍ كانَ يَحْمِلُهُ بِيَدِهِ وأَخْرَجَ مِنْهُ مُصْحَفاً أَحْمَرَ جَدِيداً وأَرْدَفَ:

ـ خُذِي ذا الْمُصْحَفَ واحْتَفِظِي بِهِ. صادَفْتُ فِرَنْسِيّاً على غَيْرِ دِينِنا يَبْسُطُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نُسَخاً عَدِيدَةً على قارِعَةِ الطَّرِيقِ ويَبِيعُها على أَسْفَلْتِ الرَّصِيفِ الْعارِي. فآلَمَنِي أَنْ يَلْمَسَ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ الْكِتابَ الْمُطَهَّرَ، أَوْ يَتْجَرَ بِهِ ويَرْبَحَ مِنْهُ،؛ وحَزَّ فِي نَفْسِي أَنْ يَطْرَحَهُ على طَرِيقٍ

نَجِسَةٍ تُرَوِّثُ فِيها الْكِلابُ. فَاشْتَرَيْتُها عَلَيْهِ جَمِيعَها عَسَى أَنْ أَحْرُزَ حُرْمَتَها مِنْ مُلامَسَةِ أَيادٍ لَمْ يُسَوَّغْ لَها لَمْسُها. ثُمَّ هاأنا ذا أُوَزِّعُها عَلى كُلِّ مَنْ تَوَسَّمْتُ فِيهِ رائِحَةَ الْمُصَلِّي.

أَتَمَّ الشَّابُّ كَلِماتِهِ وَمَضَى دُونَ أَنْ يَنْتَظِرَ مِنِّي جَوَاباً... غابَ كَأَنَّهُ شَبَحٌ انْبَلَجَ لِي مِنْ حَيْثُ لا أَدْرِي، كَأَنَّهُ مَلَكٌ اِنْجَلَى لِعَيْنِي.

وَوَلَّيْتُ صَوْبَ الْمِشْوَارِ الَّذِي كُنْتُ قَدْ خَرَجْتُ مِنْ أَجْلِهِ، وعَلَى ثَغْرِي ابْتِسامَةُ فَخْرٍ، وفِي صَدْرِي يَجِيشُ مَزِيجٌ مِنَ الْفَرَحِ والإعْجابِ بِذَلِكَ الشَّابِّ الَّذي ما أَرَى سِوَى أَنَّهُ صَرَفَ كُلَّ ما يَمْلِكُ مِنْ مالٍ في الْمَصاحِفِ الشَّرِيفَةِ، وأَنَّهُ رُبَّما جائِعٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، أَوْ لَعَلَّهُ مَدِينٌ لِرَفِيقَيْهِ اللَّذَينِ يُماشِيانِهِ بِثَمَنِها فَزَادَ عَلَى وَصَبِ الْجَيْبِ وَصَباً، ولَكِنَّ الْقَلْبَ جَذْلانَ.

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ إنْ كُنْتَ غافِلاً   يَأْتِيكَ بِالأَرْزَاقِ مِنْ حَيْثُ لا تَدْرِي

فَكَيْفَ تَخَافُ الْفَقْرَ واللهُ رازِقٌ   فَقَدْ رَزَقَ الطَّيْرَ والْحُوتَ في الْبَحْرِ

باريس في: 31 مايو 1999

الْـمُتَأَدِّب

"تَمَلَّكَ بِهِ ناصر الدِّين السّعيد بن ناصر"! أغمضت العينين وحلّقت بخيالي في حدود الدّار ألتمس ناصر الدّين في كلّ زاوية من المكان، أتمثّل ملامحه، أتصوّرها خمسين سنة خلون من قبل.

كرّاسة سوداء هزيلة بالية، قد تناثرت أوراقها، ولعِبت سطورها، وتقاطر ريق كلماتها على الصّفحات فالتصق بعضها ببعض وأُبهمت...

كرّاسة ضائعة بين أوراق تافهة في درج ضيّق من خزانة جدّي المرتعشة. تلك الّتي تذكرها طفولتي، وتراها ذاكرتي كلّما تمثّلت غرفة الجدّ، أو تحسّستها في غربتي.

خزانة صغيرة وطيئة عتيقة، جانب السّرير، قد ضاع لونها الأوّل تحت طبقات الطّلاء المتتالية، وما بقي يدلّ على سالف رونقها سوى قفلها المذهّب اللّمّاع. وبين طيّاتها كرّاسة سوداء رثّة ضائعة بين أوراق تافهة، قد تبدّد حبرها وتبعثر، لولا بعض منشفة موشّاة ببُقع من مِداد بنفسجيّ وأسود وأزرق، تقع عليها حواسّي فتشُمُّ نفسي عبقها، وتمسح عيني لونها، وتلمس يدي ورقها، وأحسّ تحت لساني ذوق تَخٍّ وعفن

قديم تُطَيِّبه رائحة عطريّة لذيذة فيقشعرّ بدني كلّه، كأنّ غريزتي تفيق لوشيجة قديمة وعهد تليد بيني وبين تلك الكرّاسة.

أجدها في الدّرج التّليد ويعود إلى ذهني أنّني وجدتها مرّات ومرّات من قبل، منذ أن أدركت التّفتيش في خزائن الدّار والتّنقيب عن شيء ما، فيما لا يعنيني من أدوات مُودَعة بين الأخشاب المتهافتة تحت وطء الزّمن.

"تَمَلَّكَ بِهِ ناصر الدِّين السّعيد بن ناصر"! رجل لا أحد يعرفه على ما يبدو في بيت جدّي. ومهما التفتُّ يمنة أو يسرة أسأل آل الدّار عن صاحب الكرّاسة، لا أحد لي بالمرصاد يسعفني فيما قد تخمّر في ذهني من سؤال...

برفق، تعود أناملي تتناول الكرّاسة السّوداء، تفتح دفّتيها الجِلْدِيَّتَيْنِ، ويدور لحظاي في الأوراق الصّفراء، يحدّقان النّظر، يُمعنان في الحروف المعوجّة، ثمّ سرعان ما يفتّت الإعياء عزيمتي، ووشيكا تُلقي راحتاي الكرّاسة التّعيسة بين خشبات الدّرج المسكين، وسط الأوراق التّافهة، وقد أَكَلَّ فكري الخطُّ المنكسر واللّون الباهت واللّغة المتردّدة والمعاني المرتبكة، وأغدو لا ألتفت إلى وراء... وتنام الكرّاسة الصّابرة بصمت في الدّرج العتيق، تنتظر ساعة الفرج، ساعة يحقّق لناصر الدّين أملُه في الالتحاق بلفيف الأدباء.

ويمرّ حول تلو الحول وها هي ذي الكرّاسة تعود تقطع طريقي. وأسدّد السّمع وتنتصب أُذناي وكأنّ نداء نجيّا باطنيّا يدعوني من أعماق الكرّاسة أو في جوفي يناشدني:

ـ هلُمّ... هلمّ إليّ فإنّ بيننا عهدا قديما!

وكأَنَّ موسيقا سحريّة تجذبني، تحدوني نحو الدّفتر الدّاكن، وكصاحب العيس حُداؤه يسحر الإبل، أغدو إليها، تحملها راحتاي في حنوّ، أنظر في صفحتها الأولى فإذا: "تَمَلَّكَ بِهِ ناصر الدِّين السّعيد بن ناصر"!

دقّقت اللّحظ في رموزها أحاول فكّ طلاسمها جاهدة، وإذا بالكلمات تنبلج لي سهلة، وإذا بالمعاني تتفتَّق إلى ذهني واضحة، وإذا بي أركض إلى جدّتي، يلفّني مرط من الحماس والانتعاش:

ـ ومن ناصر الدّين السّعيد بن ناصر؟

ـ لا أعرفه ولا أدري وعسى أن تكفّي عن سؤالك الملحاح كلّما وقعت على هذا الدّفتر البليد...!

ـ لا يعقل ألاّ تعرفيه وقد سكن كرّاسُه بيتَك خمسين سنة!

ويشرد ذهني؛ وتأتي إلى فؤادي صور وأشكال؛ وأتمثّل عجوزا أمّيّة عام 1945م تدعى "فاطمة زرميني"

تفتح عقدة في طرف من محرمتها، تشتري كرّاسة سوداء جلديّة في بعض أكشاك "بُوقاعة"، وبفرحة وفخر تنبذ بهديّتها تحفةً نفيسة إلى حفيدها الأثير ناصر الدّين. حفيد سكبت فيه كلّ آمالها وأحلامها وكلّ ما لم تحقّقه في صِباها ممّا لم يكن يخطر ببالها. ثمّ في زمن غير زمنها فتحت

بصيرتها فتحسّرت، وتوعّدت في قرارة نفسها أن لَتَغْمِتَنَّ الزّمن الّذي احتقرها ولتَثْأَرَنَّ من الظّروف الّتي شاكستها وتُرِيَ الشّهداء الأعاجيب...

ـ خذ، يا حبيبي، خذ!... اكتب واحفظ على هذا الدّفتر، وعسى يا بنيّ أن تصير طبيبا أو محاميا إن شاء الله، حينئذ، يا قرّة العين، تسند ظهري المنكسر وسِنِّي الهرم...

وتخيّلتُ الغلام ناصر الدّين، يهتزّ فؤاده لهديّة جدّته الحنون؛ هديّة يعتزّ بها ويزهو ولكنّه يخفي فرحته عميقا لا يظهرها. تلك عادة في بني جنسه يسدلون السّتار دائما على بنات أنفسهم... علّه تواضعٌ منهم وحياءٌ؛ وعلّه حكمة وتفكّر؛ أو ربّما هُو أنفة وغيرة وقد يكون أيضا ارتباكا وحيرة... ما أدري... إلاّ أنّ الغلام ناصر الدّين يغدو إلى خلاّنه، يلهو فيما يلهون، ويسلو فيما يسلون، ولكنّه في تلك المرّة، مفعم بإحساس قشيب، إحساس بالرّفعة والْخِيَرَة على أترابه في غير ما غرور ولا كبرياء... ويدنو ظلّي في الخيال من شبح ناصر الدّين، وأنظر في مقلتيه فألمح في عينيه شعاعا ساطعا، شعاع الطّموح إلى المجد، والتّفاني في طلب العلم، والهيام بفرقة العلماء والشّغف بجمهور المثقّفين، ولكنّ هدبا من لحظيه لا يرمش وشفتاه لا تنبسان بكلمة... كأنّه لا يتنفّس فأضحى كلّه ملكا في تواضعه وعزمه.

ويتبع ظلّي ناصر الدّين، يتقفّى أثر خطاه في عالم مضى أتصوّرُه، فإذا بي في "ذِراعِ قَبِيلة"، بتاريخ 17 أكتوبر 1945م.

ذراع قبيلة عرش متواضع، في برّ ضائع بين "وادِي السّبت" و"إيثِ الْخَلْف"، على ضفّة نهر حقير، في دشرة هاملة... ومع ذلك فصبيّ طموح، له جدّة يشرئبّ عنقها إلى النّجوم، يحبّان العلم حبّا يقبضهما من الأحشاء. فتحا أعينهما في بيئة فِلاحيّة رعويّة، لا يريان فيها أحداثا خارقة ولا مواقف فوق العادة. ولكنّ الصّبيّ المحظوظ يعاشر كُتّاب القرية، يحفظ بعضَ ما يحفظ بين يديِ المجاورِ الهرم، المجهولِ الاسم لدى السّوادِ الأعظم. أمّا جدّته فلم يُتح لها مِثلُ النّصيبِ والفرصةُ ذاتهُا، فتتوقّد فيها جمرة تجفل منها جوارحُها، وتغدو تمسك حفيدها من اليد على درب السّؤدد: أحدهما يغرف من معينه، والآخر يذلّل كلّ ما في سبيله من عثرة ويثبّط كلّ شوكةِ غِرٍّ خَبٍّ يخال أنّه بوسعه أن يمنع وُقوع المعجزة فيروحُ أشعثَ مفجوعا وناصرُ الدّين في سبيله أبدا مثابرٌ...

وفجأة! يجذبني من تحليقي صوت دنيويّ فأنتفض، وتصلني رنّة من جدّتي نشيطةٌ متداركةٌ:

ـ إي بلى، هو الشّيخ ناصر أُو ناصِر... ينتمي إلى آلِ ناصر في إيث الخَلْف... ولكنّه كان يعيش في سَطِيف...

ـ وماذا عن كرّاسته؟

ـ لا أعلم!... رُبَّما أهداها جدَّكِ...

ـ لا أظنّ، فمثل هته النّصوص لم تكن من ذوق جدّي... ما كان يقرأ ـ رحمه الله ـ سوى القرآن ودلائل الخيرات... هل كان ناصر هذا يجيء إلى هنا؟

ـ نعم... وإلاّ كيف؟ كان يَفد علينا في مناسبات متعدّدة، مصحوبا بأهله وأسرته. وكانُوا يقضون أيّاما مطوّلة عندنا، يستجمّون بمِياه القَرقور[134] الصّحّيّة وهوائه المنعش.

وتعود إليَّ الرُّؤيا... لوحة لا تمّحي من خاطري كلّما تفكّرت في الكرّاسة: ناصر الدّين رجل كهل، يميل إلى السّمنة، ذو وجه مُتَساوٍ لا يُمَيِّزه جمال فائض ولا قبح شديد... ثمّ إنّي لا أتبيّن خطوط صورته بدقّة، على أنّي أتمثّله كستنائيّ الشّعر، أبيض إلى حمرة، يجلس على كرسيّ في الغرفة الرّئيسة من بيتنا، مكبوبا، يخطّ في كراسته السّوداء...

وأعود أخرج من غيبوبتي، أنظر في الدّفتر بين يديّ فأرى: "ذراع قبيلة، مدينة سطيف، عمالة قسنطينة، الجمهوريّة الإفرنسيّة..."

ـ صدقت يا جدّة، فعلا إنّي أقرأ اسم مدينة سطيف... ولكن لِمَ تقولين "إيث الخلف" وأنا أقرأ "ذراع قبيلة"؟

ـ ذراع قبيلة أو إيث الخلف سيان... تقع "ذراع قبيلة" في جهة "إيث الخلف"...

ـ وهل كان شابّا؟

ـ كلاّ، بل كان مسنّاً وشيخا بمدينة سطيف...

ـ كان إماما إذا؟

---

[134] Guergour قرية حمّام قَرْقُور في ولاية سَطِيف من الشّرق الجزائريّ. وتنطق القافان جيما مصريّة.

ـ لا أدري... أكان إماما أم مدرّسا... يبدو أنّه كان مدرّسا... أفّ لا أدري... ثمّ دعيني الآن!

وأكفّ عن الإلحاح وأرجع أغطس في تأمّلاتي، ويرجع ظلّي يتبع شبح ناصر الدّين، وتراه عيناي الشَّفَّافَتان شابّا بالغا، رُبَّما رَجُلاً، يجول تحت أقواس مدينة سطيف ويشرب من عين الفوّارة، ثمّ يتيه بصرُه في "سِيتِيفِيسَ"[135] عَروس الرّومان وربْع بني هلال. وتقوده قدماه إلى بعض العرصات، إلى شيخ عاري الصّدر، شائب الذّقن، أصلع تحت شاش ممزّق حائل اللّون، يبيع أوراقا صفراء على قطعة جريدة مطروحة على الأرض؛ أو نحو طفل شارد، حافي القدمين، ينادي من رصيف إلى رصيف: "ـ أخبار اليوم، جرائد اليوم!"

ويقتني ناصر الدّين مجلّة "الرّسالة"؛ مجلّة كانت تأتينا في الجزائر كبصيص من نور وبعض من أمل يتيح الحياة قطرة قطرة؛ خيط رهيف ومع ذلك متين، رأسه في مشرق تهفو إليه أفئدة شعب أضحى غريبا في دياره، وطرفه في جُزُر المغرب، حيث تمسّكت به أيادي بعضِ الغرقى، تبتغي النّجاة شاحبة اللّون وقد بلغت شفا الموت.

مجلّة السّيّد الزّيّات يؤلّفها جِهْبِذ في الأدب ويرقمها فطاحل الأقلام العربيّة فيستأنس بها أفذاذ اللّغة في كلّ مكان من هذا العالم العربيّ النّابض القلب. أمّا في الجزائر، فَقهر وحصار على إخوان الضّاد، وما من

[135] سِيتِيفِيس هو الاسم الرّومانيّ لمدينة سَطِيف.

مجلّة تتسرّب إلى البلاد إلاّ وكانتْ أُكسجينا يتنفّس الجزائريّون من فقّاعاته الصّعداءَ؛ وهذا علاّمة الجزائر عبد القادر الْمَجّاوِي يخاطب الشّيخ محمّد عبده، يوم زار ديارنا للتّداوي، متوسّلا: "مُرُوا أصحابكم يتحاشوا فرنسا بسوء، فإنّا نخشى أن نختنق إن حُضِرت علينا المنار!".

جريدة لا يقرأها سوى النّبغاء، أو مَن هم على سبيل المجد يدنون على استحياء، يتدرّبون على الرّماية ولم يشتدّ ساعدهم بعد.

ويقتني ناصر الدّين الجريدة النّفيسة إذا. ولعلّه يبلغها خفية تحت الكمّ كما يقول الفرنسيّون. فإنّ فرنسا بسياستها الاندماجيّة، سياسة المساواة بين جميع أبنائها، لا تنظر إلى مثل هته المطالعات بعين رضاً، وكثيرون هم الّذين كانوا يتعرّضون للمناوشات والمضايقات لمّا لم يكتفوا بالعربيّة لغةً أجنبيّة... أجل، قد كانت العربيّة في الجزائر لغة أجنبيّة، وكان تدريسها محظورا سنين طوالا باسم الجزائر الفرنسيّة! مفارقة لم يفهمها سوى بُوجُو ولاَمُورِسْيِيرْ وماكْ ماهُونْ ومَن لفّ لفّهم. وإلاَّ فكيف لها أن تكون جزائرَ وفرنسا في آنٍ واحد؟! وعليه فتدريس اللّغة العربيّة لم يكن بِغَيْرِ شروط وتسريح؛ ثمَّ إنَّ التَّعلّم أصلا لم يكُنْ منصوحا به لِلإندِجِينْ..."لا تُعَلِّمُوا أَبْناءَ السِّفْلَةِ!"... اللَّهُمَّ سِوَى بعض الغَطْسِ العَجُولِ في مَيَازِيبِ إحدى الْمَدَارِسِ الزِّراعِيَّةِ... لا يشطحنَّ بكم الخيال بعض شطحاته فتخالوا الجزائريين مَوْعُودِين بذلك لمستقبل زاهٍ كمهندسين زراعيّين! بل إنّ برنامج هاذيك المدارس كان تلقين أبناء "السّفلة" مبادئ الزّراعة وضرب المعول ونقر المجرفة والخبش والنّبش في أرض

الجزائر الفرنسيّة، علاوة على ساعتين في لسان القوم عسى أن يرطِنَ الفلاّح قَدُّورٌ أو الزِّوَاوِيُّ بالفرنسويّة بعض الكلمات المؤدّبة من باب:

-A vos ordres Monsieur, oui Monsieur !

لا بدّ أن يعرف إخواننا في المشرق والمغرب على السّواء وضع إخوانهم في الجزائر كيف كان ويتفهّموه! لا بدّ أن يزنُوا ثباتهم أعدل ميزان. هؤلاء عرفوا، رغم الظّروف العصيبة، كيف يولّدون طاقة جبّارة تكاد تكون خارقة يحفظون بها شخصيّتهم، ويُنبتوا خلال تلك الفترة العاقّة أفذاذا مشاهير، دوّخوا بريشاتهم الخافقيْن، حسبنا شُهداءَ عليهم الشّيخ البشير الإبراهيميّ والفضيل الورثيلانيّ ومحمّد بن أبي شنب وأبو القاسم الحفناويّ ومحمّد الأمين الزّاهريّ وأبو اليقظان وأبو الأحبال والطّيّب العقبيّ والعربيّ التّبسيّ وموسى أحمدي النّوِويوَات وغيرهم كثير...

إنّي لأتميّز غيظا كلّما حدست نبرة تهكّم أو تكبّر أو امتنان على هذا الشّعب على أنّه جاهل بلسانه العدنانيّ، يعامَل معاملة اللّقيط بين عشائر الجامعة العربيّة، بينما أرى نضالا لا أساوي به سوى نضال الإخوة الفلسطينيّين داخل الأراضي المحتلّة، يحملون جوازات إسرائيليّة ويحافظون وسعهم على عربيّتهم ومدنيّتهم الإسلاميّة! ومع ذلك فالأشداق المتفيهقة كثيرة في عالمنا، وكما يقول المثل الجزائريّ: "الخبّاز وجهه للنّار وظهره للعار!"

كائن من شعب عانى أقلّ بكثير من هذين، وما قُهِر بمثل ما قُهِرَ به هذين ومع ذلك لم يثبت! بل منهم من مُسخ أو هو في طريق المسخ بمَفعول البذخ والرّفاهيّة الفاحشة... النِّعمة أحيانا بُنج وسِكْران خطيران.

وما هذه القصّة الّتي أتخيّل أكثر أجزائها، انطلاقا من معطيات معيشة، سوى إثبات لهذه الحقيقة. أم كيف لرجل قبائليّ مهضوم الجناحين، في دشرة ضائعة من الهضاب العليا، أن ينبري وُسعه للدّفاع عن إرثه وإرث أجداده؟!... أم تراه ليس إرث أجداده؟!... بَدَلَ الاندماج ببساطة فيكفيَ رأسه وجعا؟!

ما أقصّ خيالا للتّسلّي أو اللّهو، ولكنّي أسرد واقعا، تاريخا موازيا كما يحلو لي أن أسمّيه، لا يُعثر عليه في كتب التّاريخ الرّسميّة إلاّ لماما. فكتب التّاريخ ما تتحدّث إلاّ عن العظام الّذين دشِّنت لهم التّماثيل في ساحات المدن العظمى. أمّا ناصر الدّين وغير ناصر الدّين، وما أكثرهم! فلا أحد يلتفت إليهم ولو بانتكاسة من الهدب... نعم، أمثال ناصر الدّين كثيرون، وما "قِببُ بني مِزْغِنّا"هذه سوى تكريم لهم وتعريف بمساعيهم مهما ضؤلت في أعين الجاهلين أو غير العارفين. بيد أنّها، في نظري، عظيمة أُبجِّلهم من أجلها، وإنّهم هم الّذين غرسوا في قلبي حبّ لغة الضّاد وشريعتها حبّا لم يندرس أثره رغم السّهام المسمومة ترشق شرايين الفؤاد. إيه، إنّ أياديَهم في تكوين شخصي، وتقويم عودي، أكبر من أيّ كتاب قرأته في مدرستي، وأعظم من أيّ برنامج سطّرته وزارة من الوزارات في بلادي... أو غير بلادي.

إي، في مقالات ناصر الدّين ضعف، وفي لغته ركاكة وأخطاءٌ كثيرة، لا أخفي أنّي صحّحت بعضها. ولكنّ ناصر الدّين عظيم في ثباته، عظيم في جهاده. إنّه بمثابة شجرة السّنديان لا تهزّها الرّيح؛ إنّه عظيم في حبّه الصّادق ووفائه؛ وإن كان متواضع الهيئة فقد كان نفيس الجوهر. هذا ما أحببت أن أفضي به لكلّ من خدش سمعي باستهزائه وامتنانه على هذا الشّعب، لمَّا لا يدَ لَهُ عَليه بالمرّة!

قد رأيت بين ظهرانيه نسّاكا شَرَوْوا حَياتَهم الله وكتابه لسانا وشرعا بينما كان أخلق بهم أن يغدوا كالبَهْم مشرّدين في البراري لا راعي لهم... ولا يكُونَنَّ حكمكم على ناصر الدّين قاسيا كلّ القساوة، بل انظروا إلى الغلام نظرة عطف وتفهّم وتقمّصوا وضعه ثمّ تخيّلوا أنفسكم تقفون وسط منحدر هاوٍ، يمسك كلّ منكم فوق رأسه حجرا ضخما بكلتا يديه، وزنه أثقل من وزنه، يكاد يسحقه ولا يتيسّر له وضعه فَينضبُ العرق من كلّ سُمّ من جسمه ولا يطيق اللّهاث. ويدوم العذاب ساعات، بل أسابيع وشهورا وسنوات، حتّى إذا انسلخ القرن حطّه أخيرا وانكفأ إلى حياته يستأنفها كأنْ شيءٌ لم يكن. ولكن، هل بُعث فتية الكهف كأنْ شيءٌ لم يكن فعلا، أم هل يُعقل أن ينفُذ ابن آدم من تجربة هائلة كما سالف عهده معافىً سليما لا يُشوّهه من سالف معاناته أثر؟... إي ما كان ناصر الدّين أديبا كالزَّيَّات، ولكن، هل أتيحت له الفرصة فيبلغ شأوه في غياب الأستاذ الّذي يمسك بيده ويعلّمه القوافي؟ غاب لمّا ضاق بالفرنسيّين ذرعا وهاجر إليكم أنتم الّذين تتهكّمون بنا في أحايين كثيرة...

أتوكم ببصيرة من الجزائر، جزائر الرّستميّين والحمّاديّين فنفخوا فيكم من نفَس العلماء، وأنهضوكم من غفوة طالت عليكم تتلفّعُكم. أبغي أن تذكروا الطّاهر الجَزائريّ الوغليسيّ أبا النّهضة العربيّة الإسلاميّة بسوريا والأمير عبد القادر الجزائريّ!

إن لم يكن ناصر الدّين قدوة لكم في الأدب، فلعلّه يكون قدوة لكم في النّضال والحبّ الصّادق والثّبات لهزّات الدّهر. وإنّي أهاب بك أخي الّذي ستقرأ نصوص ناصر الدّين، أن تمسك برفق عن السّخرية من بساطتها، فلعلّك كنتَ مضرِبَهُ من الضّائعين!...

أما قال الأمير عبد القادر الجزائريّ: "[...] كنت لكثرة ما أشعر بأهميّة الاحتفاظ بالعلم، أعفو مرّات كثيرة عن طلبة كانوا أجدر بالموت.! يجب زمن طويل حتّى يصير المرء عالما حقًّا في بلادنا، لذلك ما كنت أجرؤ هدم ثمرة عمل بهذا الحجم في يوم واحد! بإمكان ساكن القصر تحطيم النّخلة الّتي تزعجه، ولكن، كم سنة ينبغي له أن ينتظر قبل أن يحصل على ثمرة اللِّينة الّتي يعوّضها بها؟!"

ويستوحي ناصر الدّين من "الرّسالة" إلهامه، ومن صفحاتها يستنسخ تماثيله الّتي يبثّها أفكاره فتضرب الأهداب حيّةً. وينتعش ناصر الدّين بهذا الأدب الرّفيع الّذي تهديه إليه المجلّة الوضّاءة من أرض بعيدة يحنُّ إليها الفؤاد، وتنبض جوانحه بكلماتها العذبة فصيحة رنّانة. وإذا بالحرفة تستهويه، ويشاء لو يُضحي إلْفاً لتلك الأوراق، يُتاح له ركن فيها

فيملأ بعض بياضها بحبره بعد أن عمَّرها سنين بوفائه، يشرب سطورها شربا.

ويعود ناصر الدّين إلى الكرّاسة السّوداء هديّة فاطمة جدّته، وحيثما وُجِد، وليكن في القرْقُور، أكبَّ على جِلدها النّاعم يرسم بين خاناتها الصّغيرة صُوَراً من محيطه الطّبيعيّ. وشيئا فشيئا، يستمتع بصِفَتِهِ الجديدة، ويروح شخصه مفتَتِناً بشخصيّة الأديب الّتي إليها يستشرف، يتمثّلها تبسم له بين السّتائر الّتي تتراقص للنّسيم إذْ يداعبها، تنظر إليه مناغِية، متدلّلة في غنج، تدعوه بإشارة من كفّها أن إيتِ!

ويشعر ناصر الدّين بأنّ ساعده اشتدّ قليلا، فيشرع يتفلسف وينشئ نظريّات، ويشرح على ورقات كرّاسته السّوداء رؤاه ومفاهيمه للحياة والأشياء.

أصدقكم أنّه يصعب عليّ أحيانا اتّباع الشّيخ ناصر في تأمّلاته، وتبدو لي أفكاره في فترات كثيرة مبهمة لا تلمس أناملي فحواها بيسر. ويبدو لي أحيانا أنّ الشّيخ ناصرا يركب فكرته كما يركب البحّار متن زورق، ثمّ إنّ البحر يهيج فجأة ويغلب البحّارَ على أمره كذلك يُغلَب ناصر الدّين على نفسه ويضيع في تفاسيره بين عباب تأمّلاته. ومع ذلك فإنّ قراءة مقالاته لا تخلو من حلاوة وبعض لطف لما فيها من جهد صادق لأجل التّرفّع عن تفاهة تفرضها عليه بيئته وزمنه.

إذا تذكّرتَ، عزيزي القارئ، الحالة الخاصّة الّتي تميّز بها ناصر الدّين السّعيد بن ناصر وأبلغَتْه هذا الشّأو من التّأَدُّب، فإنّك لا شكَ ستستطيبه مثلي.

1999 م.

نصوص ناصر الدّين السّعيد بن ناصر

1- الواجب

قد كان للإنسان الأوّل واجب فرضته عليه غريزته الأولى. تلك الغريزة أو الغرائز الّتي لم (...)[136] بها حتّى وجد نفسه داخل حدود نطاقها، تلك الّتي نمت ونشأت مع خليّته كسائر الحيوان.

إذا، قد (وجَبَ)[137] مطالبُ بإلحاحٍ على الأكل والغذاء بجميع أنواعه، منذ انفصاله عن جسم أمّه ثمّ ترقّى(...)[138] وترقّت معه الألفاظ والتّعبير عن المعاني. ونشأت من جرّاء هذا كلمة الواجب.

إذا، الواجب قد عرفه الإنسان منذ عرف نفسه. وقسمان لهذا الميل الّذي يعمل داخل معمله: واجب نحو النّفس. ومن هذا الواجب الّذي

---

[136] كلمة مطموسة.

[137] الحرف الأخير من الكلمة مطموس.

[138] كلمة مطموسة.

هو واجب النّفس، نشأت واجبات أخرى تنقسم إلى ثلاث نُقَط رئيسيّة.

ـ الأولى: الواجب الحتميّ، ذلك الّذي نِيطَ بعهدته بغير شعور حسّيّ واختيار له. ذلك ما يسمّيه البيولوجيّون بالأميال الطّبيعيّة كالدّفاع عن النّفس والخوف من الأذى. ذلك ينشأ مع الإنسان بل وسائر الحيوان، من مهده إلى لحده. مثل ذلك تقرّب إصبعك إلى الطّفل الّذي ولد ببضعة أيّام، نحو عينه فيغمضها وتلك غريزة نشأت مع الرّضاعة. وشمّ الهواء الّذي لا حياة بغيره. هذا هو الواجب الّذي اندرج مع الوظيفة[139]، تلك الّتي هي لا شيء وكلّ شيء كالنّقطة الهندسيّة.

ـ الثّانية: الواجب الاكتسابيّ، هذا بعينه ومينه[140] الّذي ميّز الإنسان عن الحيوان، ورفع الإنسان وصيّره أهلا للحضارة والرّقيّ وكفؤا لتلقّي الأوامر السّماويّة. وبالجملة، هو ما اكتسبه الإنسان بواسع إدراكه وانفتاق ذهنه، وغزارة اطّلاعه على جميع الأسباب الّتي هي جزء منه أو هو جزء منها. وينقسم إلى فروع شتّى وخوفَ الإطالة والخروج عن الموضوع نذكر منها ثلاثة:

1- واجب نحو النّفس: هو أن تحترم نفسك بما في الاحترام من معان، وبما في معرفة النّفس من أشكال، بما ظهر منها وبطن. وتعلم أنّ

---

[139] أو هي الوضيعة؟

[140] كذا.

النّفس نوعان: حيوانيّة توجب عليك القيام بوسائل تنميّتها، من إيجاد غذاء وتَهْيِيءِ شَهْوة. هي الّتي عبّر عنها سبحانه تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾.

والقيام بأخرى وهي الملائكيّة البحتة. وهي الّتي تفرّغ منها العقل الّذي يردع الأولى فيسوقها إلى جادّة الصّواب. وهي أيضا توجب عليك إعداد الوقت للصّعود إلى عالمها اللاّنهائيّ، ذلك الّذي تصير فيه شعلة من نور الرّحمان، تخبر فيه الملأ الأعلى بأخبار الزّمن. والرّوح الّذي هو رمزها وذرّتها يطلبك بغذاء كاد أن يكون حسّيّا بالنّسبة لما تقدّم، وهو إشباع نهمها بالعلوم والمعارف والتّمتّع بالجمال والتّنزّه بالأصوات وهلمّ جرّا. وهي المقصود فيما خاطبها بها الرّحمان جلّ جلاله بقوله: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾.

2- واجب نحو المجتمع: هلمّ معي أيّها القارئ لندخل بوّابة علم الاجتماع. قد علمت أنّك منذ كنت جنينا في بطن أمّك، صرت توّا عضوا في جسم المجتمع كما كان غيرك. وإذا اتّضح لك جيّدا أنّك عضو في هذا الجسم العظيم، وجب عليك حقوق وواجبات، وله عليك سلطة أدبيّة، وهو مثلا يمنعك عن الانتحار مخافة إفقاد عضو في جسمه ويمنعك عن الامتناع عن الزّواج مخافة أن يفقد ذرّيّته في هيكله، ويمنعك عن القتل مخافة إفلال بنيانه، ولذلك، سمّي إصلاح ذات البين

فضيلة، والقيام بأمور الصّحّة كالطّبيب إنسانيّة، والأوامر والنّواهي كثير في كتب الأديان والشّرائع.

3- الواجب الأدبيّ، والأدب المراد به الآنَ هو نفسه من نواة القوانين الاجتماعيّة والأدب والاجتماع. يستقلّ به الإنسان عن الحيوان، ولو لا هذا لما كان فرق بين الإنسان والحيوان. والإنسان كما لا يخفى كان حيوانا في الأصل.

والأدبيّة هي السّلطة الثّالثة بعد الدّينيّة والمدنيّة. فالأولى تنهى عن الرّذائل وتعد المخالف بالعذاب الآجل في الآخرة؛ والثّانية تعاقب المخالف في الحاضر بما أعدّته لذلك من لوازم؛ والثّالثة، وهي الأدبيّة، تلك الّتي لا تفارق الإنسان إذا غدا أو راح، وهي المرتكزة فيه، وتسمّى بالإدارة الأدبيّة أو الضّمير الّذي يؤنّب النّفس عند اقترافها ذنبا أو اعتدائها على حقّ من الحقوق المنهيّ عنها. وهو الّذي يفضحك عند اقترافك ذنب السّرقة مثلا وتحاول أن تكذب لتفلت من يدي الشّرطيّ فينبري آنذاك بقوله: "ـ لا تكذب! إنّك سرقت!"فيأتيك الشّرطيّ من قِبله يهدّدك بالعقاب العظيم في يوم الدّين. بهذا كاد أن يكون الإنسان ملَكا كثيفا في الأرض أمّه.

4- الواجب العمليّ: هو أن تؤمن بنفسك إلى حدّ التّقديس، وتعلم أنّك خلاصة هذا العالم الكثيف، وأنّك الزّبدة الخارجة من فرث ودم، وتقرأ من نفسك أسرار الكون وعجائب صانعها جلّت قدرته، وفي جسمنا وحده نجد مثال القوّة الّتي يدرك كنهها عقول الخليقة منذ فجر التّاريخ

حتّى اليوم مهما بحث عالم واكتشف فلكيّ. وما المادّة إلاّ قاعدة من قواعده والطّبيعة يد من أياديه.

وأنجع دواء للإيمان بالخالق، عزّ وجلّ، ثمّ النّفس هي الحُرِّيّة. أو بالمعنى الأوسع: الإرادة. وهي أوّلا حرّيّة الفكر ثمّ حرّيّة الحياة بما في الحياة من معان شتّى. وقال الكواكبي: "لو جازت عبادة غير الله لعبد النّاس الإرادة."

الحرّيّة هي الفتاة البارعة الجمال الّتي هام (بحبّها)[141] الغرب زمنا طويلا وهي آنذاك كانت تتمتّع تحت سماء الشّرق الجميل وما لبثت أن غابت مع تعاليم الإسلام واكتسحت بلاط لويس الرّابع وهنري الخامس ومزّقت أروقتهم، وظلّ الغرب يتمتّع بها إلى الآن. وهل ترجع إلينا عشيقتنا الّتي كدنا أن نموت وجْدا بغرامها؟ فهل تنادونها من بعيد كما ناداها قبلنا فُولْتير وفِيكتور هوجو فتنتقل إلينا باسمة الثّغر، عاطرة الرّائحة؟

ذلك ما ندعو إليه بني جلدتنا الشّرقيّين أن يبذلوا كلّ عزيز للحصول عليها فإن بلغناها فتلك غاية لا مزيد فيها لمستزيد.

---

[141] ساقطة في الأصل.

2- الحرّيّة[142]

الحرّيّة كلمة ضخمة، كثيرة المعاني، جليلة الأثر، عظيمة القدر في كلّ زمان ومكان، وكلمة حلوة للغاية إن لم يخطئني التّوفيق. بل هي صخرة يصطدم فيها كلّ قلم أراد أن يكتب. يمسّ أطرافها ثمّ، إذا حاول الخوض في أعماقها، يجدها بحرا متلاطمة أمواجه، شديدة لججه، فهي الدّأماء[143] الّتي لا تقطع بالأرماث[144]. ولسنا نرمي الآن أنّه لا يستطيع أيّ كان أن يعرفها. بل لها سبل مطروقة ومذاهب العلماء والمفكّرين فيها معروفة. وإنّما نريد أن نعطيك فيما يلي رأينا منها وما عرفناه عليها إن لم نحطّم أرماثنا في دأمائها، لأنّها هي أيضا لا تبالي من أحد سوى إلى القويّ ذي البوارج الضّخمة، والغوّاصات المتينة. وقبل أن نخوض في المسألة نسألك:

ـ هل أنت حرّ؟

فتقول:

ـ نحن بحكم الخلقة لسنا بأحرار!

---

[142] نظرا لأهمّيّة ما يصرّح به ناصر الدّين في هذه المقالة، وللتّاريخ المسجّل على مقدّمة الكرّاسة (27 أكتوبر 1945م)، نتصوّر أنّه ألّفها بعد مجازر الثّامن مايو 1945م، الّتي حدثت بقالمة وسطيف وخرّاطة.

[143] البحر.

[144] جمع رَمَث وهو العامَةُ.

نعم، كذلك، لأنّ لنا بواعث وأخلاقا ترغمنا على ما لا نريده. هب أنّك كنت موظّفا في إحدى إدارات الحكومة، وكان الأهل في منأًى عنك، فتكون لك إجازة طولها مثلا عشرة أيّام. فإذا ما انقضت تلك المدّة وأنت لا زلت لك رغبة في متعة الأهل. ولكن بحكم الصّروف والقدر، تذهب حينا لأنّ مناط ذلك الحصولُ على الرّزق والقوت فتذهب رغم إرادتك. وبهذا إذاً يتّضح لك أنّك لست بِحُرّ بل مسيّر لا مخيّر في أعمالك، ورهن المقادير والظّروف. فإذا كانت عليك حقوق يلزم أداؤها نُزعت منك الحرّيّة. والواجب والحرّيّة ضدّان لا يجتمعان إلاّ نادرا ولذلك صاحب الواجب يشكر له الواجب إيجابيّا لا سلبيّا. ومن انسلخ من الواجبات لا يُسمَّى حرّا بل يسمّى فوضويّا، لا يردعه قانون وضعيّ أو سماويّ ولا الأدبيّة الإنسانيّة، لأنّ الإنسان بذكائه ينأى عن العواقب فهو لا يقتل لأنّه يعلم جزاء القاتل القتل، أو بالأحرى العقاب الآجل، فهو لا يكذب لأنّه يعلم بعاقبة الكذب الفضيحة أو الطّرد من رحمة الله. وهكذا أو بهذا يتميّز الإنسان عن الحيوان بأنْ له عقل، والعقل والمعرفة جناية على المعرفة لأنّ العقل والمعرفة يلزمان عليك الأفضل والأفضل كلّ لا يتجزّأ.

الآن قد أدركنا جيّدا أن لا حرّيّة؛ أو بالأحرى حرّيّة محدودة. ولكن، حينما كان لنا عقل وضمير وإرادة، كانت لنا حرّيّة أدبيّة. ونحن

أحرار في اختيار الأفضل، أحرار في اختيار (المرّ)[145] على السّكّر والدّماثة على الخشونة، والعلم على الجهل، والرّزانة على الطّيش وهلمّ جرّا... أحرار في التّسلّط على الخلق والغرائز البهيميّة، والتّغلّب على العواطف والانفعالات، وتعويضها بالتّعقّل والضّمير وحسن السّلوك. فلا سبيل لقانون أن يمنعك عن الاتّصاف بهذه الخلال ونحن في كلّ هذا أحرار.

إذا كنت حرّا أدبيّا، كانت لك مسؤوليّة عن أفعالك وتصرّفك. وفهمت أنّك عضو في الهيئة الاجتماعيّة. والواعظ المرشد والضّمير الحقّ فإنّه يقول لك (لماذا) أو (لأيّ شيء كذا)؟

فهو يقول لك: (لماذا خنقت حرّيّة غيرك بالتّسلّط على اقتصاديّاته وحقّه في الارتزاق؟) ويجتاز إلى ما فوق ذلك من تعطيل مواهبه أو بالأحرى استعماره لمنافعك والتّجبّر على أفكاره ومعتقده ومنازعته في أمواله الطّبيعيّة كاجتياح وطنه، والتّصرّف في شؤونه، وادّعاء الامتياز على عنصره، وهذا كلّه ممّا تمقته الإنسانيّة، ويقشعرّ منه الضّمير ويحرّمه الحقّ وتمنعه العدالة ويؤدّي إلى انهيار جسم المجتمع وإفساد العلاقة بين الأفراد وعاقبة هذا كلّه إخلال الكيان، وتقويض العمران، وهذا كلّه لا لحاجة منطقيّة معقولة سوى أنّني وأنّك ضعيفان. فإذا كان هذا مذهبك أيّها الإنسان، فلماذا تتبجّح بغير حياء وتجمل بالكلمات المعسولة كحماية

---

[145] في الأصل: الصّحو.

الإنسانيّة وحفظ الأمن والعدالة وتفتخر لمن يجهلونك بكلمة "التّمدين" وحفظ الصّحّة العموميّة، بتوفير وسائل هدمها، بما أسّست من حانات للخمور وبما شيّدت للبغي من القصور وبما نشرته بين الشّبّان من التّخنّث والفتور.

ولكنّ الحرّيّة، في نظر الاستعمار، شبح رهيب، ترتعد من هوله فرائصه، وخطب لأواء[146] تنزعج من رؤيته مقلتاه، وهي في نظره وحش ضارٍ يهدّد كيانه بالفناء وسعادته بالشّقاء وحياته بالموت ووجوده بالاضمحلال.

إذا، فَعَلى الضّعيف الّذي نزعت منه هذه المتعة أن يأخذها فلا ينتظر إعطاءها، بمقاومة المِثل بالمِثل، بمقاومة العلم بالعلم، والدّهاء بالدّهاء والسّياسة بمثلها ثمّ بالقوّة أخيرا.

فالآن، كما يلوح للقارئ، قد انتهينا من تحليل الحرّيّة وتفنيدها، ونريد الانتقال به من البحث إلى قضيّة من قضايانا اليومَ. بِوُدِّنا لو أخلصنا للبحث الّذي يبتعد عن السّياسة ومشاكلها، والإدارة ومقاصدها، والغطرسة ومصارعها، ولكنّه قد مرّ بنا آنفا أنّ الحرّيّة لِمَنْ عليه واجبٌ.

[146] مصيبة عظيمة وهول.

إذا، فنحن موجبون ـ نحن معشر أهالي شمالي إفريقيا ـ أن يُنهى بحثنا من أيّ (علم أَوْفَى)[147] كان، إلى نقطة سوداء: النّقطة الّتي تزعج أفكارنا، وتُنضب معارفنا، وتبلبل عقولنا ومواهبنا، ألا وهي الحرّيّة السّياسيّة الّتي لا حياة سعيدة بدونها، ولا عيش هنيء بغيرها، ولا نعمة في ملذّات الحياة بفقدانها. ولذا فَمَنْ يرانا في صراع دائم، ونكبات متوالية، يرانا في نار متأجّجة تحرق آمالنا في أعماق قلوبنا المنكوبة، ويرى من بعيد تلك العواصف الجنوبيّة تسطو على بساط أحلامنا، تحطّمها وتتركها قاعا صفصفا لا حياة فيها أو شيء يدلّ عليها.

اللّهمّ إنّا نسألك اللّطف والمغفرة ونسألك الشّفاء والعافية إنّك سميع قريب.

3– النّار الموقدة[148]

في يوم من أيّام الشّتاء الّتي توغّل فيها البرد، أي في جانفي، انبثق في روح فتى حبٌّ يكاد يرفعه إلى ما فوق السّماك الأعزل. وطارت روحه الطّاهرة إلى أوج حبّ في سماء الفكر البشريّ، في فتاة من أحد أفراد جيرانه الّذين لا يعرفون معنى الحياة، إلاّ ما تقتضيه الغريزة الحيوانيّة.

بيد (أنّ) تلك لم تكن في نظره أوّل الأمر.وبينما هو يجني من ثمار حبّها الرّنّان، ويشمّ أحيانا من عبيرها المسكيّ الطّيّب، وقد انتقمت منه

[147] كذا في الأصل.

[148] استعرتُ هذا العنوان عن مجلّة "الرّسالة".

المقادير القاسية بإقبال أحد المتزوّجين عليها، وكان ذلك ممنوعا عليه لارتباطه بتقاليد الأسرة الّتي منعته من الزّواج إيّاها.

الله ما أقسى المقادير!

وبينما هو ذات يوم، ذهب إلى حجرة نومه حيث السّتائر والموائد وسريره في الجهة الجنوبيّة، مستقبل نحو النّافذة، فإذا هي فاجأته بالدّخول وهو في لباس النّوم فلاغته بلطف وقالت:

ـ ما أَوْثَرَ فراشك وسريرك هذا!

الشّابّ: ـ نعم، جميل، ولكنّه تعوزه حاجة يسيرة بل كبيرة في أهمّيّتها.

وأطرقت تفكّر هنيهة، وأجابته بلطف، بابتسامة تكاد تحرق قلب ذلك الفتى البائس:

ـ أجل، يعوزه ذلك ولكنّ الأمر يسير بعد مضيّ سوائع!...

فخرجت والأسى يطويه وينشره من هذه الفتاة اللّعوب الطّروب. ففكّر هنيهة في أمره ثمّ حمل رواية غراميّة أهداها إليه صديقه، فتصفّحها بعشق وشوق ولأنّها تنطبق على ما في قلبه من أمور وأبحاث. وبينما هو في الورقة الأخيرة من الرّواية، فإذا الباب يُدقّ بلطف. وقال بلهفة:

ـ من هذا؟

وقالت:

ـ قلْ: من هذه؟

وهو يفكّر ويقول:

ـ ياعجبا من هذه الفتاة الّتي ترعرعت في البادية وتعرف أهمَّ أركان الأدب!

يأذن بالدّخول. تدخل بابتسامتها المعروفة الّتي طالما ينتظرها من فمها الدّقيق. فأطرق ينظر إليها بعينيه الذّابلتين، بنظرة تنمّ عن غباوة حِيال هذه العبيلة الّتي ملأت فضاء حرّيّته بهاء وجمالا، وهو يحترمها كأنّها أستاذه الّذي غادره في المدرسة منذ أعوام.

فبدأ (...)[149] بقولها حيث قالت:

ـ هيّا نملأ هذا السّرير حبّا وحنانا، ونملأ أحواف هذه الحجرة شفقة ورحمة كما ملأها أَبوانا آدم وحوّاء بعد هبوطهما من الجنّة إلى أرض بابل.

وقال الشّابُّ:

ـ يا حبيبتي. هل رأيت تلك الصّورة الصّادقة لنا: أبوينا الأوّلين؟ لأنّ أبانا آدم قد اختار العيش الشّظِف بحرق الجبين في جوار حوّاء خير من الجنّة الجميلة الّتي تشوبها سعادة أبديّة.

فقضيا أمنيتهما في تلك اللّيلة وعندما بدأ ضوء النّهار يبدّد ظلام اللّيل، فقاما وتوادع العاشقان وتضامّا بسواعدهما كأنّها أقطاب من فولاذ لأنّ الوقت قد حان لركوبها إلى حيث تزوّجت. فأقبلت خارجة وهو ينظر إليها بعينين مبلّلتين بدموع الحبّ والغرام ويُنشد قول الخيّام:

---

[149] كلمة غير مفهومة.

نار الهوى تمنع طيب المنام　　وراحة النّفس ولذّ الطّعام
وفاتر الحبّ ضعيف اللّظى　　منطفئ الشّعلة حافي الضّرام

تساقط على الفراش الّذي سلبته يد الأقدار كأنّه جثّة هامدة في زاوية من أحد شوارع قسنطينة، ويحلم بأيّام تكاد تكون فجرا ممتازا في أعماق حبّه الرّنّان.

وفي الصّباح التّالي، خرج خلف بيته حيث الحقول والمروج وأقطاع الغنم والبقر سائرة في تبختر، والرّاعي ينشد وهو يغنّي أغانيه البلديّة المعروفة، وفي حماه طمأنينة وسلام. وبينما برهة، خرج أحد جيرانه فسأله:

ـ لماذا أراك مصفرّ اللّون، شاحب الوجنتين؟ هل أنت مريض؟

وهو يحرص حرصا شديدا على خفاء مكنون سرّه، فقال:

ـ نعم، مريض هذه الأيّام بِالرّيح.[150]

ثمّ سأله مرّة أخرى فقال:

ـ هل ذهب مركب العروس الفلانيّ؟

وهو قد احمرّت عيناه لذكر هذا الكلام، وتغيّر لونه، وعيناه تنظران بذهول، تدلاّن على التّفكير العميق وقال:

ـ لا أدري يا أخي لأنّني كنت ملتزما الفراش.

---

[150] بالزّكام.

ثمّ صارت الدّنيا أمام عينيه سوداء، حتّى حياته كلّها أحلام في أحلام.

يا معشر الشّباب؟ هل رأيتم هذه القصّة الرّوائيّة الّتي افتضحت فيها عيوبكم الأخلاقيّة الّتي تقودكم إلى المرض في الأخلاق والصّحّة والدّين والآداب الاجتماعيّة، وأخيرا يكون المرء عضوا أشلا في جسم المجتمع الإنسانيّ؟

إذا، قد اقتضى الواجب والمناسبة أن نفنّد هذه القصّة تفنيدا علميّا، بيد أنّ الإنسان له نزعات فطريّة ونفس تصبو دائما إلى خبائث الأعمال، وهذه النّزعات ثلاث:

الأولى: الجوع، وهو قد يكون الحيّ مرغما على الأكل وليس عليه للعقل سلطة عليه. فإذا ردع العقلُ غريزة الأكل، تقضي بفقدان الحيويّة ثمّ إلى الموت. ولأجل ذلك، فلا قانون وضعيّ أو دينيّ يحرّم الأكل بتاتا.

والثّانية: التّبرّز، وذلك أيضا لا يستطيع الإنسان أو الحيوان أن يأكل ولا يتبرّز. ماذا أفضى بالحيّ إلى عدم التّبرّز فإنّه لا يستطيع أن يحيا فوق أربعة أو خمسة أيّام.

والثّالثة: هي التّناسل الّتي هي نحن بصددها. هي الغريزة الهامّة الّتي ابتنت عليها دعائم الكون الّتي هي نراها من الوجهة الطّبيعيّة، أن لا حياة سعيدة لذيذة لكلّ حيّ متحرّك حسّاس، وكما أن لا حياة للنّبات بدون تناسل طبيعيّ.

ولكن، قد اقتضت حكمة مبدع الكون، بأن جعل للعقل سلطة على هذه الغريزة، وخصّص الإنسان بهذا العقل الّذي هو غريزة في الإنسان الّذي له شعور، لأنّ الحيوان خالٍ من الشّعور، وهو الدّرجة العُليا من الإنسان، بمقتضى سنّة التّطوّر في كلّ شيء.

4- الرّاعية (قصّة)

كان أحمد معروفا في قرية من قرى الرّيف؛ يتمتّع بعيش هنيء وحياة سعيدة وعلى جانب وافر من الفضل والسّمعة الطّيّبة عند جميع جيرانه، وشريف بحرفته الإسكافيّة، ويتمتّع كذلك بعطف زوجته الجميلة، وحرصها على السّعادة على قدر ما تستطيع إلى ذلك سبيلا.

فكانت تنسيه بابتسامتها العذبة مشقّة العمل، وضنى التّعب وتخفّف عليه آلام الدّهر، وكروب الزّمان بقبلة المساء، عندما يقدم إلى داره وقد بدت على وجهه أحرف من الكآبة.

وفي هذا الجوّ الصّافي من الحبّ الطّاهر، وهذا الفراش الّذي تناثرت عليه الفضيلة والعطف والرّحمة، رُزقا مولودة صغيرة سميّاها "حسيبة". هذا الاسم الّذي ترك في قلبه فراغا لم يُسدَّ، منذ فَقَد أمّه ببضعة أعوام، فأراد أن يخلّد ذكرها في ذاكرته، فيحلم، عند ذكره، بذلك الحنوّ الّذي تمتّع به في أيّام الصِّبا والشَّباب، فيعيد إلى قلبه صفحة رائعة من ذكريات الصّبا ووداعة الطّفولة.

وتربّت حسيبة تربيّة لائقة بجمالها الّذي أصبح حديث العامّ والخاصّ، ورزقتها بيئة الجبل الباردة، بصورة بارعة الحسن والجمال، وشَعر ذهبيّ تتموّج طيّاته أمام الشّمس وجادت عليها الوراثة بعينين سوداوين كأعين الغزال ورشاقة قدٍّ قد تدلّ على تكوين بديع.

ونشأ معها ابنُ عمّها "سليم"، فكانا يقودان معا الماشية للسّرْح بها في قمّة الجبل، الّذي رزقته الطّبيعة بربيع دائم، فيقابلان معا ابتسامات الصّباح، وتردّدت الشّمس بأعمدتها الذّهبيّة على الأفق، وينشدان مع الأطيار في الأغصان الأغاني الشّجيّة، ويتسابقان في تقليد العندليب في تراتيله المتنوّعة.

فكلّما لدغتهما الشّمس بأشعّتها الحارّة، هرعا إلى شجرة الصّنوبر يستظلاّن بظلّها، ويفترشان من قشّها فراشا ولا أسرَّةَ الملوك في قصورها، يسدل عليهما النّوم الهنيء ستارا لذيذا، ينامان جنبا لجنب، تظلّلهما الرّحمة الإلهيّة بعنايتها، وتبدو على وجهيهما أحلام الرّضى والسّعادة تنعكس في منظرهما صفحة رائعة من الجمال، وتنطبع في رسمهما صُور ضاحكة من السّذاجة والوداعة. فتقوم حسيبة من نومها مزعِجة وقد ارتسمت على وجهها علامة الاهتمام والجدّ فتنادي رفيقها بشيء من اللّطف:

- سليم!... سليم!...

يقوم سليم متكاسلا، تعلو وجهه ابتسامة رقيقة، فيحدّق بعينيه الجميلتين إلى حسيبة:

ـ ماذا... ماذا، هل سطا الذّئب على بعض أشياهنا؟

حسيبة: ـ لا أدري على واحدة أو على جميعها. فمنذ جئنا هذه الشّجرة، ما رأيت لها أثرا!

سليم (لا يزال النّوم يلعب بعينيه فيقول ببلاهة):

ـ وكيف وهل نحن نائمان؟...

حسيبة: ـ نعم نائمان ولكن لا أدري قليلا أو كثيرا.

سليم يرفع عينيه إلى السّماء فيرى الشّمس قد أذنت بالغروب فيهبّ من غفوته فيخاطب رفيقته بقلق:

ـ ماذا بنا نحن الآن؟ والله إنّ أشياهنا ما وُجدت هنا واحدة، وإنّ الشّمس قد أوشكت على الغروب، وإنّ الذّئب لا شكّ أنّه قد فعل فينا فعله!

يقومان بجدّ وقد نفضا عن أنفسهما الكلل والكسل فيفترقان لكلّ واحد جهته، وبعد برهة، يلتقيان في مرج وسط الجبل، فيجدان أشياههما وقد توسّما خيفة ملتفّين بعضهما ببعض، فيصيح سليم صيحة فرح شديد:

ـ والله إنّ أغنامنا قد نجت وسلمت، فهاهي ذي تنتظرنا!

فتجيبه حسيبة بصوتها الرّخيم:

ـ نعم، نجت يا حبيبي ولكن بدوننا والحمد لله!

يقودانها مُتَقاسِمَيْنِها ميمنة وميسرة بمهارة تضاهي مهارة رؤساء الجيوش في ميدان الوغى. فيقدمان في المساء فرحين مسرورين راضيين بعيشتهما

ومقتنعين بسعادتهما. فيضحكان للأيّام، والأيّام تضحك لهما، لا يشكوان من تعبهما ولا يئنّان بمشاقّها. لا دروس تُكِلُّ ذهنهما، ولا امتحانات تُقِلُّ من عزمهما، ولا أعين بشريّة ترمقهما بنظرات المكر والخداع فتصيبهما (عين الكمال)[151].

فهما يجتمعان في اللّيل عند أبويْهما وأمّيْهما فيعيدان ما جرى لهما في يومهما، بلسان فصيح لا تخالطه دخائل اللّغات، ولا مضغ الكلام، وتارة يلحّان في الاقتراح على إحدى أمَّيْهما تحكي لهما قصّة، فيشرئبّان إلى سماعها بشغف عظيم، فكلّما وصف لهما منظر وَعَياه بأفكارهما الصّافية فيناما على إثر ذلك.

فهما يحلمان بتلك المناظر الخلاّبة الّتي تتجسّم في أدمغتهما الغضّة.

وتارة يجتمعان في أحد بيوت الجيران فيُحْيِيان حفلات موسيقيّة، بالأغاني القرويّة الجميلة، فيتطوّع البعض للرّقص، فتنطلق الحناجر الّتي لم تؤثّر فيها الخَمْرة ولا حشيشة الكُوكاوِينْ، بأصوات رخيمة. يفترقون بتحيّات اللّيالي إلى مضاجعهم.

يا لها من سعادة لا يحلم بها ذوو الدّور الفخمة في المدن، ولا الملوك ذوو القصور العالية على شواطئ البحر، لولم يغيّرها الدّهر الّذي يتربّص الدّوائر بحسيبة، ليسلب سعادتها ويرميها في أعماق البحر.

---

[151] ربّما يقصد أنّ عين الله هي الّتي تصيبهما فتحفظهما بدل عين الحسود.

وهكذا فقد ظهرت على حسيبة علامة الأنوثة، وتبسّمت على وجنتيها الحمراوين مخايل الشّباب. وكان لأمّ حسيبة أخ يسكن المدينة، وهو موظّف في إحدى شركات التْرامْ، وقدِم ذات يوم لزيارة أخته، فوقعت في عينه بنت أخته، وهو يرى فيها كأنّها قطعة من العاج، مهندمة على شكل دمية تسلب العقول، أو زهرة الياسمين افتتحت أكمامها.

فرغب أن تكون عروسته[152]، وبتلك المناسبة نفسها، طلبها من أمّها فردّت الأمر إلى أبيها. فكرَّ راجعا تلك المرّة وبمجرّد وصوله إلى الدّار، راسل أباها يطلبها منه لابنه الّذي حمل شهادة الباكالوريا، في جامعة العاصمة، وعلى مضضٍ قَبِله لأنّه لا يستطيع أن يرفض صهره في خطبته.

وكلّ هذا قد جرى فلم تَدْرِ حسيبة ما ينتظرها من تحطيم آمالها وتغيير مألوفها، فلم تدر حتّى وجدت نفسها تحت قوانين صارمة تمنعها من الخروج أو مقابلة بعض الجيران، ومن آونة لأخرى، تسمع همسات سرّيّة مع أمّها وبعض النّساء على عادتهنّ.

ورغم هذا، ولا زالت تظفر برؤية ابن عمّها سليم، ولكنّ سليما قد علم بالأمر، وصار يهرب في وجهها، حفظا للمروءة وتأليفا لنفسه على فراقها، حتّى لا يترك فيه أثرا سيّئا إن لم يكن جنونا.

---

[152] كنّته.

وفي صباح رائق، في يوم من أيّام الرّبيع، رصّت في الطّريق العموميّة سيّارة فخمة من الطّراز الحديث، وهرول الشّيخ معروف لملاقاة ركّابها، وأمر زوجته في الحين لتعدّ لهم حجرة مؤثّثة مناسبة، وأمر أحد جيرانه بذبح خروف سمين، وبدأت النّساء يجتمعن لمساعدة أمّها في إعداد الطّعام للضّيوف. وفي اللّيل، اجتمع على الضّيوف شيوخ القرية وأعيانها ليشرع المفتي في الخطبة ودفع الصّداق.

وأمّا حسيبة، وقد جابهت الأعمال الشّاقّة في تلك اللّيلة، وتضاعف نشاطها عندما رأت أمّها منهمكة في الأشغال. ولكنّ حسيبة قد تسأل نفسها عندما ترى بعض النّساء يغمزن عليها، ويضحكن سرّا، وقد استعجبن[153] في نشاط حسيبة على غير العادة.

وعندما انتهى الضّيوف من الأكل والشّرب، اجتمعت النّساء للغناء على العادة السّائرة، وقد تزايد شغفها في ذلك الموقف، وتضاعفت الأسئلة الحرجة على نفسها:

ـ ماذا؟... هل هذه حفلة تزويج أخي؟

ولكنّ جرس الحقيقة يرنّ في أذنها فيقول:

ـ زواجك أنت!

فتقاطع هذه الشّاردة:

ـ يا لطيف!

---

[153] من أثر العامّيّة الجزائريّة.

وثمّ تحرجها نفسها:

ـ إذا وكيف السّبب؟

وتكِلُّ نفسها من أمواج الأفكار والتّأَمّلات، يفاجئهم خالها بالدّخول، وتقوم تسلّم على رأسه بحياء، فيخاطبها:

ـ هل أنت بخير؟

وتكتفي بقولها:

ـ في أمان الله!

وعندما رأت خالها لأوّل وهلة، فهمت الحقيقة المجرّدة، الحقيقة المرّة الّتي تهدّد سعادتها بالشّقاء، وطمأنينتها بالاضطراب وقد كظمت غيظها.

ولكن، عند خروجه، شرعت تترجّم على مكنون قلبها بالبكاء، وهي لا تستطيع أن تقول شيئا في هذا الصّدد، ولكنّ عباراتها تقول:

ـ تبّا للتّقاليد الجافّة الّتي تحرم نعمة الحبّ، وحرّيّة الزّواج! وكيف أذهب لهذا الّذي لا أعرفه ولا أمتّ إليه بصلة روحيّة، ولست أدري ولا أظنّ من يدري سيرة هذا المخلوق المدنيّ إن كان معربدا أو زعفانا[154] أو... أو...

[154] غضوبا، وهو من أثر العامّيّة الجزائريّة.

فلماذا تحرمونني من ابن عمّي الّذي عشت طيلة حياتي (معه)[155]، وعرفته وعرفني ورضيته زوجا ولا شكّ أنّه رضيني زوجه ولم تخطر في باله فتاة غيري ولم يخطر في بالي فتى غيره؟

وهل سوّلت لكم الشّرائع أن تعبثوا بإرادتي؟ أم أنا بضاعة أُباع بالمزايدة في الأسواق؟ أغراكم

هذا بماله ولباسه فألقيتم بي في مأزق حرج، أعاني شقاء طول حياتي؟

ألا تبّا للتّقاليد الجافّة الّتي حرمت المرأة من نعمة الحبّ! لا، من نعمة الحرّيّة، ومن نعمة النّسل القويّ النّجيب، الّذي قرّره العلم. فإنّه لا يكون إلاّ على طريقة الحبّ. ومن أين ومتى ورثتم هذه العادات والتّقاليد الّتي جاء هذا الدّين الّذي نعتنقه لمحوها، من احتقار المرأة وهضم حقوقها البشريّة واحتياز[156]، إلى ما فوق ذلك من احتقار الرّجل الّذي كان حلقة في سلسلة العائلة؟!

وهكذا، وقد نضب معين دموعها، وجفّت مآقيها، واستسلمت للقضاء، ورحّبت بما يكون.

ثمّ افترق الجمع وذهب الكلّ إلى مقرّه، ومضت الأيّام كلُّها تفكيرٌ على مستقبل مجهول.

---

[155] ساقطة في الأصل.

[156] كذا في الأصل وهو من أثر العامّيّة الجزائريّة والبربريّة بخاصّة (حَوْز)، ومعناه: تهميش المرأة.

فهاهو ذا أقبل يوم المعاد برعوده، وأهازيج رياحه وعواصفه الصّارخة الّتي تقلب حياة الفتاة رأسا على عقب، وقد اجتمع النّاس للمرّة الثّانية، وانتظم على الطّريق العموميّة سلك من السّيّارات، وبدت في الطّليعة سيّارة كبيرة أنيقة...

5- مقطوعة[157]

[...] يحرص على الملكات الّتي تكوّن شخصيّة المرء: أن تكون صالحة نافعة، توجّهه إلى الكمال الذّاتيّ، وتسوقه إلى أهداف المثل العليا حتّى يعرف كيف يستغلّ مواهبه ويسير بخطوات سديدة في معترك هذه الحياة. ثمّ يلاقي ربّه أبيض الوجه، نقيّ العرض، سليما من كلّ دناءة أو دنس، أصلح ميوله وعواطفه الإيمانُ وعقيدةُ التّوحيد وعبادةُ ربّه حتّى لا يكون ألعوبة تتقاذفه الأوهام والشّكوك والوساوس في نفسه، في معرض هذا الوجود الطّاغية أمواجُه بكلّ عجيبة وغريبة.

هذا ما يسمّى بإعداد الفرد. فهل هو ـ إن سلمت له هذه النّاحية ـ قد استعدّ أن يعيش سعيدا هادئا خاليا من كلّ روعته وذبذبته؟

ثمّ لمّا أودع الله فيه من غريزة الشّهوة، الدّافعة إلى النّسل، وهو ميل فطريّ في الإنسان يشترك فيه مع الحيوان الأعجم، شرّع له قانون الزّواج. فقد حاطه بسياج من التّرغيب في العدل والإحسان وإرضاء

---

[157] لم نعثر على مستهلّ هذه المقالة فأوراق كثيرة من الكرّاسة ناقصة.

الضّمير والتّمتّع بمحاسن الجمال والتّنفير عن سوء المعاشرة، وإثارة الأحقاد وإهانة الكرامة.

وكلّ من التّرغيب والتّنفير الشّرعيّين يؤدّيان معنى النّزاهة والعفّة والغيرة والحبّ الطّاهر. وبهذا يكوّن المرء عائلة شريفة. وهاهنا يحثّه الشّرع أن ينجب أولادا يبذر في نفوسهم بذور الخير والتّربيّة الصّحيحة ويلقّنهم العقيدة النّقيّة ويعلّمهم الحِرَف النّافعة.

وبهذا يكوّن المرء أسرة شريفة، يبني أساسها على كدّه وسعيه، ثمّ هي رعيّته وهو رئيسها.

وهذا ما يُسمّى إعداد المرء في منزله. وبما في الإنسان من الحاجة إلى غيره من معاشرة أهل جواره، فرض الله عليه واجبات يؤدّيها نحو جماعته.

فالواجبات كثيرة جدّا أهمّها: النّصح والإخلاص فيه، والدّين النّصيحة. فإذا ما رأى جلبابَ عِرض يُهتك، وحِمى حُرمة يُستباح وينتهك، فليستعمل يده في قلعه ودفعه ما وجد إلى ذلك سبيلا. وإلاّ فليرفع بصوته جهرة، فيصرخ صرخة مزعجة في وجه المنكر. وإلاّ فلا أقلّ من أن يغضّ ذلك فيسعى لقلع ذلك في الخفاء، ذلك بما عنده من وسيلة.

2- والثّاني: الوفاء بالعهد. فالجماعة الّتي فقدت هذه الخلّة معرَّضة لخطر سوس الاختلاف. وهي آفّة ما أصيبت جماعة بدائها، إلاّ وأسرع إليها الانحلال وتعجّلها الخذلان في بضع ثوان.

قال تعالى: ﴿ وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ... ﴾ إلخ. وقال تعالى في معرض المدح: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا... ﴾ إلخ.

3- إصلاح ذات البين هو الدّخول والسّعي بين اثنين أو قبيلتين بربط بعضهما ببعض، وإزالة السّخائم، وسوء التّفاهم فيما بينهما، وحملهما على الأُخوَّة والاتّحاد. قال تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مَنِ الْمُؤْمِنِينَ... ﴾ إلخ. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ... ﴾ إلخ.

4- إقامة الجماعة في الصّلوات وفيما هو من باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿ ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُون... ﴾ إلخ.

5- وبذل المال في سبيله كالبذل في تأسيس المعاهد التّعليميّة والملاجئ لإيواء الضّعفاء واليتامى وذوي الحاجات. قال تعالى: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ وما أدراكَ ما العَقَبَةُ... ﴾ إلخ.

6- وأداء فريضة الزّكاة وتنظيمها ثمّ توزيعها على مستحقِّيها بسخاء وطيب نفس. فلا تكدِّرُوها بالمنّ والأذى أو تجعلوها في مقابلة عمل من بعض المستحقّين.

النَّا يامْنَةَ الْعايْبَةَ[158]

النَّا يامِنَة الْعائبة. كُلُّ أَبْناءِ جِيلِي يَذْكُرونَها بِالْقَرْقُور. عَجُوزٌ عَرْجاءُ شَمْطاءُ قَذِرَةُ الثِّيابِ والْمَنْظَرِ، رَثَّةُ الْحالِ زَرِيَّتُهُ، تَجُوبُ دُرُوبَ الْقَرْيَةِ رَوْحَةً جِيئَةً مُتَّكِئَةً على عَصاها الأَشْبَهِ بِهَرَاوَةِ جالُوتَ لَئِنْ كانَتْ لَهُ هَرَاوَةٌ مِنْها بِعَصا سَيِّدِنا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ فَتَأْخُذُ قَدْحاً في هَذا وذاكَ لا يُمْنَعُ مِنْ شُوَاظِ فَمِها الأَفْرَمِ أَحَدٌ.

أَجَلْ حُبِيَتِ الْمَرْأَةُ لِساناً سَلِيطاً جارِحاً بَلْ كاسِراً يُهَرِّسُ قَفَصَ الصَّدْرِ قَبْلَ أَنْ يُذِيبَ الْقَلْبَ ويُخَلْخِلَ الْفُؤادَ كَأَنَّها تَحْقِدُ على خَلْقِ اللهِ طُرّاً مِمَّا نالَها مِنْ قَدَرٍ وتَنْتَقِمُ مِنْ كُلِّ ما يَتَحَرَّكُ عَلى قَدَمَيْنِ... أَرْجُو أَلاَّ تَكُونَ قَدْ جاوَزَتْ ذَا الْقَدَمَيْنِ... مِمَّا نَدَرَ لَها مِنْ قِسْمَةٍ.

لَمْ تَكُنِ الْمَرْأَةُ مَدَّاحَةً ثَنَّاءَةً، ولا اخْتَلَطَ لِسانُها بِالْعَسَلِ قَطُّ بَلْ هَلاَّ عَرَفَتْ لَهُ طَعْماً أَبَداً؟! ولَكِنَّ بَناتِ شَفَتَيْها الْيابِسَتَيْنِ كَجِلْدِ الأَفْعَى إذا تَساقَطَ اطَّرَدَتْ أَمْثالاً عِنْدَ الْقَرَوِيِّينَ يَتَدَاوَلُونَها في سِتْرٍ مِنْها شَأْنَ

---

[158] برواية زينة بهلول (42 عاما). سُجِّلت عام 2009م.

الْحُطَيْئَةِ وإخْوانِهِ صَنَعُوا لأَنْفُسِهِمْ شُهْرَةً بَيْنَ الأَنامِ بِما احْتَرَفُوهُ مِنْ هِجاءٍ لاذِعٍ بَلْ وخَلَّدُوا أَنْفُسَهُمْ بِما خَلَّدَ النَّاسُ مِنْ أَفْحَشِ أَقاوِيلِهِمْ وقَدْ كانَ لِصاحِبَتِنا رُباعِيَّاتٌ وسُباعِيَّاتٌ في تَقْبِيحِ الْخَلْقِ قَبَّحَها اللهُ مِنْ صَنْعَةٍ شَنِيعَةٍ!

مَنْ تناسَى في الْحَمَّامِ "مارْكِي عْلَى فْلانْ مارْكِي، ومارْكِي على عَلاَّنْ ومارِكِي!"[159] تُصَبِّحُ بِها إشْراقَةَ النَّهارِ تَحْتَ طِيقانِ النَّاسِ وطُولَ عَتَباتِهِمْ إيذاناً بِالشَّرِّ بَدَلَ"يا فَتَّاحُ، يا رَزَّاقُ" يَفْتَتِحُ بِها الأَطايِبُ إصْباحَهُمْ بَعْدَ الأَذانِ إلى الْفَلاحِ.

ذكَّرَتْنِي بِها زِينةُ صَدِيقَتِي للهِ دَرُّها وكُنْتُ قَدْ أَغْفَلْتُها لِبُعْدِ انْفِصالِي عَنِ الْقَرْيَةِ، ولَئِنْ كانَ دِينُنا الْحَنِيفُ قَدْ أَوْصانا بِذِكْرِ مَحاسِنِ مَوْتانا فإنَّ نَفْسِي تأَبَى تَقَزُّزاً لِمَا تُثِيرُهُ في ذاتِي كَأَنَّنِي أَحْتَفِظُ لَها بِمَوْجِدَةِ طُفُولَةٍ...

ولكِنْ، مَنْ ذَا الّذِي "يُمارْكِي"؟ هَلْ هُوَ الخالِقُ الْبارِئُ عَزَّ وجَلَّ فَتَكُونَ إذاً مِنَ الْحُرْمَةِ مَظْلَمَةٌ والْعِياذُ بِاللهِ؟ أَمْ تُراهُ جِنِّيُّها تَتَحَرَّشُ بِهِ عَلى الْبَرِّيَّةِ؟! ثُمَّ إنَّ لَفْظَةَ "مارْكِي" هَتِهِ تَتَّصِلُ كُلَّ الاتِّصالِ بِإرْهابِ الاِسْتِعْمارِ وَوَيْلاتِهِ؛ فَقَدْ كانُوا يُسَجِّلُونَ لِلتَّجْنِيدِ الإجْبارِيِّ والإحْصاءاتِ الْمُرِيبَةِ وفي الْمَكْتَبِ الْعَرَبِيِّ ثُمَّ الْمَكْتَبِ الثَّانِي ولِبِطاقاتِ التَّمْوِينِ وإجازاتِ التَّسْرِيحِ وهَلُمَّ جَرّاً مِمَّا حَدَّثُونا بِهِ ولَمْ يُحَدِّثُونا. اللَّهُمَّ اُسْتُرْ!...

بَيْدَ أَنَّ الْجَمِيعَ في دَشْرَتِنا يَذْكُرُ قَوْلَها أَواخِرَ الثَّمانِينِيَّات:

---

[159] سَجِّلْ وهِيَ مِنَ الْفِرَنْسِيَّةِ: Marquer

"عَنَدْ بالكُمْ اسْتَقَلِّيتُ (مْ)[160]

رَاهُ يُخْنُقْ بَالسِّيلانْ

وراهْ يَذْبَحْ

مارْكِي عْلِيهْ

حَتَّى يُخْرُجْ بَنْ بَلاَّ مْنَ الْحَبْسْ

ويْجِيبُوا سَبَعْ رِيَّاسْ

مارْكِي عْلِيهُمْ "

وسُبْحانَ اللهِ قَدْ أُخرِجَتْ لَفَظَتُها إلى صَوَابٍ وإذا بِها كِهانَةٌ بِما سَتَغْرَقُ فِيهِ الْبِلادُ والأَنامُ مِنْ مِحَنِ التِّسْعِينِيَّاتِ وجَوائِحِها فَما الأَمْرُ ؟

ولَمْ يَزَلْ الْجَمِيعُ يَتَراجَعُ لَفَظَتَها وهِيَ تُجِيزُ عَنْ بابِ إحْدَى مَعارِفِها:

"فْلانَة بَنْتْ فْلانْ

عْزِيزَةْ سَبْعَة

لَبَّسْها ايَّهْا الَحْرِيرْ

---

[160] ظَنَنْتُمْ أَنَّكُمُ اسْتَقْلَلْتُمْ

إنَّهُ يَخْنُقُ بِالسِّلْكِ

وإنَّهُ يَذْبَحْ

سَجِّلْ عَلَيْهِ

حَتَّى يَخْرُجَ ابْنُ بَلاَّ مِنَ الْحَبْس (ابْنُ بَلاَّ أَوَّلُ رَئِيسٍ جزائِرِيٍّ بَعْدَ الاِسْتِقْلال)

ويَجْلِبُوا سَبْعَةَ رُؤَساء

سَجِّلْ عَلَيْهِمْ

وحَطْها فُوقْ السْرِيرْ
وانا زَمْ لِي ابَّيّي الْقَفَّالَةَ
وخَلاَّنِي في الزَّبَّالَة"[161]

وكَذَلِكَ مِنْ كَلامِها الْكَثِيرِ حَتَّى أَراحَها اللهُ مِنَ الدُّنيا ذاتَ يَوْمٍ في بَيْتِها مُنْعَزِلَةً كَما عاشَتْ.

لَمْ أَزَلْ أَتَساءَلُ: هَلْ كانَ لِلْحُرْمَةِ مَظْلَمَةٌ أَمْ أَنَّهُ جِنِّيُّها يُحَرِّشُ بَعْضُهُما بَعْضاً على الْخَلْقِ؟

بَلْ أَصابَ مَنْ قالَ: "اِبْنُ الإِوَزِّ عَوَّامٌ وكُلُّ عُودٍ يُشْعِلُ بِدُخانِهِ." فَقَدْ كانَتْ أُمُّ النَّا يامْنَة وجَدَّتُها مِنْ فَصِيلَةِ تِلْكَ الْقَسْوَةِ وقَدْ رُوِيَ عَنْ والِدَتِها أَنَّهُ خَطَرَ لَها تَرْكُ بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ وقَدْ أَصابَها الرَّمَلُ. ولَمْ يَكُنْ حَمُوها بَعْلاً بَلْ ذا عَقْلٍ رَزِينٍ ونُهًى راجِحَةٍ، أَشْفَقَ على أَحْفادِهِ بِالْمَوَدَّةِ ورَعاهُمْ بِكَبِدِ الدَّجاجَةِ الرَّؤُومِ على فِراخِها دافِعاً أُمَّهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. ومَعَ ذَلِكَ لا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ الطَّيِّبَةُ في الأَرْضِ الْبُورِ بَيْدَ أَنَّ الزَّرِيعَةَ الْمُرَّةَ

---

[161] فُلانَةُ بِنْتُ فُلان

عَزِيزَةُ سَبْعَةٍ (لَها سَبْعَةُ إِخْوَةٍ يُعِزُّونَها جَمِيعاً)

أَلْبَسَها أُبَيُّها الْحَرِيرْ

وحَطَّها فَوْقَ السَّرِيرْ

وأَنا زَمَّ لِي أُبَيِّي الْقَفَّالَةَ (كَتَّانَةٌ طَوِيلَةٌ يُعْصَبُ بِها ما بَيْنَ الْقِدْرِ والْكَسْكاسِ حَتَّى لا يَتَسَرَّبَ بُخارُهُما فَيَطْهُوَ الْكُسْكُس)

وخَلَّى عَنِّي في الزِّبالة

تَكُونُ في قَلْبِ الْحَبَّةِ الْحُلْوَى فَاتَّخَذَتْ مِنْ صَغِيرِها مَطِيَّةً وبَرَكَتْ عَلَيْهِ تُؤْذِيهِ مِنْ كَفِّها سَوْطاً ولَطْماً والْجَدُّ يُولِجُ اللُّقْمَةَ في فِيهِ يَلُوكُها ثُمَّ سُرْعانَ ما يُلْقِيها لِلْكَلْبِ لِقِلَّةِ اصْطِبارِهِ على ما يَبْلُغُهُ مِنْ عَوِيلٍ ثُمَّ لَمْ يُطِقْ فَوَثَبَ إِلَيْهِ خَلَّصَهُ. فَما كانَ مِنْها سِوَى أَنْ أَلْقَتْ صُرَّةً على ظَهْرِها تَعَمَّدَتْ إِعْدادَها وأَمْسَكَتْ بِأَصْغَرِها وقَطَعَتْ بِهِ الْوادِيَ الْحامِلَ إلى الرَّقَبَةِ تَفِحُّ كَالْحَيَّةِ تَنْفُثُ رَهَجَها:

ـ مَنْ أَرادَنِي يَتْبَعْنِي!

فَتَبِعَها صِغارُها فَإِذا لامَها النَّاسُ أَجابَتْ:

ـ الْقُفَّةُ والْعَصا وفُلانٌ وفُلانٌ!

تَقْصِدُ التَّسَوُّلَ بِأَبْنائِها خَيْرٌ مِنَ "الضَّيْمِ" فَما اشْتَدُّوا بَعْضَ اشْتِدادٍ ـ وما عَسى أَنْ يَشْتَدُّوا ـ حَتَّى زَفَّتْ بِهِمْ سُخْرَةً إلى ما وَراءَ الْبَحْرِ فَما انْكَفَأُوا مِنْ فِرَنْسا إلاَّ وقَدْ تَآكَلَهُمْ السُّلُّ قاضِياً على حَياتِهِمْ رَيْعانَ الشَّبابِ.

وأَرْدَفَتْ صَدِيقَتِي: "مارِكي عْلِيهْ مارْكِي" يَعْنِي سَجِّلْ عَنْهُ ولا أَرَى مَنْ يُسَجِّلُ هَذا الْكَلامَ سِوَايَ!

حَفِظَها اللهُ صَدِيقَتَنا فَشَتَّاما ساعَدَتْنا ولَمْ تَزَلْ في تَسْجِيلِ تُراثِ شَعْبِنا وذاكِرَتِهِ.

(باريس، أغسطس 2009)

المحتوى